



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٨١٥



معهد الدراسات الإسلامية
شعبة الدراسات الاجتماعية

١٠٠٢٨٠١

التعريب في مصر الإسلامية
وأثره في الحياة الفكرية حتى بداية العصر الفاطمي

بحوث

ناهد حسن اسماعيل القصير

قدم لنهل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية
بإشراف الاستاذ الدكتور / علي حسني الخموطلي

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

١ مقدمة
٦ تمهيد : احوال مصر قبل الفتح الاسلامى

الباب الاول

١٢ العوامل المؤثرة فى التمريب فى مصر الاسلامية

١٣	١- موقف المصريين من الفتح العربى وأثره فى اقبالهم على الاسلام والتمريب
٣٢	٢- القبائل العربية الوافدة على مصر
٤٢	٣- اثربناء الفسطاط فى اتخاذها مركزا للتمريب
٥٦	٤- انتشار الاسلام فى مصر وأثره فى التمريب
٧٧	٥- موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية
٩٤	٦- أثر سياسة الضرائب فى انتشار الاسلام والتمريب
١٤٨	٧- ثورات المصريين وأثرها فى التمريب

الباب الثانى

١٦٣ مظاهر التمريب وآثاره فى الحياة الفكرية

١٦٤	١- تمريب الدواوين وأثره فى انتشار اللغة العربية فى مصر
١٧٧	٢- اثر التمريب فى قيام المدرسة العلمية الاسلامية
٢٠١	٣- دور الذميين المصريين فى الحياة الفكرية العربية
٢٢٦	٤- دور الصحابة والتابعين فى التمريب وفى النهضة الفكرية
٢٣٥	٥- دور العوالى فى النهضة العلمية
٢٤٢	٦- أثر التمريب فى ظهور الفكر الصوفى ودوره فى الحياتيين السياسية والاجتماعية فى مصر
٢٥٧	٧- دور التمريب فى نهضة الدراسات اللغوية والنحوية
٢٧٢	٨- ديوان الرسائل ودوره فى تدعيم التمريب فى مصر الاسلامية
٢٩٠ المصادر الاصلية
٣٠٨ المراجع العربية الحديثة
٣١٥ المراجع الافرنجية المترجمة الى اللغة العربية
٣١٨ المراجع الافرنجية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يدرس هذا البحث التعريب في مصر الاسلامية وأثره في الحياة الفكرية ،
حتى بداية العصر الفاطمي . وقد رأيت ان اتجه ببحثي الى ابراز صفحة مشرقة
من صفحات تاريخ مصر الخالدة ، فدرس المسالك التي سلكها التعريب الى القطر
المصري ، حتى اصبحت مصر اقلية بارزا من اقاليه العالم العربي الاسلامي . ثم
لدرس وسائل التعريب والعوامل المؤثرة فيه ، ومظاهره ثم آثاره الفكرية .

كان الاسلام في القرن السابع الميلادي أعظم الحركات الاصلاحية في العالم
اجمع ، عبر جميع المصور فالاسلام حضارة طامة شاملة تصلح لكل انسان ، ولكل
بيئة ، ولكل عصر . ولم تنجح اللغة العربية في تحقيق وحدة العرب ولم تخلصق
منهم امة واحدة ، بل تفرعت الى عدة لهجات حتى اصبحت بعض اللهجات وكأنها
لغات مستقلة . وتنوعت الحياة السياسية في الجزيرة العربية ، فأينا الدولة فسي
اليمن والمدينة المستقلة في الحجاز ، والقبيلة في البادية . وتغلبت البداوة على
معظم العرب واثرت في فكرهم وعاداتهم وتقاليدهم وفي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية
وكان لسان العربي أنشط من عقله ، ولذا اشتغل في الجاهلية بالعلوم الادبية
واللغوية ، أكثر من اشتغاله بالعلوم العقلية ونجح الاسلام في خلق امة عربية
موحدة ذات حضارة واحدة .

والاسلام هو الدين العالي وحضارته تتصف بالعالمية والانسانية وقد بدأ
الرسول عليه الصلاة والسلام بتحقيق عالمية الدين الاسلامي ، فكانت كتبه الى ملوك
وأمراء الدول المعاصرة ومنهم المقوقس نائب الامبراطور البيزنطي في حكم مصر .
وكان من بين الهدايا التي أرفق المقوقس بها رده الى الرسول الكريم ، ماريه
القطبية التي أنجب منها ابنه ابراهيم . وشكر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتح
مصر وأوصى بالقبط خيرا .

وتابع الخلفتان الاولان ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب سياسة الرسول
الكريم في تحقيق عالمية الدين الاسلامي فكان فتح مصر في عهد الخليفة الثاني

عمر ، على يد القائد العربي عمرو بن العاص ، فبدأت مصر تدخل التاريخ
الاسلامى من أوسع أبوابه .

شاء الله تعالى ان يختار خاتم رسله وأنبيائه من بين العرب ، كما شاءت
حكيمته السامية ان ينزل آخر الكتب السماوية باللغة العربية . وجاء ذكر مصر فى
القرآن الكريم عدة مرات ما كرمها وشرفها على كثير من الاقطار والبلاد . وكانت
مصر هى الارض الخصبة للمقيدين المسيحية واليهودية ، وطش على أرضها موسى
وعيسى عليهما السلام ، ثم وجد الاسلام واللغة العربية مجالات فسيحة على
ارض مصريين أهلها . كما قد راى المصريون الحضارة العربية الاسلامية حق قدرها
فالشعب المصرى عريق فى الحضارة ويستطيع استيعاب الحضارات العالمية
وهضمها وتقبلها .

لم يكن الفتح العربى لمصر غزواً أو توسعاً إقليمياً بل كان تحقيقاً لمصلحة
الاسلام من جهة وانقاذاً لشعب مصر من مظالم البيزنطيين . وتحريراً للمصريين
من الاضطهاد الدينى وتطويراً للحياتين الاجتماعية والاقتصادية . فقد حصل
الاسلام منه مبادئ الخالدة من حرية واخاء ومساواة وعدالة . وكان المصريون قد
سمعوا بسياسة العدل والتسامح التى اتبعها الفاتحون العرب فى بلاد الشام ،
ولذا لقي جيش عمرو بن العاص ترحيباً من المصريين .

ويحتل بدراسة الارض التى ألقى فيها الفاتحون العرب بذور الاسلام والعروة
ويتتبع البحث هذا الفرس الطيب فى مراحل نموه المختلفة حتى ازهر وأثمر
فتركت مصر وراءها الماضى البيزنطى الرومى الفرعونى بما صحبه من تخلف
حضارى ومظالم سياسية لتبدأ تاريخها العربى الاسلامى بما انصف به من حضارة
زاهرة وتقدم عمرانى ونهضة فكرية .

اتبعنا المنهج الموضوعى ، مع المحافظة على التسلسل الزمنى ولم يُسيو
باحتلال على أسس زمنية ، بحيث يُجمل لكل من عصر الولاة او العصر الطولونى

أو العصر الاخفدي بابا خلا به بل رأيتك تقسيم البحث الى موضوعات لكل موضوع وحدته الفكرية وتكامله العلمي وخصائصه المتميزة مع دراسة جوانب كل موضوع ففى هذه المصور الثلاثة .

وقد واجهت عدة مشكلات علمية فالموضوع متسع الاطراف ، متشابك الاحداث ، والتمريب يعنى مقبلا سنة الحياة والتطور والارتقاء ، بدون توجيه مقصود او قوة دفع مرسومة ، فقد انضج كل من الاسلام واللغة العربية لعنصر الاختيار وقبل المصريون عليهما فى حرية تامة مع بعض المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فالحياة متشابكة متداخلة فى عناصرها المختلفة المتعددة . والتمريب له دوافع ومظاهر ونتائج كثيرة متنوعة فكان علينا ان نلم بها كلها بقدر الامكان ، مفصلين الحديث عن أبرزها وأهمها ، مجملين الدراسة للموضوعات الثانوية والفرعية .

وقد رأيت ان قسم بحثنا الى بابين كبيرين مع تفريعهما الى عدة موضوعات ، ان لم نشأ تفصيل المادة العلمية ، كما اردنا المحافظة على تكامل التمرريب ففى دوافعه ومظاهره وآثاره الفكرية وقد بدأ البحث بتصعيد شمل دراسة موجزة عن حالة مصر قبيل الفتح العربى ودرس الباب الاول العوامل المؤثرة فى التمرريب وما صاحبه من انتشار الاسلام . وقد تناولنا فى هذا الباب عدة موضوعات متنوعة قد درسنا موقف المصريين من الفتح العربى ، واثار هذه المواقف فى اقبالهم على اعتناق الاسلام وعلى التمرريب . ورأينا القبائل العربية الوافدة على مصر ، ثم درسنا اثر قيام مدينة الفسطاط فى اتخاذها مركزا للتمرريب وكيف اصبح جامع عمرو بن العاص اول جوامع مصر والقارة الافريقية — مركز اشعاع الاسلام والمروية ثم تتبعنا خطوات انتشار الاسلام وأثره بالتالى فى انتشار اللغة العربية ، ثم درسنا اثر اقبال المصريين على تعلم اللغة العربية فى اتساع حركة التمرريب ، كما درسنا موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية وأثر كل مسن سياسة الضرائب وثورات المصريين فى التمرريب .

ودرس الباب الثانى من هذا البحث مظاهر التمرريب وآثاره فى الحياة الفكرية ودرسنا فى هذا الباب عدة موضوعات ، فرأينا اثر تمرريب دواوين

الحكومة في مصر الاموى في انتشار اللغة العربية في مصر ثم اثر التمريب في قيام المدرسة العلمية الاسلامية وتبتملك دور الذاهبين المصريين في الحياة الفكرية العربية وأبرز دور الصلابة والتابعين والقضاة في التمريب وفي النهضة الفكرية. كما كان للموالى دورهم المؤثر ايضا في النهضة العلمية. كما ادى تمريب مصر الى ظهور فكر صوفى كان له اثره في الحياتين السياسية والاجتماعية في مصر. ثم درسنا دور التمريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية ، ثم شهدنا ديسوان الرسائل الذي قام بدور مؤثر في تدعيم حركة التمريب في مصر الاسلامية وتتضح تفاصيل هذه الموضوعات في فهرس الرسالة.

اطلمت على كثير من المصادر الاصلية والمراجع الحديثة العربية والافرنجية دونها في حواشى البحث في قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة. والحقيقة ان كثرة المادة العلمية وتناقضها وتضاربها احيانا ، كانت من مشاكلنا العلمية. وقد اهتم المؤرخون الاقدمون المسلمون بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة بالنهضة الفكرية العربية في مصر وأمدونا بكثير من الحقائق والمعلومات. كما ان اساتذة جامعاتنا المصرية قدموا لمكتبنا العديد من الابحاث القيمة.

وفي ختام هذه المقدمة ، أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان لاستاذى المشرف الاستاذ الدكتور على حسنى الخرسوطلى على كريم رعايته وحسن عنايته فقد اعطانى الكثير من علمه وجهده ووقته. جزاء الله تعالى عن الدراسات الاسلامية خير الجزاء .

كما اتقدم بمظيم الشكر وبالغ الامتنان للمؤرخ الاجل الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مور ، استاذ الاساتذة ، والمؤرخ الجليل الامام الدكتور احمد السرايى على تفضلهما بقبول مناقشة رسالتى ، حفظهما الله تعالى ومنعهما بالصحة والعافية وجعلهما ذخرا لكل الدارسين والباحثين.

ويعد • نهضة • في عورة مشيئة من صور تاريخ مصر • العربية الإسلامية •
أقدمها لكل مسلم • وعربي • ومصري • لتكون الطائر والتدوية والأسوة • لنمضي
على طريق الاجداد • نحو المزيد من الأمجاد • والله عز وجل ولي
التوفيق •

تمهيد

أحوال مصر قبل الفتح العربي الاسلامي

كانت لآحوال مصر السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، قبيل الفتح العربي الاسلامي اثرها الواضح في موقف المصريين من هذا الفتح ، ثم من استقرار العرب الفاتحين ، ثم من ^{اقبالهم} اقبالهم على اعتناق الاسلام والتعرب لغويًا وخصريًا .

تحولت مصر الى ولاية رومانية ثم بيزنطية ، منذ انتصار اغسطس قيصر على كليوباتره في موقعه (أكتيوم) سنة ٣١ ق م . واستيلائه على مصر ، والقضاء نهائيا على دولة البطالمة فيها . (١) ولم يختلف الوضع في مصر في العهد البيزنطي (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كان عليه في العهد الروماني (٣١ ق م - ٢٨٤ م) فقد عانت مصر في العهدين على السواء - من الاضطهاد الديني ، والمظالم الاجتماعية والاقتصادية . فضلا عن اهمال الرومان والبيزنطيين لمرافق البلاد .

انقسم سكان مصر الى ثلاث فئات هي : المصريون ، والبيزنطيون ، واليهود ، الى جانب اقلية اخرى اجنبية .

أما المصريون ، فقد عاشوا حياة ضئيلة ومشفقة ، نتيجة كثرة الضرائب المفروضة عليهم ، حتى ان كثيرا من الفلاحين هجروا اراضيهم وقراهم بحثا عن سداد الضرائب . (٢)

وكان الفلاحون ينقسمون الى طبقتين كبيرتين ، الاولى منها هي طبقة مزارعي الضياع الكبيرة ، وهم ارقاء ملتصقون بالارض وملزمون بخدمة اصحاب هذه الضياع .

(١) الخريوطي : مصر العربية الاسلامية ص ٧

(٢) Hilne : A History of Egypt Under Roman Rule, Vol. 5, P. 118 - 119.

والطبقة الثانية تضم المزارعين الأحرار ، وهم إما ملاك لقطع صغيرة من الأرض ، أو مستأجرون لدى ملاك متوسطين . وكان هؤلاء أيضا يرتبطون بالأرض ويحظون عليهم بمقاديرتها ، رغم تقسيمهم رسميا وظاهريا بالحرية . (١) وعلى أكتاف هؤلاء الفلاحين التمساء أخرى كبار الملاك وكنوا طبقة من النبلاء الأقطاعيين بدأت تظهر في القرن الرابع الميلادي وبلغت أقصى قوتها في القرن السادس الميلادي . وغدت هذه الطبقة - بحكم مصالحها - مرتبطة بالحكومة البيزنطية منذة لبرغياتها ، وحامية لمصالحها في مصر . (٢) ومن هذه الطبقة النبيلة ظهرت بعض الأسر الكبيرة . وقد حرصت هذه الأسر على إخضاع من جاورها من الفلاحين الأحرار للسيطرة البيزنطية ، حتى أصبحوا بمثابة أقتان للأرض . وانصف هؤلاء الفلاحين البؤسا بالجهل والقصور الفكري وإن اشتهروا بحقوق تدبيرهم وبقوتهم وخضوعهم التام لكنيسة الاسكندرية .

طاني المصريون من فداحة الضرائب وكان الإمبراطور يحدد سنويا مقدار هذه الضرائب في رسالة يبعثها إلى نائبه في حكم مصر ويقوم الحاكم بتحديد الضرائب على الأقاليم والقرى . (٣) ومن أهم الضرائب ضريبة القمح ، حيث تقدم كل قرية سنويا قدرا محددا من القمح ويرسل الحاكم القمح إلى العاصمة البيزنطية . (٤) ثم كانت هناك ضريبة الرؤوس تفرض على المصريين الذين تتراوح أعمارهم بين أربع عشرة سنة وستين سنة . (٥) كما فرض البيزنطيون تقديم الهدايا للإمبراطور و ضرائب مختلفة على التجارة والدخل والمبيعات والتركات والمعقود والحيوانات . وطاني المصريون من مظالم جباة الضرائب ولجأوا إلى حماية كبار الموظفين المدنيين والمسكرين فكان المالك الصغير عندما يمانى من الضرائب يلجأ إلى أحد جيوانه الأقوياء لحمايته على أن يتنازل له عن أرضه ويوزعها له كمستأجر . (٦)

(١) بل : مصر من الاسكندرية الأكبر حتى الفتح العربي (ترجمة عبد اللطيف احسان على وصعد عواد حسين) ص ٢٤٣

(٢) Diehl: L'Egypte Chretienne et Byzantine, P.403. (٢)

(٣) Milne : Op. Cit. P. 118 - 119. (٣)

(٤) Hardy: The Large Estates of Byzantine Egypt, P.7. (٤)

(٥) Milne : Op. Cit. P.121. (٥)

(٦) بل : مصر من الاسكندرية الأكبر حتى الفتح العربي ص ٢٣٥-٢٣٦

وعانى المصريون أيضا من الاضطهاد الدينى نتيجة الخلاف الذهبى • وكانت المسيحية قد انتشرت فى مصر قبل انتشارها فى الامبراطورية الرومانية التى احتفظت بوثنتها ولقى المصريون المسيحيون كثيرا من مظاهر الاضطهاد وخاصة فى عصر الامبراطور دقلديانوس (١) • وبدأ فرار المصريين الى الصحراء وفناء الاديوية (٢) حتى تولى الامبراطور ثيودوسيوس فجعل المسيحية دين الدولة الرسمى • وقام خلاف بين اثنين من كبار رجال الدين المسيحى فى الاسكندرية هما (اثناسيوس) و (اريوس) حول طبيعة المسيح وتدخل الامبراطور (قسطنطين) فى الخلاف وعقد اجتماعا فى (نيقية) لانهاى الخلاف • وأدان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م (آريوس) وسجنه ونفى اتباعه • وتحددت العقيدة الارثوذكسية باعتبار المسيح من نفس مادة الاب • أى ان صفة الالهية مستمدة من الاب • (٣)

تولى اثناسيوس بطريركية الاسكندرية وتمصب لمذهب نيقية • ولكن الامبراطور البيزنطى أدرك ان قرارات مجمع نيقية تتعارض مع آراء معظم رجال الكنيسة والرعيمة فبدأ ينحاز الى الارويسية وانقلب على انصار مذهب نيقية • وأمر البطريك اثناسيوس بان يعيد آريوس الى الكنيسة فرفض فقرر الامبراطور نفيه • مما أدى الى اضطراب الاسكندرية وهرب اثناسيوس الى الصحراء • (٤) وبدأ تدخل الدولة فى شئون الكنيسة وأصبح للاساقفة حقوق مدنية ومنها فرض الضرائب كعمونة للكنيسة • (٥)

ومنذ ذلك الحين سيطر بطاركة الاسكندرية على الاحوال الداخلية فى مصر وحرصوا على استغلال كنيستهم واحتضان شعبهم كما قام صراع بين الاساقفة واتباعهم واستمرت هذه الصورة من سنة ٣٨٥ الى ٤٥١ م • (٦)

(١) يسمى عصر هذا الامبراطور (عصر الشهداء) نتيجة قتل كثير من المصريين وهدم الكنائس (ساويرس بن المقفع : سير البطاركة الاسكندريين ج١ ص ٤٧-٤٨)

(٢) بل : نغم للمرجع ص ٢١٧ وما بعدها • العربى : مصر البيزنطية ص ٢٤٩

Milne : Op. Cit. P. 89.

(٣)

(٤) العربى : مصر البيزنطية ص ٥٣

(٥)

Milne : Op. Cit., P. 89.

(٦) العربى : مصر البيزنطية ص ٥٣

وفى سنة ٤٥١ م^(١) عقد مجمع خلقيدونية لاقرار صيغة جديدة للعقيدة المسيحية ، وقرر الاساقفة المجتمعون ان للمسيح طبيعتين ، كما أصدر قرارات بابطال مذهب العقيدة الواحدة ، وتم خلع (ديسقورس) بطريرك الاسكندرية ممسكاً أدى الى غضب المصريين .^(٢) ورفض المصريون قبول (برثوريوس) بطريركاً ، فأرسل البيزنطيون كتبة عسكرية لارغام المصريين على قبوله .^(٣) ورفض المصريون قرارات مجمع خلقيدونية وبدأت روح انفصالية استقلالية عن الدولة البيزنطية .

ومعد سنة ٤٥١ م انفصل الاقباط عن الكنيسة البيزنطية تحت شعار الاعتقاد بالطبيعة الواحدة كما اطلق المصريون على أعدائهم في المذهب اسم (الملكانيين) باعتبار المذهب الملكي الامبراطورى .^(٤) وزاد انتشار اللغة القبطية والادب القبطى فى اعاق مصر بدلا من اللغة اليونانية والثقافة اليونانية .^(٥) وبدأ صراع بين المصريين اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة والبيزنطيين اصحاب مذهب الطبيعتين . واستمر الصراع حتى الفتح العربى لمصر .

اليهود : تركر اليهود منذ المصر البطلى فى مدينة الاسكندرية ، وكانت لهم جاليات اخرى فى بعض مدن مصر السفلى ، وكذلك فى القيوم . وفى البهنسا ، وأقام اليهود فى أحياء خاصة بهم وتحول بعض اليهود الى المسيحية مع احتفاظهم بأسمائهم القديمة .^(٦) واشتغل معظم اليهود بالتجارة سواء فى داخل مصر او مع دول حوض البحر المتوسط وجنوا ثروات ضخمة .^(٧) كما اشتغل بعض اليهود بالزراعة والاعمال اليدوية فى مدن مصر .^(٨) وأبدي اليهود عداً

(١) فى عهد الامبراطور ماركيان ٤٥٠-٤٥٧ م

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد) ص ١٠٤-١٠٥

(٣) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها ج٢ ص ٥٨-٥٩

(٤) Hardy: The large Estates of Byzantine Egypt, P. 21.

(٥) المربني: مصر البيزنطية ص ٧٥

(٦) The Jewish Encyclopedia, Vol. 5, P. 60.

(٧) Milne : Op. Cit., P. 98 - 99.

(٨) Goitein : Jews and Arabs, Their Contacts through the Ages. P. 7.

للمسيحية والمسيحيين ، مما عرضهم دائما للمقابر والعذاب ، حتى ان البطرك كيرلس امر سنة ٤١٥ م بطردهم من الاسكندرية واغلاق معابدهم واستباحة بيوتهم ، وتصرف اليهود لمذبحة كبيرة . (١)

وكان عداوة المصريين لليهود مظهرها من مظاهر عدايتهم للروم . اذ كان الهجوم على اليهود اسلم عاقبة لهم من الهجوم على الروم . (٢) غير ان الكراهية العنيفة المتأصلة في نفوس اليهود ضد النصارى وجدت الفرصة للانتقام اثناء الفزو الفارسى للشام ومصر (٦١٥-٦١٨ م) فانتفضها اليهود وفتكوا بالنصارى ودمروا كنائسهم وأحرقوها . فلما انتصر هرقل على الفرس وخلص الشام ومصر من الفرس (٦٢٧ م) طلب منه نصارى الشام ومصر ان يكتسبهم من الانتقام من اليهود وذلك على الرغم من العهد الذي منحوا اياهم بحمايتهم . ولما اشتد ضغط النصارى عليه اجابهم الى طلبهم ، وأمر باجلاء اليهود عن بيت المقدس وعدم عودتهم اليه ابدا . (٣) وانتفض النصارى الفرصة وهاجوا اليهود في كل من مصر والشام ووقعت مذبحة طامة لليهود سنة ٦٣٠ م قتل فيها كثير منهم ، ولم يفلت من القتل والتعذيب الا ^{الذين} الذين هربوا أو اختفوا في الصحارى والكهوف . (٤)

ولكن اليهود استعادوا قوتهم ومركزهم حتى بلغ عددهم بعد ذلك بمئزر سنوات اى قبيل الفتح العربى لمصر ^{أريمنون} القا في الاسكندرية وحدها كما ساهموا باموالهم بقسط كبير في الجزية التى دفعتها مصر لبيت مال المسلمين . (٥)

البيزنطيون : كونت الجالية البيزنطية طبقة ارسقراطية في مصر ، اذ كانت هى الطبقة الحاكمة . فقد تركزت في ايدي البيزنطيين معظم الوظائف الكبرى ، فكانوا هم حكام الاقاليم وقواد الفرق العسكرية ومنهم من كان ينتخب اعضاء (مناصب الاسكندرية) ومن الطبيعي ان تتركز معظم ثروة البلاد في ايديهم نظرا لسيطرتهم

(١) المرقى : مصر البيزنطية ص ٢٥١

(٢) بل : مصر من الاسكندرية الاكبر حتى الفتح العربى ص ١٢٦

(٣) تبلر : فتح العرب لمصر ص ١١٩

(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكتيبتها ج ٢ ص ١١٩

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢



(١)

على الاقتصاد المصري واشتغالهم بالتجارة الخارجية ما زاد من نفوذهم وسلطانهم وكان ذلك على حساب التجار المصريين الذين قل اشتغالهم بالتجارة الخارجية الى حد ما ، بعد ان كانت السفن المصرية تشق مجاب البحر المتوسط وتنافس تجارة واسمة . (٢)

عاش البيزنطيون في مصر حياة كلها بذخ وترف ، واتخذوا قصورا فخمة وحمامات رائعة ما زالت اطلالها قائمة في الاسكندرية كما سكن البيزنطيون كثيرا من مدن مصر وخاصة الفيوم . (٣) وحرصت الحكومة البيزنطية على حرمان المصريين من الالتحاق بالخدمات البيزنطية في القرنين السابقين للفتح العربي حينما اشتد الصراع بين المصريين والبيزنطيين ما ادى الى حرمان المصريين من الخببرات العسكرية ومعرفة فنون القتال . (٤)

وامتلكت البطركية البيزنطية الملكية في الاسكندرية اراض واسعة ، كانت تصدر كميات ضخمة من القمح كما مارست نشاطا تجاريا واسعا وصدرت المصنوعات المصرية الى الدولة البيزنطية نتيجة امتلاكها اسطولا تجاريا كبيرا كما امتلك البطرك ثروات ضخمة بينما احدثت الكنيسة المصرية على التبرعات والاحسان . (٥)

(١) الميرنى : مصر البيزنطية ص ٢٥١

(٢) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها ج٢ ص ٩٦

(٣) غير على برديات يونانية ترجع الى العهد البيزنطى تحمل اسما يونانية في
Diehl : Op. Cit. P. 499.

(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها ج٢ ص ٩٦

(٥) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٤٤ · Hardy : Christian Egypt, P.156

الباب الأول

المواصل المؤثرة في التمريب في مصر الإسلامية

- ١- موقف المصريين من الفتح العربي وأثره في إقبالهم على الإسلام والتمريب.
- ٢- القبائل العربية الوافدة على مصر.
- ٣- أثر بناء القسطنطينية في اتخاذها مركزا للتمريب.
- ٤- انتشار الإسلام في مصر وأثره في التمريب.
- ٥- موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية.
- ٦- أثر سياسة الضرائب في انتشار الإسلام والتمريب.
- ٧- ثورات المصريين وأثرها في التمريب.

١- موقف المصريين من الفتح العربي - وأثره في إقبالهم على الإسلام والتعريب

كتاب الرسول الى القوقس :

الإسلام هو الدين العالى ومحمد عليه الصلاة والسلام هو رسول الله الى العالمين . وقد عرف الرسول الكريم عالمية العقيدة الفراء التى يدعو اليها ، ولذا ما كاد يقع صلح الحديبية فى العام السادس من بعد الهجرة ، الذى ينص على هدنة مع قريش تستمر عشر سنوات حتى بدأ النبى صلى الله عليه وسلم تحقيق عالمية الإسلام فكانت كتبه الى ملوك وامراء الدول ومنهم القوقس حاكم مصر . (١)

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام خطيب بن ابي يلتقه اللخى السى القوقس نائب الامبراطور البيزنطى فى حكم مصر وكان يقيم فى الاسكندرية ، فسلمه خطيب كتاب النبى وقد جاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى القوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . فاما بعد ، فاننى ادعوك بداية الاسلام ، فاسلم تعلم ، واسلم يؤتيك الله اجره مرتين ، يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا باننا مسلمون . " (٢)

أحسن القوقس استقبال خطيبه واكرمه ويشير المؤرخ ابن عبد الحكم (٣)

الى الحوار بينهما حول الرسول عليه الصلاة والسلام وصفاته ، ونستنتج من هذا الحوار ان القوقس كان يعلم مسبقا بظهور نبى جديد ولكنه كان ينتظر ظهور دعوته فى بلاد الشام لا فى الجزيرة العربية . واظن القوقس لخطيبه باعترافه الاسلام الا انه يخشى معارضة القبط له ، ثم طلب القوقس من خطيبه الا يتحدث الى المصريين بما كان بينهما من حوار وخاصة عن ميله الى اعتناق الاسلام .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٣ ص ٢٥٩ وما بعد ها .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤١-٤٢

(٣) المصدر السابق .

ويمكننا ان نستنتج من الروايات التاريخية ان المقوقس كان حريصا دائما على مصالحه السياسية ، فهو يحنى على نفوذه ومركزه وهو يرضح لمعارضة قومه —
للدين الجديد . فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام حين تسلم كتاب المقوقس —
" ضمن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه " . (١)

بحث المقوقس كتابا الى الرسول عليه الصلاة والسلام جاء فيه : " لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، انا بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه ، وقد علمت ان نبيا قد بقى وقد كنت اظن انه يخرج بالشام . وقد اكرمت رسولك وبحثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، ومكسوة ، وأهديت اليك بخلعة لتركبها ، والسلام " . (٢)

بشر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتح مصر واوصاهم بقبط مصر خيرا . وهناك احاديث نبوية شريفة ذكرها كتاب الحديث والمؤرخون ومنها ان الرسول الكريم قد قال : " انكم ستفتحون ارضا يذكر فيها القيروط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " . وقال عليه الصلاة والسلام ايضا " انكم ستكونون اجنادا وان خير اجنادكم اهل الخرب منكم فاتقوا الله في القبط لا تأكلوهم اكل الخضر " . (٣)

الفتح العربي لمصر:

بحث الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على رأس الجيش العربي الاسلامي لفتح مصر ، بعد ان انتهى من فتوح الشام . وبلغ المقوقس خبر قدوم عمرو بن العاص فأسرع الى حصن بابليون وبدأ اعداد القسوات (٤) العسكرية لمواجهة جيش عمرو . وكان حاكم حصن بابليون من الروم ويسى (الاعمى)

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٠-٢٦١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤٣

(٣) المصدر السابق ص ٢-٣

(٤) المصدر السابق ص ٥٣ - الكندي : الولاة والقضاة ص ٨

واراد المقوقس الا تبلغ المصريين اخبار انتصارات العرب في الشام وتخاذل الروم امام الفاتحين فبعث رسالا الى الحدود المصرية لمنع دخول القاهمين من بلاد الشام حتى لا ينقلوا اخبار الانتصارات العربية فيضمفروا الروح المعنوية . (١)

بدأ القتال بين العرب الفاتحين والروم عند (القوما) لمدة شهر وانتصر المسلمون . (٢) وتشير بعض الروايات التاريخية الى مساعدة قبط القوما لعمرو بن العاص . وتذكر انه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يسمى (ابو ميامين) لما بلغه اخبار قدوم عمرو بن العاص على رأس الجيش الاسلحي كتب الى القبط يشرهم بقرب زوال الحكم البيزنطي في مصر . وطلب من القبط مساعدة العرب . (٣) والواقع ان (ابو ميامين) هذا هو الاب (بنيامين) بطرك القبط اليمانية في مصر السدي بادر بالخروج من الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها حاكما لمصر وطركا للملكانيين فيها . وقد لجأ هذا البطرك الى بعض اديرة الصعيد .

ونستخلص من كتابات المؤرخين عن أولى مواقع الفتح العربى ان المقوقس لم يبادر بارسال نجدة لاهل القوما عندما علم بحصار العرب لهم . ويصور (بتلر) (٤) موقف المقوقس بأنه أول خيانة ارتكبها في حق دولته ويذهب الى انه كان يرى الى فصل الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب المسلمين ومساعدتهم ضد الدولة البيزنطية . كما ان المقوقس — فيما بعد — لم يهتم ايضا بارسال نجدة الى ابنته ارمانوسه في بلبيس حتى نجح العرب في فتح هذه المدينة .

(١) الواقدي : فتوح الشام ج٢ ص ٦٤

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٤ — ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٥

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ — ٥٣

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٨٨ — ١٨٩

تقدم عمرو بن العاص في الاراضى المصرية دون اى مقاومة تذكر حتى وصل السى بلبس حيث دار القتال لمدة شهر تقريبا حتى فتحها المسلمون. (١) ونفسرد الواقدي (٢) بالاشارة الى تقدم (يوقنا) صاحب حلب على رأس بعض الجنود حتى وصل الى بلبس حيث ارمانوس ابنة المقوقس كما ارسلت ارمانوس الى ابيها تخبره بتقدم الجيش العربى ، وتطلب منه الاستعداد لمواجهة العرب وجمع المقوقس كبار رجال الدولة وسألهم المشورة فاقترحوا عليه ارسال جيش الى ارمانوس لمساعدتها ضد العرب الى جانب الاستنجد بجيرانه لمناصرته وجمع الجيش من جميع مدن مصر استعدادا لمواجهة الجيش العربى ولكن المقوقس رفض مشورتهم واعلمهم بانه مهما استمد فلن يقوى على مناهضة العرب وانه من الحكمة ان يرسل الى ابنته كتابا يطلب فيه منها التلطف فى معاملة (يوقنا) ومن معه من الجنود العرب ومنحهم الامان وارسالهم اليه لتطيب خاطرهم .

فلما علمت بذلك ارمانوس ارسلت الى يوقنا تخبره بما كتب ابوها اليها . ودار قتال بين الجيش العربى وجند ارمانوس انتهت بانتصار العرب واسرهم لارمانوس . واحسن عمرو بن العاص معاملتها وارسالها معززة مكرمة الى ابيها المقوقس فى صحة قيس بن سعد الذى قال للمقوقس فى حديث طويل له معه : " ايها الملك لا بد لنا منك ولا ينجيك منا الا الاسلام او الجزية او القتال " فوجه المقوقس بعرض الامر على قومه وهم وثوقه بعدم استجابتهم لامر من هذه الامور الثلاثة لانهم قوم غناد ولان قلوبهم قاسية من اكل الحرام . (٣)

ثم مضى عمرو بن العاص على رأس جنده دون مقاومة تذكر حتى وصل الى قرية (أم دنين) (٤) حيث اشتد القتال وواجه عمرو مقاومة عنيفة جعلته يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب الذى سارع بنجده . (٥) وتدل هذه المقاومة

-
- (١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ - الكندى الولاية والقضاء ص ٨
 (٢) الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ٢٦
 (٣) الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ٢٧ - ٢٠
 (٤) أم دنين قرية بمصر بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل القاهرة
 (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥١) وهى الآن مكان حديقة الازكية
 (٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ - الكندى : الولاية والقضاء ص ٨

على ان البيزنطيين قد ادركوا الان خطورة الموقف فأعدوا العدة لمواجهة الفاتحين العرب. وبعد قتال عنيف انتصر عمرو على البيزنطيين ومن لحق بهم من القبط وهلك كثير منهم ولجأ كثير منهم بحصن بابليون ومدينة نقيوس (١)

وتذكر بعض الروايات التاريخية القبطية (٢) ان فتح الفيوم كان بعد حصار ام دينين وقيل فتح حصن بابليون كما تشير الى ان عمرو بن العاص قد قام بمطالبة لفتح اقليم الفيوم قبل اتمام فتح ام دينين ولكنه لم يطلقه التوفيق حتى وصله الممدد من الخليفة فتمكن من الاستيلاء على ام دينين ثم وجه جهوده لاتمام الاستيلاء على اقليم الفيوم.

ولكن المؤرخين المسلمين يجمعون على ان فتح الفيوم كان بعد فتح حصن بابليون وليس قبله كما يذهب المؤرخ القبطى حنا النقيوس كما ان الروايات الاسلمية تذكر ان الذى قام بفتح اقليم الفيوم هو احد قواد عمرو (٣)

ويبدو ان اهل مصر من القبط بصفة خاصة بدأوا يقدمون المساعدات الايجابية للعرب الفاتحين بعد استيلائهم على اقليم الفيوم. فقد طلب عمرو من (ابا كبرى) (٤) حاكم دلاحي (٥) ان يبعث الى القوات العربية فى الفيوم بعض السفن لينقلوا بها من الجانب الغربى للنيل الى الجانب الشرقى للسيطرة على ضفتى النيل. (٦) كما طلب عمرو ايضا من (جوج) حاكم اقليم مصران يبنى جسرا على قناة مدينة قليوب حتى يتمكن من فتح المدن المصرية. ونجح عمرو فى فتح مد ينتى اثريب ومنوف بمساعدة القبط له. (٧)

(١) تقع نقيوس على الطريق بين الفسطاط والاسكندرية (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٣)

(٢) Chronique de Jean, P. 437.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢١٧-٢٢٨ - البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٨

(٤) Abaciri

(٥) على الضفة الغربية للنيل جنوب ممفيس شرق الفيوم

(٦) Chronique de Jean, P. 439.

(٧) Ibid., P. 439 - 440

وطون القبط ايضا العرب الفاتحين فى اقامة جسر ضخيم عند بابليون لمنسح السفن من الذهاب الى نقيوس والاسكندرية ومصر العليا من جهة ولتيسير عبور الفرمان العرب للنيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من جهة اخرى واصبح القبط - فى الحقيقة - اعوانا للعرب الفاتحين يقدمون لهم الواثا من المساعدات .

كان الحكام الرومان قد غدروا مدينة (نقيوس) الى حصن بابليون حتى اذا علموا بانتصارات العرب المسلمين فى اقليم مصر ومساعدة بعض المصريين لهم بادروا الى الخروج الى الاسكندرية وتركوا فى نقيوس طامة صغيرة للدفاع عنها كما يمشوا الى حاكم سنود (١) يحشونه على الدفاع عن الاراضى الواقعة بين فرعى النيل وتخلصى بعض القبط عن عقيدتهم واعتنقوا الاسلام واستولوا على املاك المسيحيين الذين هربوا من وجه المسلمين مؤثرين التمسك بدِينهم . (٢)

لن نخوض فى التفاصيل العسكرية واخبار سقوط حصن بابليون فى ايدى العرب الفاتحين وخاصة ان الروايات تعددت وتختلف وتتناقض ويهملنا فى بحثنا - فحسب - الاشارة الى موقف المصريين من الفاتحين العرب .

شدد عمرو وجنده الحصار على حصن بابليون حتى طلب الروم والقبط المتمصمون بالحصن التفاوض من أجل الصلح ومنع الامان للمصريين فأجابهم عمرو الى طلبهم على ان يهودى كل واحد منهم للمسلمين دينارا واجبة ورمنا وعامة وخفين . (٣)

استضاف الروم والقبط - عقب هذا الصلح - جند عمرو بن العاص ، فقدوا عليهم وقد ارتدوا اليهود (٤) وجلس العرب الى جانب الروم . (٥)

(١) بين سنود والمحلة ميلان (باقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٤)
(٢) Chronique de Jean. P. 440

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٥
(٤) اليهود : جمع البرد وهى كساء مخطط يلتحف به (الوسيط ج ١ ص ٤٧)
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٥

رفض الروم والقبط اعتناق الاسلام أو دفع الجزية وأصروا على القتال وحاول
المقوقس جاهدًا اقناعهم بقبول دفع الجزية للمسلمين إلا أنهم أصروا على موقفهم
وأمروا بقطع الجسر بين الحصن وجزيرة الروضة واشتد القتال بين الفريقين وتخشق
النصر للمسلمين وعند ذلك لم يجد الروم والقبط بدا من قبول دفع الجزية وعقد
الصلح مع المسلمين (١)

وكتب المقوقس الى عمرو بن العاص بأنه ما زال حريصًا على اجابته الى واحد من
الامور الثلاثة التي عرضها عليه وان قومه اقتنعوا بوايه واستجابوا لرغبته ومن ثم عادت
المفاوضات بين الطرفين وتم عقد الصلح بين عمرو والمقوقس بالشروط الآتية :

- ١- يفرض على جميع من بمصر وعلاها واسفلها من القبط ديناران يتساوى فى
ذلك الرفيع والوضيع ومن بلغ الحلم منهم دون النساء والاطفال والشيخ .
- ٢- ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة ايام .
- ٣- للقبط ارضهم واموالهم ولا يتعرض لهم فى شئ منها (٢)

واشترط المقوقس على عمرو ان يترك للروم حرية الموافقة على هذه الشروط
ومن رفضها منهم فله الحرية فى الخروج من مصر الى الدولة البيزنطية . وارسل
المقوقس شروط هذا الصلح الى الامبراطور هرقل .

ويجد ربنا الاشارة الى كتاب الامان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين
فهو يرسم الاهداد التى حددها العرب المسلمون لمعاملة اهل مصر وقد كجاء
فى هذا الامان :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص من الامان
على انفسهم ووطنهم واموالهم وكنائسهم وصابهم ودمهم ويحرم ولا يدخل عليهم
عليهم شئ من ذلك ولا ينتقصن ولا تساكهم التوبة وعلى اهل مصر ان يعطسوا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٢-٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٣-٦٤

انظر الصفحة
التالية

الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خسين الف ألف
وعليهم ما جنى لصومهم فان أبى احد منهم ان يجيبه رفع عنهم من الجزية بقدر سهم
وذمتنا من أبى بريقة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك
ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى منهم
واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم اثلاثا .
في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله . وذمة
الخليفة امير المؤمنين وذم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكندا
وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على الا يفزوا ولا يمنحوا من تجارة صادرة ولا واردة . (١)

ونستنتج من هذا النص التاريخي ان الصلح الذي عقده عمرو بن العاص
مع القوقس عقب الامتلاء على حن بابلين كان :

- ١- ينطبق على جميع اهالى مصر فى الوجهين البحرى والقبلى فقد كان مقدار
الجزية يمثل مبلغا كبيرا من المال .
- ٢- يمنح الصلح القبط الامان على ارواحهم وعقائدهم واموالهم وكنائسهم
- ٣- يفرض العرب المسلمون الجزية على المصريين ويؤاد قد رها او ينقص تبعا
لاحوال الفيضان فى كل سنة وكانت تدفع على ثلاثة اقساط سنويا . واصبح
المصريون بذلك (اهل الذمة) .
- ٤- يطبق العرب شروط هذا الصلح على الروم والنوبة اذا شاءوا ذلك ،
اما اذا رفضوا الشروط فلهم حرية مغادرة مصر الى حيث يريدون . ويقصد
بالنوبة هنا النوبيون المقيمون فى الاراضى المصرية وليسوا سكان بلاد النوبة .

الصفحة
السابعة

(١) الطبى ج٣ ص ١١٩ - ٢٢٠ .

ابو المطمن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ - ٢٥

القلقشندي : صبح الاغنى ج١ ص ٣٢٤

في القاموس : اللصنت وجمعه لصون : اللص

وحدد عقد الصلح (٢٠ هـ - ٦٤١ م) أمر عمرو بن العاص الجند الروم بضخامة
الحصن على ان يحملوا معهم بعض اموالهم واعطى لهم مهلة ثلاثة ايام يفادون فيها
الارض المصرية . ورفض عمرو تسليم السبايا حتى يستشير الخليفة عمر بن الخطاب .
وقد أمر الخليفة ببرد السبايا . (١)

غضب الامبراطور البيزنطي هرقل عندما بلغه عقد الصلح مع العرب الفاتحين
وكتب الى المقوقس يهينه على ذلك . ويقول له ان الجند العرب اقلية بالنسبة لعدد
القبط وانه اذا كان قبط مصر قد رحبوا بالعرب . وقبلوا اداء الجزية فان عدد الروم
بمصر يزيد على مائة ألف ومعهم السلاح والعتاد . وطلب هرقل من المقوقس ان ينهض
مع الروم لقتال العرب . وكتب هرقل ايضا رسالة مشابهة الى الروم بمصر . (٢)

اما المقوقس فقد كان مقتنعا بالموقف الذي اتخذته من عمرو بن العاص
والمسلمين . كما تمسك بعقد الصلح وحاول اقناع الروم بقبوله . فقال لهم : " واعلموا
محشر الروم والله اني لا اخرج مما دخلت فيه ولا عما صالحت العرب عليه . وانسى
لاعلم انكم سترجعون غذا الى قولى ورأى وتنفضون ان لو كنتم اطعمتموني . وذلك
انى قد عانيت ورأيت وعرفت ما لم يحاين الطك ولم يره . ولم يعرفه ويحكم . انا يرضى
احدكم ان يكون آمنا فى دهر على نفسه وماله وولده بدينا رين فى السنة . " (٣)

أخبر المقوقس عمرو بن العاص برفض الامبراطور هرقل للصلح . وانه كتب
اليه والى جماعة الروم بمصر بنقض الصلح ومواصلة القتال . واكد المقوقس لعمرو
انه هو والقبط متمسكون بالصلح ويتنفذ شروطه ثم طلب من عمرو الموافقة على امور
ثلاثة : اولها : احترام عهود القبط واعتباره واحدا منهم . وثانيها : الا يقدم
عمرو على مصالحة الروم حتى يصبحوا ارقاء وفتيا للمسلمين . وثالثها : ان يأمر

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٩ - ٢٠٠ - ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٣٩٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٤ - ٦٥

(٣) المصدر السابق ص ٦٥

عمرو عند وفاة المقوقس بدفن جثمانه فى كنيسة بالاسكندرية . (١)

ووافق عمرو على ما طلبه المقوقس فى مقابل مساعدة القبط له ضد الروم خلال زحفه الى الاسكندرية . فيضمنوا له سلامة الجسور على النيل ويقدموا المأوى والضيافة للجند المسلمين . وقدّم القبط كل المساعدات الممكنة للجيش العربى . (٢)

مدى معاونة المصريين للفتح العربى :

ساعد بعض القبط عمرو بن الماص أثناء حصاره لحصن بابليون فقد تقدم اليه فريقان — على التوالي — احدهما بقيادة (ميناس) والاخر بقيادة (كرمثاس بن صمويل) وقد قدما من الشاطئ الغربى للنيل وهم جميعا من اهالى اقليم الفيوم ويغضون الروم . ويتصفون بالجسارة والاقدام . (٣) وكانت المعاونات التى يقدمها القبط للجيش العربى تدعم جهود الفاتحين ، وتضعف من مقاومة الروم وتخرج موقفهم وتقلل من هيبتهم .

وانخذت المساعدات التى قدمها القبط المصريون للجيش العربى صورا عديدة نذكر بعضها . ففى أثناء حصار حصن بابليون جمع القائد البيزنطى (تيودور) جيشه بين فرعى النيل فلما علم عمرو بذلك أسرع بالزحف بكنيسة من الجند مطذبا الفرع الشرقى للنيل . وفى نفس الوقت بحث تيودور قائد يمين من قواده . (٤) الى سفود لمناهضة العرب وطلب من الجند القريبين بها مساعدتها ضد العرب الا انهم أبوا قتال العرب . (٥) وكان معظم هؤلاء الجند من القبط الذين كرهوا الحكم البيزنطى ورأوا فى الفتح العربى تحريرا لهم .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧

ابن البطريق : التاريخ المجموع ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٥

Chronique de Jean. P. 443.

(٣)

(٤) هما ياكبرى وساتقارى

Chronique de Jean. P. 440.

(٥)

ويرى بعض المؤرخين ان استيلاء المسلمين على الحصن كان خيرا انتقاما
للقبط من الروم الذين لم يراعوا حرمة عيد الفصح فأخرجوا في هذا اليوم القبط
الارثوذكس الذين كانوا في سجن الحصن لرفضهم اتباع مذهب الامبراطور الديني .
وأساءوا معاملتهم فانها لوا عليهم ضوبا بالسياط وقطعوا أيديهم . (١) وفي الحقيقة
كان هذا الاضطهاد هو حلقة في سلسلة طويلة عانى القبط المصريون منها طويلا
عبر العصر البيزنطي . ولا شك ان هذه الاضطهادات المتكررة كانت من العوامل
التي دفعت بهؤلاء الاقباط الى كراهية الحكم البيزنطي وتقديم المعاونات للفاحين
العرب .

وبعد استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون فكر في فتح الاسكندرية فقد
رفض الامبراطور هرقل الصلح الذي عده العوقس مع عمرو ومحت قوات بيزنطية كبيرة
أغلقت ابواب الاسكندرية وتأهبت للقتال . (٢)

وخلال زحف عمرو بن العاص الى الاسكندرية لقي كثيرا من المساعدات والمعونات
التي قدمها القبط المصريون فقد اصلحوا الطرق واقاموا الجسور . ولم يلبس
عمرو اية مقاومة على طول الطريق من حصن بابليون الى الاسكندرية حتى بلغ
ثربوط . (٣) حيث التقى بالقوات البيزنطية وانتصر عليها وهربت حاميات المدن
الى الاسكندرية .

عسكر عمرو بن العاص قرب الاسكندرية وكان معه رؤساء القبط الذين قد مسوا
الطعام للجنود العرب والملف لخيولهم ودلوهم الى الطرق والمساكن المؤدية الى
الاسكندرية . (٤)

والحقيقة ان أهل المدن المصرية اللججورة للاسكندرية انقسموا الى فريقين — فريق مع القائد البيزنطى المام تيودور وفريق آخر يؤيد الجيش المصرى • وانتشرت فى البلاد حرب أهلية • فكان كل فريق يهاجم الفريق الآخر •

وفى الاسكندرية كان هناك بعض الحكام والقواد البيزنطيين الذين لاذوا بالفرار الى الاسكندرية الى جانب بعض أهالى الدلتا من القبط والروم • وساد الاسكندرية جو من الاضطراب والانقسام فقد تنازع الرؤساء والقواد والحكام كما انقسم أهالى الاسكندرية والمهاجرون اليها الى فريقين متخاصمين ونشب القتال بينهما وراحت ضحيته اعداد كبيرة من الأرواح • (١)

وكان الامبراطور هرقل حريصا على الاحتفاظ بالاسكندرية • فكان يقول :
" لكن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكهم " • واخذ يستعد للخروج بنفسه للدفاع عنها الا انه مات كذا • فاشتد ساعد العرب وزادت تحاسنهم • (٢)

وتذكر بعض المصادر التاريخية ان المقوقس طلب من عمرو بن العاص انهاء حصار الاسكندرية الصلح والمهادنة لمدة مميئة فرفض عمرو • ثم تقول هذه المصادر " الا ان القبط فى ذلك يحبون المهادنة " • (٣)

ولن نخوض ايضا فى تفاصيل فتح عمرو لمدينة الاسكندرية • وقد انتهت الامرى بمقتضى الصلح • وشروطه هى :

- ١ — يدفع الجزية كل من دخل فى العقد •
- ٢ — يبقى المسلمون فى اماكنهم دون تدخل فى اى عمل وبدون تعديل فى اى وضع حتى يجلو جنود الروم •
- ٣ — يجلو الجند الروم عن الاسكندرية خلال احد عشر شهرا ويحملون معهم ممتلكاتهم ومنازلهم ومن اراد منهم الرحيل عن طريق البر يدفع جزية شهرية حتى يتم رحيله عن ارض مصر •

Chronique de Jean. PP. 450 - 451. (١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٩

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٢ — ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٣٩٧

- ٤- يأخذ المسلمون رهائنا دابة وخمسين من المسكرين وخمسين من المدنيين.
- ٥- لا تعود القوات البيزنطية ثانية الى الاسكندرية.
- ٦- يسود السلام ويتوقف القتال بين المسلمين والروم.
- ٧- يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين ومنحهم الحرية الدينية.
- ٨- يسمح لليهود بالاقامة في الاسكندرية. (١)

أخذنا هذه الشروط عن المؤرخ حنا النقيوس وما لاشك فيه ان سماح عمرو بن العاص لليهود بالاقامة في الاسكندرية - اهم مراكز نشاطهم - كان مكافأة لهم لعدم تدخلهم في قتال المسلمين والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح وفقى اليهود في الاسكندرية وأدوا للحكومة الاسلامية الجزية. (٢)

واذا ناقشنا شروط صلح الاسكندرية نجد ان الشرط الاول قد جمل اهالي الاسكندرية اهل ذمة يؤدون الجزية في مقابل الدفاع عنهم وتأمينهم على انفسهم ، وعلى مصالحهم وممتلكاتهم وكان هذا الشرط ايضا احد شروط صلح بابليون . ومن الشروط المشتركة ايضا في الصلحين حاية المسلمين لكنائس القبط وغيرهم من المسيحيين . وعدم التدخل في شئونهم الدينية اما فيما عدا ذلك فهي شروط خاصة بمدينة الاسكندرية وشعبها . مما يعيز هذا الصلح عن صلح بابليون .

بعد عقد هذا الصلح عاد القوقس الى الاسكندرية واخبر الحكام والقواد وكبار رجال المدينة من الروم بما تم بينه وبين عمرو بن العاص وما تضمنه الصلح مع المسلمين بينما لم يعلم سائرا اهالي الاسكندرية شيئا عن هذا الصلح . فلما قدم بعض المسلمين الى الاسكندرية لحمل الجزية المقررة في الصلح . اراد بعض سكان المدينة مقاومتهم الا ان جيش الروم طردون ذلك فثار الشعب وانتشرت

Chronique de Jean, P. 455.

(١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٤ .
ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٢٦
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢

الفوضى في الاسكندرية بل ارادوا قتل المقوقس ورجعه بالحجارة تعبيرا عن سخطهم لعقده الصلح مع المسلمين. (١)

وخرج المقوقس الى العظا هرين والناشرين لتهدئة روعهم وتوضيح حقيقة الموقف فمذكر انه اقدم على عقد هذه التسوية لمصلحتهم ولا نقاذهم هم وأطفالهم . وتوصل اليهم لقبول الصلح . وسلم أهالي الاسكندرية أخيرا بقبول الصلح وحملوا كثيرا من الاموال الى المقوقس ليدفع الجزية المقررة عليهم للمسلمين . وما تجدر الاشارة اليه ان المقوقس حمل الجزية بنفسه الى عمرو بن العاص (٢)

كان استقرار الحكم الاسلامي في الاسكندرية يقضى على كل امر في عودة الحكم البيزنطي الى مصر وقد فترت الحطاسة للقتال ورأى معظم أهالي مصر الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد . ومن ثم تم فتح كثير من المدن الدلتا صلحا ، بمعهد بين حاكمها وبين المسلمين ومن هذه المدن اخنا ورشيد والهرلس . وفرض الحرب عليهم في الصلح " دينارين على كل انسان جزية " وأزاق المسلمين الى جانب شروط ستة لا يخرجون من ديارهم ولا تنزع نساؤهم ولا كنوزهم . ولا أراضيهم ولا يزداد عليهم . (٣)

وهكذا تم للحرب المسلمين فتح البلاد المصرية واستقرت الامور لهم فيها . الا ان الاسكندرية ما لبثت ان نقضت الصلح (سنة ٢٣ او ٢٥ هـ) (٤) ولا شك ان البيزنطيين هم الذين نقضوه وليس القبط المصريون . ونجح عمرو بعد جهود عسكرية عديدة في استرداد الاسكندرية . (٥)

Chronique de Jean. P. 456.

(١)

Ibid. P. 456.

(٢)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح البلدان ص ٧٧

ابو عبيد : الاموال ص ١٤١ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٣

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣٥

اختلف الكتاب المحدثون في الراى حول موقف قبط مصر من العرب الفاتحين ومدى ترحيهم بالمسلمين ، ومدى تقديم المساعدات اليهم .

وينسب المستشرق (توماس أرنولد) (١) النجح السريع الذى أحرزه الفاتحون العرب الى ما لقيه من ترحيب المصريين الذين كرهوا الحكم البيزنطى الظالم ، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت فان البعاقة - وهم يكونون السواد الاعظم من المصريين - قد عوملوا معاملة مجحفة من اتباع المذهب الملكانى التابعين للإمبراطور .

وما لاشك فيه ان بعض القبط وقف موقف الحياد لان ترحيهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية الى اخرى وهم بذلك لن يتمكنوا من اجلاء العرب والبيزنطيين مما وفى وقت واحد كما ان فرقا من القبط حارب الى جانب الروم البيزنطيين اذ كانوا يستوقعون اقتصار البيزنطيين على العرب (٢)

ويرى احد الكتاب المحدثين انه لما قدم العرب الى مصر فاتحين احتاجوا الى من يشد أزهرهم فوجدوا فى القبط خير معين وان كان ليس هناك ما يدل دلالة واضحة على مساعدة القبط العرب فى تقدمهم من العرش حتى فتح حصن بابليون ، الا انه من الثابت انهم لم يساعدوا الروم ضد العرب بل امدوا العرب بالعطش والمؤن وغيرها (٣)

ويرى (هاردى) (٤) ان القبط نظروا الى الفاتحين العرب على انهم منقذون ومحررون لهم مما كانوا يلاقونه ويمانون منه فقد كانوا يفضون الروم بغضا شديدا لما قاسوا على يد القوقس وقد ادرك المسلمون حقيقة مشاعر القبط مما جعلهم اكثر جرأة وسالة فى القتال .

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٢٣

(٢) سيده كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ١٨٦

(٣) على ابراهيم حسن : مصرفى المصور الوسطى ص ٤٨

(٤)

والحقيقة ان المصريين رحبوا بالفتح المبري الذي يقضى على الاوضاع القائمة
الظالمة والدليل على ذلك تمرد بعض القواد وحبان بعض الطميات ورفضها قتال
المسلمين. (١) ويذكر (سيلفستر شولير) (٢) ان القبط لم يرتكبوا خيانة فسي
حق الدولة البيزنطية فقد كانوا من قبل ساخطين على فساد الادارة وسياسة الامبراطور
الدينية ولذا كان من الطبيعي ان يخضع القبط ويسلمون للمرب الفاتحين تخلصا
من طغيان الروم واستبدادهم ويؤكد المؤرخ رأيه برواية تذكر ان الرهبان قد تركوا
أدبهم وانضموا الى الجند المسلمين ضد الرومان. كما انه عندما حاول البيزنطيون
غزو مصر ثانية كان موقف القبط اكثر وضوحا. وقد انطزوا الى جانب المسلمين وقد مو
اليهم كل مساعدة ممكنة.

ويذهب كتاب محدثون آخرون مذهباً مخالفاً، فينفون الآراء التي تذهب
الى ان القبط رحبوا بالفاتحين العرب وقد مو لهم المون والمساعدة. وهؤلاء الكتاب
يستندون في آرائهم على ان المسلمين اخفقوا في فتح بعض المناطق ووجدوا كثيراً
من الصعوبات والمعوقات في فتحها. (٣)

ويقف بعض الكتاب المحدثين موقفاً وسطاً فيذكرون ان القبط قد انقسموا
الى فريقين متميزين في موقفهم فقد انطز فريق منهم الى الروم بينما ابدى فريق
آخر ترحيبه بالعرب. (٤)

ومعد هذا العرض لآراء الكتاب المحدثين حول موقف القبط من الفاتحين
العرب يمكننا ان نقول انه ما لاشك فيه ان كثيراً من القبط قد ساعدوا العرب
في تقدمهم في الاراضى المصرية وقد مو لهم كل مساعدة وكل تأييد ممكن.

The Encyclopedia of Islam, Art Kibt, Vol.2.P.990 (١)

Sylvester Chaileur: Histoire des Coptes, PP.93-94 (٢)

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٥٩ وما بعد ها.

(٤) اسد رستم: الروم ج ١ ص ٣٥٢-٣٥٣

وكان ذلك نتيجة ^{البيضية} لما قاموه من الاضطهاد والمصف لمدة عشر سنوات . ونستند
في ذلك على أقوال ^{المؤرخين} المؤرخون القدماء .

فقد كتب اسقف القبط بالاسكندرية (ابو ميامين) عند قدوم الجيش العربي الى
مصر الى القبط يسخير عليهم بالتحريض بالمرب فلم تكن للروم دولة كما قدم قيسط
الفرما كثيرا من المساعدات للجيش العربي . (١) مما فتح الطريق امام العرب وكتاب
هرقل الى القوقس يوضح حقيقة موقف القبط وكراهيتهم للقتال . واستعداد ادهم لدفع
الجزية وقد جاء في هذا الكتاب : " . . . انما اناك من العرب اثنا عشر ألفا . وبصر
من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واجبوا اداء
الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك من بصر من الروم وبلا اسكندرية ومن
ملك اكثر من مائة ألف " . (٢)

ومن الروايات القديمة التي تثبت ترحيب القبط بالعرب وتقديم المعاونات
لهم هذه الرواية : " ان عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حين امكنهم الخروج
من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط ، وقد اصلحوا لهم الطريق ولقاصوا
لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط اعوانا على ما ارادوا من قتال الرومان " .

وأما ر بعض المؤرخين صراحة الى ان مساعدة القبط للعرب الفاتحين ظهرت
بوضوح بعد فتح العرب لاقليم الفيوم . (٣)

والحقيقة ان العامل الرئيسي لنجاح الفتح العربي لمصر ولنهاية الحكم
البيزنطي هو السياسة التي انتهجها الامبراطور هرقل والمعاملة التي عامل
بها القبط الارثوذكس وما لقيه هؤلاء القبط من بطرك الملكانيين . وقد رأى بعض
المصريين انهم لا يخشون شيئا اذا قبلوا الحكم العربي بدلا من الحكم البيزنطي

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٤

(٢) المصدر السابق ص ٦٤

Chronique de Jean. PP. 439 - 448.

(٣)

فكل من الحكمين بالنسبة لهم حكم اجنبى وقد خبروا حكم الروم سنوات طويلة وغانسوا من فسادهم ومظالمهم وتوقعوا ان يكون الحكم العربى أخف وطأة او اكثر تسامحا وخاصة ان العرب يدعون بعقيدة تخالف عقيدة المصريين المسيحية فتنتهى بذلك الخلافات الطائفية التى سادت دهرها وادت الى اضطهاد القبط كما كان كثيرا من القبط قد سمعوا بسياسة التسامح التى اتبناها العرب الفاتحون نحو المسيحيين فى بلاد الشام.

كما ان الجزية التى فرضها العرب وقبلها القبط كانت تتضاءل كثيرا اذا قارناها بالضرائب الباهظة التى كان يؤدونها المصريين للدولة البيزنطية وقد اثقلت كواهلهم وادت الى كثير من المساوىء الاقتصادية ولمس قبط مصر تواضع العرب ومسا طتمهم مما شجعهم على الخلاص من سياسة التفرقة العنصرية التى اتبناها الروم فى حكمهم مصر.

اما يهود الاسكندرية فقد كانوا قد استقروا دهرها طويلا فى هذه العاصمة وامتزجوا باهلها من القبط المصريين . وشاء ركونهم ظاهريا مشاعريهم وكراهميتهم للحكم البيزنطى . وهؤلاء اليهود وان كانوا فى الحقيقة ينفخون الطائفتين المسيحيتين على السواء لاختلافهم معهم فى العقيدة الا انهم آثروا اخفاء بغضهم . حرصا منهم على مصالحهم المادية ونشاطهم الاقتصادى .

وكان الفتح العربى مفاجأة لليهود الاسكندرية وقد جعل موقفهم حرجيا . فقد كانوا فى الحقيقة لا يريدون اقتطاع انفسهم فى معارك حربية او خلاف سياسى . او نزاع طائفى ويريدون التفرغ التام لنشاطهم الاقتصادى الواسع النطاق الذى يمارسونه منذ سنوات طويلة فى الاسكندرية مما جعلهم يسيطرون على كثير من المرافق الاقتصادية وقد خشوا نتائج مساعدتهم للسلطات البيزنطية الحاكمة . فقد تحقق النصر للعرب كما تخرجوا من تأييد الفتح العربى فقد يكون النصر للروم مما يمرضهم لسيطرتهم واضطهادهم . كما كان هؤلاء يكرهون اليهود ويدركون حقيقة مشاعر القبط المدائية نحو الروم .

ولهذه الاسباب كلها ، أثر اليهود انتهاز سياسة الحياد التام والوقوف
موقفا سلبيا تجاه الاحداث الدائرة في داخل الاسكندرية وخارجها . وفي الحقيقة
لم يكن العرب الفاتحون في حاجة الى معاونه هؤلاء اليهود فعدد هم قليل اذا قارنهم
بعدد القبط الذين يمثلون غالبية سكان مصر . كما ان اليهود لم يكونوا قوة عسكرية
بل اتجه كل اهتمامهم الى الشؤون الاقتصادية . وقد قدر العرب لهؤلاء اليهود
موقفهم فسمحوا لهم بالبقاء في الاسكندرية .

وقد كان العرب في الحقيقة — على جانب كبير من الفطنة والذكاء . حينما
اتخذوا هذا الموقف من اليهود فقد كان هؤلاء اليهود في الاسكندرية هم مصعب
النشاط الاقتصادي وكان جلاؤهم من المدينة يوقف هذا النشاط في وقت يريد
العرب الفاتحون تحقيق الاستقرار . ولا شك ان الاقتصاد هو اساس الاستقرار السياسي
والاداري والاجتماعي . كما ان العرب أرادوا ان يثبتوا لجميع اهالي مصر انهم
يكافئون كل من لم يقف موقفا عدائيا . كما كان العرب يخشون من مطولة السروم
استمادة الاسكندرية ، ولهذا رأوا ان يضمنوا حياد اليهود مرة أخرى .

وفضلا عن ذلك كانت هذه السياسة التي انتهجها العرب المسلمون نحو
اليهود هي جزء من سياسة التسامح الاسلعي نحو اهل الذمة في كل مكان . موسى
شجعهم على الاقبال على الاسلام وعلى تعلم اللغة العربية ثم الاندماج في الحياة
العربية .

٢- القبائل العربية الواقعة على مصر

تم الفتح المصري لمصر في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) وأخذ العرب المسلمون يتوافدون على مصر بعد الفتح سواء أكانوا جنودا أم مهاجرين إذ استهوهم مصر وما سمعوا عن خيراتها وثروتها . ومضى السنين ازدادت هجرة القبائل العربية النازحة الى مصر وامتزج العرب بالمصريين الذين ^{صحوا} بلختهم ود بينهم لأول مرة في تاريخهم الطويل طواعة واختيارا ليصبحوا جزءا من الامة المصرية الاسلامية .

قدم عمرو بن العاص الى مصر فاتح ومعه اربعة آلاف جندي ، ثم تبعه الزبير بن العوام بعدد قدر يائس عشرة آلاف جندي . (١) ثم وفدت قوات اخسرى مع عبد الله بن سعد بن ابي سرح . ولو تتبعنا عدد من وفدوا على مصر من العرب في ربع القرن الاول من الفتح (١٨-٤٣ هـ) لوجدناهم يهضغ عشرات من الالوف ونزلوا مصر واقاموا في القسطنطينية والجزيرة والاسكندرية وبعض جهات الصعيد . (٢) كما ان قوات الجيش المصري لم تقبض دائمة في القسطنطينية التي بنيت كمعسكر لها ولكنها كانت تتحرك داخل البلاد لاسباب مختلفة تتعلق بالامن ، وايضا للعناية بالخيول وتسميتها فيما يعرف بالارتباع .

ومن اجل تأمين البلاد واحكام السيطرة عليها كان لابد من اقامة قوات من الجنود في الثغور وعلى سواحل مصر بصفة دائمة وهو ما يعرف في المصطلح العسكري المصري باسم (الهاط) (٣) ونظرا لاهمية الاسكندرية واهمية موقعها خصها عمرو بن العاص بربع قواته وجعل بها آخرها في بقية السواحل على حين اقام النصف الباقي من قواته معه في القسطنطينية . (٤) كما كانت حامية الاسكندرية تستبدل كل ستة اشهر بقوات اخرى وربما كان ذلك لتجدد نشاط وحيوية هذه الحامية ولتكون دائما على اهبة الاستعداد لصد محاولات الغزو الاسكندرية .

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص٩

(٢) القزويني : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب (تحقيق عبد المجيد

عابد بن) ص٩٥

(٣) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة

الاولى للهجرة ص٤٩

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص١٩٢ .

فيقول ابن عبد الحكم (١) : " وكان يصير بالاسكندرية خاصة الريح في الصيف بقدر ستة اشهر ويمقّب بحدّهم شاتية ستة اشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من اصحابه واتخذوا فيه اخاذاً " .

كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يرسل في كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط في الاسكندرية على ان العرب الذين اقاموا في الاسكندرية لم يخططوا بها وانما سكّوها منازلها ، فمن اخذ منزلاً نزل فيه هو واهله " فكان الرجل يدخل الدار فيركز رصحه فيها فتكون له ولاهله " . (٢)

ومن اشهر القبائل العربية التي سكنت الاسكندرية (لخم) و (جزام) و (كندة) و (الازد) و (الحضارمة) و (خزاعة) و (العزاعة) وغيرها وكلها بمنزلة . وقد عهد اليها عمرو بن العاص بحراسة المدينة والدفاع عنها . (٣) واستمر وفود القبائل العربية على الاسكندرية كما اخذت حاميتها في الازد ياد كلملاً استشعر المسلمون الخطر على الاسكندرية ففي خلافة معاوية بلغت طامة الاسكندرية اثنا عشر الفا زدت حتى وصلت الى سبعة وعشرين الفا بقيادة علقمة بن يزيد الخطيفي . (٤) ولا ريب ان اقامة هذه الاعداد الكبيرة في الاسكندرية وفي مثل هذا الوقت المبكر من الفتح كان لها اثرها الكبير في التعريب .

كذلك وزع عمرو بن العاص ريع قواته على السواحل فيما بين الصرشت ولولبية فأقامت القوات العربية في القرى والاشتم ودمياط والبرلس ورشيد كما كان يقيم في تلك الثغور فرق من المتطوعة وجماعات من اهل الديوان . (٥)

(١) المصدر السابق ص ١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣١ - البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٣

(٣) المقرئى : البيان والاعراب ص ٢٧ - المبادئ : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٦

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٩٢ - المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٠١

(٥) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢١١ - عبد الله خورشيد البرى : القبائل

العربية في مصر ص ٥٠

وقد صاحب انتشار القوات العربية على طول الساحل الشمالى لمصر بنسبها
مدينة الفسطاط واستقرار القبائل العربية بها . فلما رجع عمرو بن العاص من
الاسكندرية اختط داره فى موضع فسطاطه ونى بجوارها المسجد الجامع ، كما
بنى بجانبها دارا اخرى لابنه عبد الله عرفت باسم الدار الصغرى . (١) واقيمت
عليه القبائل تتنافس فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط (اى الطارات والطرق)
معاوية بن خديج النجيبى وشريك بن سمى الشطيفى ، وعمرو بن فحزم الخولانى ،
وحوييل بن ناشرة المصافى ، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل ،
وذلك فى سنة ٢١ هـ . (٢)

واختط تحول دار عمرو والمسجد أهل الراية (٣) من قرى شرق الانصار ،
وأسلم وقطار وجهينة وغيرهم ممن لم يكن لمشيرته عدد كبير عند الفتح . وحول
خطة أهل الراية اختطت بقية القبائل مثل مهرة ونجيب ولخم وعافق ومنذ حرج
وتخليف والمصافر ونى وائل وغيرها . وأخذ العرب يقدون على الفسطاط حتى
كان بها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعون ألفا . (٤)

واستمرت مدينة الفسطاط فى النمو والاتساع فى الفضاء الواقع شمالى
بالبيون بين النيل وجبل القطم على ضفة النيل الشرقية . وقد فضلت بمسكن
القبائل كهمدان ومن والاها (مثل آل ذى اصبح من حمير ويافع وغيرهم)
سكنى منطقة الجيزة غرب النيل . فخاف عليهم عمرو لان النهر يحول بينه وبينهم .

-
- (١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٢ وطبعدها - القرينى : الخطط
ج ٩ ص ٢٩٦
(٢) القرينى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ - ابن دقماق : الانتصار بواسطة محمد
الامصار ج ٤ ص ٣
(٣) أهل الراية : خليط من قبائل مختلفة شهدوا الفتح مع عمرو ولم يكن
لكل منهم من العدد ما يمكنهم من الانفراد تحت اسم واحد .
(ابن عبد الحكم ص ١١٦ - القرينى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦)
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ - القرينى : الخطط ج ١ ص ٢٩٧

فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بشأنهم فأمره بان يجمعهم عليه فان أبوا فليس
عليهم حننا من في المسلمين فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا ، فبنى لهم حصنا
في الجيزة سنة ٢٢ هـ . (١)

كذلك بلغ العرب القاتحون أقصى الصعيد منذ سنوات الفتح الاولى في صحبة
عبد الله بن سعد بن أبي سرح عندما كان اميرا على الصعيد . (٢) حيث اتخذ
مقره في أقصى الصعيد في المنطقة التي كان يسكنها نوبة مصر . واستقر معه
بالطبع عدد كبير من العرب ، وكان ذلك سنة ٢٢ و ٢٢ هـ . (٣) اما حلة عبد الله
ابن سعد على النوبة سنة ٣١ هـ فقد رت بمحشرين ألف مقاتل . (٤) وهو عدد
كبير ولا شك وكان له تأثيره على الصعيد . ويذكر القريري (٥) ان بلدة القيس
التي تجاوز البهنسا سميت باسم رجل عرس يدعى القيس بن الطارث كان عمرو
قد بعثه الى الصعيد فسار حتى أتى مدينة القيس هذه ، فنزل بها فسميت
باسمه .

وهكذا انتشر العرب منذ سنوات الفتح الاولى في الاسكندرية وعلى طول
الساحل الشمالى وفي القسطنطينية ، كما انتشروا في الصعيد .

وهناك عامل مهم ساعد على انتشار العرب في ريف مصر في وقت مبكر ،
وهو خروج العرب الى الريفي في فصل الربيع وهو ما يعرف بالارتجاع ، فكانوا
ينطلقون الى القرى والحقول ، يعربون من لبنها ويأكلون من خيراتها .

(١) القريري : الخطط ج١ ص ٢٠٥-٢٠٦ . ابن سعيد : المغرب في
ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٤١

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣

(٣) القريري : البيان والاعراب ص ٩٦

(٤) القريري : الخطط ج١ ص ٢٩٩

(٥) الخطط ج١ ص ٢٠٤

ويعركون خيولهم ترمى لتسمن وتشتد • فكان اذا جاء وقت الربيع كتب الوالى لكل قوم برسيمهم ولبنهم الى حيث أحبوا وحدد لهم القرية التى يذهبون اليها وكميات اللبن والخراف التى يسمح لهم بالحصول عليها من المصريين • (١) مع التنبيه على العرب بحسن معاملة من جاؤهم من القبط • (٢) فتخرج القبائل الى القرى التى حددت لها يشربون من لبنها ويأكلون خرافها ويطلقون خيولهم فى حقول البرسيم • (٣) حتى اذا انتهى فصل الربيع و" يبر العود وسخن السمود وكثر الذباب وحض اللبن • وانقطع الورد عن الشجر • (٤) عدوا ثانية الى فسطاطهم •

وكان لكل قبيلة او بضع قبائل مرتبع خاص بها • فكانت قبائل بلى وممراد وآل ابرهة تأخذ مرتبعها من منف • وآل عمرو بن العاص • وآل عبد الله بن سعد ونجيب ياخذون فى وسيم (قرب الفسطاط) وآل فهم وآل ابرهة والمعاقر فى منف • وفى الشمال الشرقى والذى عرف فيما بعد بالخوف الشرقى • كانت قبائل غمار وأسلم ووائل تأخذ فى بسطة وقريبط وطرايبة • وكانت المعاقر فىى اتريب وحضرموت فى عين شمس وأتريب وطائفة من لخم وجذام فى صان وأبليل وطرايبة • وفى الشمال كانت حمير وعدوان تأخذ فى بوضير ومهرة وحضرموت فى بناء والمعاقر فى سخا • ومدلج فى خريتا •

اما فى الجنوب فكانت حركة الارتباع اقل فعراة كانت تأخذ فى الفيوم • وحبر تأخذ فى أهنا • اما فى الصعيد الاوسط فكانت ترتبع قبيلة واحدة هى خولان التى كانت تأخذ فى أهنا والقيس والبهنا • (٥) ويلاحظ ان معظم القبائل كانت تتركز حول الفسطاط شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فى شبه دائرة • بينما

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤١

(٢) المصدر السابق ص ١٤٠

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ص ١٤١-١٤٢- القيرى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٠

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤١- القيرى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٠

يقل الانتشار كلما ازداد الاتجاه شمالا أو جنوبا. (١) وبعض هذه القبائل مثل
كان يستقر بصفة دائمة في منطقة الارتجاع فقد أقامت قبيلة مداح بخيرتا واتخذتها
منزلا ، وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها ، فهي منازلهم. (٢) كذلك
استقرت بعض القبائل في الشمال الشرقي (الحرف الشرقي فيما بعد) من لخم
وجذام الذين نزلوا في صان وأبليل وطرابية. (٣)

وهكذا كانت حركة الارتجاع المنوية عاملا مهما في اختلاط العرب
بالمصريين وتعروف كل فريق على الفريق الآخر منذ سنوات الفتح الأولى ما كان له أثر كبير
في تمهيد مصر ونشر الإسلام فيها فيما بعد وفي فترة وجيزة.

وبالإضافة إلى الروابط والارتجاع ساعدت الضيافة على الامتزاج والاختلاط
بين العرب والمصريين فقد كان على المصريين أن يستضيفوا من ينزل عليهم من
المسلمين ثلاثة أيام يقدمون لهم فيها الطعام والمأوى. (٤) فضلا عن العلاقات
اليومية من معاملات وبيع وشراء وتعامل مع الحرفيين والزراع والبائعين الاقباط
ما يزيد الصلات من أجل المنفعة المتبادلة مع سيطرة العرب وقيمهم الانسانية ،
ورعايا دينهم بحسن معاملة أهل الكتاب. (٥)

والمعروف أن القبائل العربية في مصر لم تشتغل بالزراعة في أول الأمر
لأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى الجند العرب عن الاشتغال
بالزراعة أو شراء الأراضي الزراعية حتى يكونوا على استعداد دائم للفرار
والجهاد. (٦) وفي نفس الوقت ضمن لهم معاشهم وأرزاق عيالهم وأن عيالهم
قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزعمون ولا يزعمون. (٧) ولما طلب شركتهم

(١) البري : القبائل العربية في مصر ص ٤٦

(٢) القزويني : الخطط ج ٢ ص ٢٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤

(٤) المصدر السابق ص ٢٠ - ابن حميد : المغرب ص ٢٩

(٥) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ٥٥

(٦) القزويني : الخطط ج ٢ ص ٢٥٩ - مصطفى حميد : الإسلام والنوبة

في المصور الوسطى ص ١١١

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢

(او عرب الشمال) وكانت القيسية أقلية في مصر كما كان ابن الحجاب من موالى
 قبيلة سلول القيسية . (١) فأذن له هشام في الحلق ثلاثة آلاف منهم . وتحوّل
 ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم القضاة . (٢) فجاء بهم ابن الحجاب
 وأنزلهم بالحرف الشرقي وفوقهم فيه . وأمرهم بالاشتغال بالزراعة . (٣) ومنحهم
 أموالا من صدقة العشور فاشتروا أبقالا فكانوا يحطون الطعام الى القلزم
 وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل ثم أمرهم باشتراء الخيول ،
 فجعل الرجل منهم يشتري الصهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤنسة
 في أعلاف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . (٤) فلما علم قومهم في البادية بما
 هم فيه من خير أخذوا يتوافدون عليهم في الحرف الشرقي حتى بلغ عددهم
 في ولاية محمد بن سعيد على مصر سنة ١٥٣ هـ خمسة آلاف ومائتي اهل بيت صغيرا
 وكبيراً .

ولاشك انه حدث تحول خطير نتيجة المطاح لتلك القبائل بالزراعة ، بمسند
 ان كان الاشتغال بالزراعة ممنوعاً . فقد ساعد اشتغال العرب بالزراعة على سرعة
 اختلاطهم بأهل البلاد مما عجل بانتشار الاسلام واللغة العربية في مصر وفسى
 هذا يقول المقريزي (٦) : " ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد الطاعة مسن

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٢ - المقريزي : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) المقريزي : البيان والاعراب ص ٩٨ - ٩٩

(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٥ - ٧٦

(١) المقريزي : البيان والاعراب ص ١٠

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤٣ - الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٦

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٧ - المقريزي : الخطط ج ١ ص ٨٠

(٤) الكندي ص ٧٧

(٥) المصدر السابق

(٦) الخطط ج ١ ص ٢٦١

تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبدالله بن الحجاب مولى سلول قيما بالحوف الشرقى ، فلما كان في المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها .

والى جانب القبائل المصرية التى كانت تغد الى مصر ، جرت عادة معظم الولاة على ان يصحبوا معهم الى مصر اعدادا من الجند العرب (١) ففي سنة ٦٤ هـ ارسل مروان بن عبد الحكم ابنه عبد العزيز واليا على مصر فقدم بها ومعه جيش . (٢) وفي بعض الاحيان كان يبلغ عدد الجند المصاحب للوالى عشرين ألفا ، فقد صاحب حميد بن قحطبة والى الخليفة العباسى ابي جعفر المنصور عشرين ألفا من الجند سنة ١٤٣ هـ . (٣) اما والى هارون الرشيد سلعة بن يحيى فقد قدم الى مصر سنة ١٧٢ هـ ومعه عشرة آلاف من الجند . (٤) واستقر كثير من هؤلاء الجند فى المدن والقرى وتزوج بعضهم من فتيات مريسات . (٥) كما ان معظم الولاة كانوا يقدمون الى مصر ومعهم آلاف من ابنا عسرتهم ليكنوا لهم عونا وسندا . فقد أتى الحوشرة بن سهيل الباهلى الى مصر سنة ١٢٩ هـ ، ومعه آلاف من الابناء ، كذلك قدم هرثة بن اعين واليا على مصر فى عهد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ فدخل مصر ومعه ألف من الابناء أنزلهم ببلبيس . (٦) والمعروف ان هؤلاء كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وابناءهم .

(١) كانت الجيوش فى مصر الاموى من العرب بينما ضمت فى مصر العباسى خراسانيين واتركا .

سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٣٦

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٧٧

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٦

(٤) ابو المطاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧١

(٥) Lane-Poole : Hist. of Egypt. P. 29.

(٦) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٠٣

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٤٧

الجنود العرب

وقد جرت العادة على ذلك مع أغلب الولاة العرب الذين حكموا مصر،
 حتى عهد غوصة بن اسحاق الضبي والى مصر فى عهد الخليفة العباسى المتوكل
 على الله ، وهو آخر وال مصرى حكم مصر فى عصر الولاة ، ويعدّه أخيراً
 العباسيون يولون غاصر غير عربية. (١)

٣- اثر بناء القنطرة في اتخاذها

مركزا للتعمير

لم يكن الفتح العربى لمصر هو بداية الاتصال بين العرب والمصريين، فقد قامت بينهما علاقات قديمة * وكانا هم وسائل الاتصال بين العرب والمصريين قبل الاسلام عن طريق التجارة * ففى الشمال عند شبه جزيرة سيناء كانت تلتقى الصحراء الشرقية ببلاد العرب لقاء دائما او من الجنوب حيث يشتد اقتراب جزيرة العرب من افريقية عند باب المندب فلا يفصل بينهما سوى خمسة عشر ميلا . (١)

ويبدو من اقوال (هيرودوت) ان الاقسام الشرقية من مصر ولا سيما المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية . (٢) وكان بعض الاعراب والتجار العرب يقدون الى الصعيد بطريق البحر الاحمر وديان الصحراء الشرقية منسدين امد بعيد حتى ان المؤرخ والجغرافى الرحالة (استرابون) قال عن مدينة (قنسط) بالصعيد انها مدينة مشاع بين المصريين والعرب . (٣)

وكانت بعض الهجرات العربية التى تخرج من شبه الجزيرة العربية قبيل الاسلام - فى الجاهلية - يقد بعض منها الى مصر والشام وتشير بعض المصادر الى " ان قبائل من بلل التى امتدت ارضها الى برزخ السويس " . (٤) كان منهم عدد كبير فى مصر فى عهد ظهور النصرانية . وكانت منطقتهم ما بين القصير وقتنا وعليهم كان الاعتماد فى نقل التجارة . (٥) وقد ازدادت اواصر الارتباط بين العرب والمصريين بتحقيق القربى الدمية فقد قيل " ان ام العرب - هاجروا

(١) حتى : تاريخ العرب ج١ ص ٤ - جولد ولسون : الحضارة العربية ص ٤٢

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١

(٣) جواد طى : تاريخ العرب قبل الاسلام ج٢ ص ٣٤٢

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ج١ ص ١٣١ - العفرى : البيان والاعراب

ص ٨٤

(٥) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ص ١٠٧

أم إسماعيل بن إبراهيم الخليل من القبط من قرية نحو القلوا وإسماعيل أبو المصرب كلها * (١) ويقول (بتلر) (٢) أنه في أواخر العصر البيزنطي في مصر كان يعيش بالاسكندرية كثير من المصرب الى جانب غيرهم من الأفريق والقبط والسوريين —
واليهود *

وقبيل الفتح العربي كان التجار المصرب قد اعتادوا دخول مصر * فكان عمرو بن الحاصر تاجرا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته وهي الادم (الجد) والمطر الى مصر * وكان يشهد اعياد اهل الاسكندرية وأحابيهم * (٣) وربما اتاحت له ظروف قدومه الى مصر مرارا الفرض لمصرقة طرق مصر وسالكها * ومن قدم الى مصر في العصر الجاهلي للتجارة ايضا عثمان بن عفان والمغيرة بن شعبه * (٤)

وبانجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ابنه إبراهيم من كاتبة القبطية تأكدت الصلات الدموية والقرباية العنصرية بين المصرب والمصريين * وقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بالقبط خيرا * فقد أشرعنا فيه قال : * ستفتح عليكم بمصر مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة * (٥)

وقد ذكرت مصر في بعض المواضع في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (اهبطوا مصر فان لكم ما سألتكم) (٦) وقوله عز وجل (ادخلوا مصر ان شاء الله آمين) (٧) وقد كان ذلك تأكيدا للصلات بين العرب والمصريين وقد عينا روحيا للعلاقات بينهم *

(١) سورة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ — الكندي : فضائل مصر ص ٢٥

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤ — الكندي : الولاة والقضاة ص ٧ — السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١١٣

(٤) السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١٦

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ — الكندي : فضائل مصر ص ٢٦

(٦) سورة البقرة آية ٦١

(٧) سورة يوسف آية ٩٩

وكان الفتح المبرى الاسلامى لعصر وغيرها حدثا فذا فى تاريخ العلاقات الدولية تخضع فيه تغيير جذرى لام كثيرة . فقال ولفنسون : ان الهجـرة العربية الاسلامية بعد ظهور الاسلام الى جميع اطراف العالم كانت آخر حداث سامى عظيم وقع فى الجزيرة العربية واخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الارض وهزمت العالم بأسره هذا غنفا وصدرت عنه توجعات فكرية ونفسية عظيمة شملت اصقاع اسيا وافريقيا واروپا . وكان من نتيجتها ان تغيرت ام كثيرة هناك . وانقلبت منها كل جوانب الحياة من سياسية ودنية واجتماعية وعمرانية ما ادى الى نتائج خطيرة جعلت التاريخ البشرى فى كل هذه الاتجاهات يتجه اتجاها جديدا . (١)

وقد كان الفتح المبرى الاسلامى لمصر حدثا عيقا فى سلسلة العلاقات العربية المصرية وله اثره الواضح فى التاريخ المصرى فقد بدأ المصر المبرى الاسلامى واصبحت القسطة عاصمة لمصر ومركزا لاشعاع الاسلام والمروى طمس مصر .

اعتاد العرب فى قدامهم ان يؤسسوا فى الاقطار التى يفتحونها مدنا اسلامية عربية جديدة وبذا لاتتصار الاسلام وللحماية الموية وكانوا يتخيرون اماكن هذه المدن الجديدة .

وفى مصر اسس القائد المبرى الفاتح عمرو بن العاص مدينة القسطة بعد فراغه من فتح الاسكندرية الفتح الاول (٢) . ويشير المقرئ الى ان انشاء مسجد عمرو بن العاص الجامع كان نواة تأسيس مدينة القسطة ، فيقول : " ولما افتتح عمرو مدينة الاسكندرية الفتح الاول نزل بجوار هذا

السيد
الاساس
الدين الاسلامى

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١١٢

(٢) المقرئ : الخط ج ١ ص ٢٨٦

هكذا الحصن - أي حصن بابليون - واخطت الجامع المعروف بالجامع المتيسق
وبجامع عمرو بن العاص * واخطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت
بالقساط ونزل الناس بها * (١)

وقد تعددت آراء المؤرخين حول سبب اختيار عمرو بن العاص لموقع هذه
العاصمة العربية الإسلامية الجديدة كما اختلفت الآراء حول تسمية القساط وسنذكر
بعض هذه الآراء التي بين أبعاد عروبة مدينتنا لقساط وعروبة تسميتها *

ومن هذه الآراء ما يشير إلى اختيار العرب مواقع المدن الجديدة بمبعدة
عن السواحل وتشير الرواية إلى أن " عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها
مناها * هم أن يسكنها وقال ساكن قد كفيها * وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب
يصفها له ويستأذنه في اتخاذها عاصمة فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني
وبين المسلمين ما ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل * فكتب عمر إلى عمرو :
إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيفه
فتحول عمرو من الاسكندرية إلى القساط وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي
وقاص وهو نازل بمداين كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل
بالاسكندرية ألا تجعلوا بيني وبينكم ما * متى أردت أن أركب اليكم راخلي حتى
أقدم عليكم قدمت فتحول سعد بن أبي وقاص من مداين كسرى إلى الكوفة وتحول عتبة
ابن غزوان إلى البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القساط * (٢)

وهناك روايات لا تنيل كثيراً إلى تصديقها وهي تشبه الروايات التي أخذنا
أن نجد لها في مصادرنا التاريخية ترتبط بنشأة المدن الإسلامية فتذهب هذه
الروايات إلى أن عمرو بن العاص حين أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد امتياله
على حصن بابليون * أمر بنزع قساطط أي خيمته وكان قد تركها بجوار الحصن
أثناء حصارهم له * فإذا يطام قد فرح فقال عمرو : لقد تحرمنا بمحترم * فامر

المسيح والملك
البحري والملك
وغيره النبل

(١) القرظي : الخطط ج١ ص ٢٨٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - ابن سعيد : الغنوب ص ٣٩

القرظي : الخطط ج١ ص ٢٩٦ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢

عرض عمرو مسألة اختيار المكان الذى ينزلون به ، فقالوا : ننزل بالفسطاط .

هذه الروايات يشوبها الخيال وينقصها التخصيص ، لان المواقع الهامة فسى انطاخ العالم عرفها الانسان منذ القدم وان تغيّرت اسما تلك المواقع بتغيير الزمان وربما تنبه العرب الى اهمية موقع تلك المدينة التى اتخذوها عاصمة لمصر اذ يمتاز موقعها بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا ، وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحرية ويذكر (استرابون) ان حصن بابليون الذى يقع قريبا من موقع منف كانت فيه احدى الطاميات الثلاث فى مصر (١)

ويشير القزوينى الى موقع هذه الطيبة البيزنطية فيقول : " ان هذا الحصن الذى يصرف بقصر الشمع وبالمحلة لكن ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيرة من مدينة الاسكندرية ويقع فيه ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية " (٢) وما يؤكد اهمية موقع هذا المكان ان المصريين القدماء كانوا قد اتخذوا منف عاصمة لهم مدة طويلة وكانت مدينة هليوبوليس — عين شمس — التى كانت بجانبها متصلة بمباني مدينة منف قد بناها عاصمة لمصر ايضا .

وتقع مدينة الفسطاط بين مدينتين القديمتين ويفصلهما عن كل منهما ثلاثة فراسخ الى الجنوب والى الشمال . كما اتخذها البابليون فى القرن السادس قبل الميلاد مكانا لاستقرارهم فى مصر ومنوا فيها حصنا كويا وجعلها السور عاصمة ثانية لاقليم مصر وصلوا بها بين الوجهين البحرى والقبلى . (٣)

ويصف القزوينى موضع مدينة الفسطاط حين اخطبها العرب بأنه كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل القطم . وليس

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢١٦-٢١٧

(٢) القزوينى : الخطط ج ١ ص ٢٨٦-٢٨٧

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٣٦-٣٧

فيه من البناء والصارة سوى حصن يعرف بمضه بقصر الشمع والمعلقة وكان بجوار هذا الحصن من جهته الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس للنصارى. (١)

تعددت آراء المؤرخين حول لفظ (فسطاط) الذي أطلق على العاصمة الإسلامية الجديدة . ويرى (بتلر) (٢) أن هذا اللفظ مشتق عن اللفظ ~~الرومي~~ (فاساتوم) وكان يطلق على حصن بيزنطي قديم كانت آثاره قائمة في ذلك الموضع ، وكان الروم في حصن بابليون إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه (الفساطون) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ .

ويذكر الجواليقي أن لفظ فسطاط فارسي معرب وقال الخليل عنه ؟ في لغة العرب معناه ضرب من الابنية دون المسايق وقيل مجتمع أهل الكورة حول مسجد جماعتهم . وقال ابن قتيبة : " أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . ولذلك قيل لمصر فسطاط " . (٣) وتشير معظم روايات المؤرخين إلى أن لفظ الفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو " يعني خيمته " . (٤)

وهناك رأي آخر يذهب إلى أن لفظ فسطاط مشتق من اللفظ اليوناني (فساتون) وهو أيضا مشتق من اللفظ اللاتيني (فاساتوم) الذي كان يطلقه الروم على معسكراتهم الحربية وتزيد أوراق اليردي هذا الرأي ففي أحد الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ ٩٠ هـ وفي أخرى مشابهة بتاريخ ٩١ هـ كان اسمها (باب اليون) و (الفساط) موجودين قبل تأسيس مدينة الفسطاط وقد احتفظ العرب بذلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحصين (٥)

(١) المقرئى : الخط ج ١ ص ٢٨٦

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩٤

(٣) Fassatum

(٤) الجواليقي : العرب من الكلام الأعجى ص ٢٤٩ ، باقوت : معجم البلدان

ج ٢ ص ٢٨٠

(٥) ابن دقاق : الانتصار ج ٢ ص ٤٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٩

ويرى الاستاذ الدكتور مصطفى المبادئ ان كلمة فسطاط كانت شائعة في ارجاء الامبراطورية البيزنطية بالنسبة للمحركات او الحصون وليس في مصر فحسب . (١)

عمارة مدينة الفسطاط :

ومهما كانت الآراء حول اسم مدينة الفسطاط ، وسواء أكان عربيا او اعجميا الاصل فقد أصبحت مدينة الفسطاط بعد انشائها في عهد عمرو بن العاص عريضة تماما ، فقد قامت حول جامع عمرو بن العاص الذي أصبح مركزا اسلاميا عربيا تلتصق حوله القبائل العربية . (٢)

(٣)

وكانت خطط القبائل العربية قائمة حول جامع عمرو وعلى مقربة من قصر الشمع وكانت هذه الخطط تمتد من النيل غربا حتى عين الصيرة شرقا ومن جبل يشكر شمالا حتى الشرق وجبل الرصد (٤) جنوبا . (٥) وكانت هذه الخطط بمنزلة الطواحي التي هي اليوم بالقاهرة ، فقبل لتلك في مصر خطة وقيل لها في القاهرة حارة . (٦) وقد اتبع في تقسيم هذه الخطط نفس النظام الذي اتبع في تنظيم الجيش العربي القادم مع عمرو بن العاص لفتح مصر فقد كان جيش الفتح يتكون من جنود ينسبون الى قبائل مختلفة تمثل كل قبيلة وحدة مستقلة لكل منها رايتهما الخاصة وقد وزع عمرو الخطط على القبائل فكان لكل قبيلة خطة معينة مثل خطة مهيمنة وخطة تجيب وخطة طافق وخطة المفاخر . الخ . وخصص عمرو اربعة من كبار الصحابة للاشراف على عملية توزيع الخطط وهم معاوية بن كعب بن الجهم وشريك بن سبي الفطيفي المرادي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناسر المفاصري فكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل . (٧)

(١) مصطفى المبادئ : ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربي . مقال بالمجلة

التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم) ص ٩٤

(٢) القرظي : الخطط ج ١ ص ٢٨٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٢ ص ٤٤

(٤) مكانها الان اسطبل غفر .

(٥) عبد الرحمن زكي : خطط الفسطاط - مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم) ص ٥٧ - ٥٩

وكانت هناك جماعات قليلة لم يكن لها من العدد ما يسدح بأفراءه بخطاسة خاصة لها فرأى عمرو أن يفرد لهم خطة مجتمعين ولم تسم باسم أحد هم وصيت باسم (خطة أهل الراية) نسبة الى راية عمرو بن العاص (١) ولم تكن هذه الخسطة لجميع الجند المصري ذلك لأن عمرو بن العاص كان قد استبقى نصف قواته للاقامة بالقسطنطينية بينما أرسل فريقا من قواته للمرابطة بالاسكندرية وسائر الثغور المصرية (٢)

وعلى الشاطئ المواجه للقسطنطينية اختط العرب مدينة الجيزة وذلك لأن " همدان ومن والاهما قد استجبت الجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص حصنا بها مسن في المسلمين بأمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين وفتح من بنائه في سنة اثنتين وعشرين " (٣) وقد ربطت صلات قوية من الجوار والتبادل والتزواج ما بين سكان الجيزة والقسطنطينية (٤)

ولم تقف أعداد السكان العرب بمدينة القسطنطينية وغيرها عند الحد الذي كان عند انشاء هذه المدينة بل ازدادت أعداد القبائل العربية بأضطراد نتيجة للهجرة أو التكاثر وكان هناك ديوان خاص لتدوين هؤلاء الجند فيسري ابن عبد الحكم (٥) : " كان معاوية بن أبي سفيان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا فكان على المهاجر رجل يوضح كل يوم فيدور على الجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ج فيقال : ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيقول : سموهم فيكتبه ويقال : نزل بنا رجلا

== (٦) المقريزي : الخطط ج١ ص ٢٩٦-٢٩٧

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨- ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠- القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ٣٢٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٣

(٤) المصدر السابق ص ١٠٢

من أهل اليمن وعياله* فإذا فرغ من القبائل كلها أتى إلى الديوان حيث يسجل
أسماء الطارئين الجدد* ليخصص لهم نصيب من المصطفا*.

ومنذ بداية تخطيط القسطنطين أصبح لها طابع عربي فيقول المستشرق آدم
ميتز : ان مدينة القسطنطين ومكة كانا على طراز جفوس الجزيرة العربية مثل
مدينة صنعاء* (١) وقد كان لبطانة المدينة الجديدة عند تخطيطها ما يميز
المسحة العربية* فقد كان مسجد عمرو بن العاص عند بناءه بسيط البناء* مطأطي*
السقف ولم يكن بجدرانته شي* من البياض أو الزخرف وكانت أرضه مفرقة بالحصى*
ويمثل الطراز المعمارى لجامع عمرو بن العاص الطراز المشتق من عمارة الحسن
النجوى الشريف وقد استوحى عمرو في تخطيطه وفي العلاقة بينه وبين داره مسجد
النبي صلى الله عليه وسلم وداره بالمدينة* (٢)

وكان التأثير البيئى العربى له أثره الفعّال فى تخطيط العرب لمدينة
القسطنطين* فقد بنى عبد الله بن عمرو داره التى عند المسجد الجامع قصرا
على تزيين الكعبة* (٣) كما ان خارجة بن حذافة كان اول من بنى غرفة بها*
فكتب عمرو بن الخطاب الى عمرو بن العاص يهدمها* حتى لا يطلع على عورات جيرانه*
ويقول ابن عبد الحكم (٤) : " وكان العرب حين اخطوا المدينة تركوا
بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لتأديب افواجهم ولم يزل الامر تلتقى
ذلك حتى ولى معاوية بن ابي سفيان فأقطع هذا الفضاء فبنيت الدور بسببه*
كما جعل عمرو بن العاص امام داره الكبرى المواجهة للمسجد مرقفا لدواب
الجند* (٥)

(١) ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - أبو المصنفين : النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٦٧

(٣) حسن الباشا باخون : القاهرة - تاريخها ، فنونها ، آثارها ص ٤٠٤
- ٤٠٥

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٧

(٥) المصدر السابق ص ٩١ - ابن دقاق : الانتصار ج ٦ ص ٦

(٦) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٧

ومجمل القول ان اختيار موقع القسطنطينية قد دل على نظرة صائبة مسن
المرب فقد أثبتت الخريبات انها " قامت على كتلة عظيمة من الصخر تشمل هضابا
ووهادا " (١) حتى لا يطغى عليها الماء " (٢) ومن الناحية الحربية كان
وجودها على رأس الدلتا قد جعلها في مأمن من هجمات المدو فيحى القسطنطين
من جهة الشرق جبل العظم ضد المدو وضد فيضان النيل كما كان لها جانب
يمكن ان يضطرد اتساعها منه وهو الشال فلما احتيج الى الاتساع قامت المعسكر
ثم القطنج " (٣)

جامع عمرو كمركز لانتشار الاسلام والتعريب :

المسجد هو الموضع الذى يسجد فيه " قال الزجاج : كل موضع يتمسك
فيه فهو مسجد " والجامع تمت للمسجد " وانما تمت بذلك لانه علامة الاجتماع
وما كانوا فى الصدر الاول يفرقون كلمة (الجامع) وانما كانوا تارة يقتصرون على كلمة
المسجد وطورا يفرغونها الى الصفة فيقولون (المسجد الجامع) او (مسجد
الجامع) ويطلق هذا الاسم عادة على المسجد الكبير لانه مكان اجتماع الناس (٤)

واصبحت المساجد الجامعة أهم مراكز انتشار الاسلام والتعريب والثقافة
فى كل الامصار الاسلامية " وقد كان المسلمون يحرصون على بناء المساجد
الجامعة عند انشاءهم المدن فى الامصار المفتوحة وكان المسجد هو أبرز صورة
للتعبير عن سيادة الدين الاسلامى وأبلغ رمز للتعبير عن وحدة المسلمين فى تلك
الامصار " (٥)

(١) على يهجت وألبير جبرائيل : كتاب خريبات القسطنطين ص ٣٩

(٢) ناصر خصراف سفرنامة ص ١٤٦

(٣) عبد الرحمن زكى / القسطنطينية واطرافها القطنج والمعسكر ص ٥

(٤) البقيرى : الخط ج ٢ ص ٤٠٨

(٥) الخهزلى : العرب والحضارة ص ١٥

وتقول الرواية التاريخية : " لما افتتح عمر البلدان كتب الى ابي موسى وهو على البصرة يأمره ان يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فاذا كان يوم الجمعة انضوا الى مسجد الجماعة وكتب الى سعد بن ابي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك . وكتب الى امراء اجناد الشام ان لا يتعدوا الى القرى وان ينزلوا الى الدائن وان يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا ولا يتخذ القبائل مساجد فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده " . (١)

وفي مدينة القسطنطينية كان المسجد الذي اتخذه المسلمون للجماعة هو مسجد عمرو بن العاص ، وهو أول مسجد " اصريد " يار مصرفي الطلة الاسلامية بعد الفتح . (٢) وكان الفاتحون قد استقروا على انشاءه بمدينة القسطنطينية بعد مشاورات . وأصبح يسمى بمسجد عمرو بن العاص والمسجد الجامع . او المسجد العظيم أو تاج الجوامع وكان بناؤه سنة ٦١ هـ (٦٤٢ م) (٣) وقد شيد على الشاطيء ، للشرق للثقل من الناحية الشمالية وكان حوله حدائق وكروم . (٤) وكانت المسافة بينه وبين شاطئ النهر حوالي مائتي متر . (٥) وكان الذي طرز موضعه هو قيسية بن كلثوم النخعي أحد بني موم وكان قد نزله خلال حصار حصن بابليون فلما طرد العرب من فتح الاسكندرية سأل عمرو قيسية ان يقيم المسجد مكان منزله فتصدق به قيسية . (٦) وقد رُف على قبلته من الصلابة الذين شهدوا فتح مصر ثمانون رجلا . وقد كان المسجد في بداية انشائه بعمق البهاء وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . (٧) ولم يكن

(١) القيرزي : الخطط ج١ ص ٢٤٦ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٤٩

(٢) ابن دقاق : الانتصار ج١ ص ٥٩ - القيرزي : الخطط ج١ ص ٢٤٦ -

ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٦٢

(٣) ابن دقاق : الانتصار ج١ ص ٥٩ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٣٢

ابن القدا : المختصر في اخبار البشر ج١ ص ٧٢

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - ٩٢ - ابن سعيد : المغرب ج١ ص ٤

بجد رانه شيء من الزخرف او البياض وفرشت ارضه بالحصى وكان الطريق يطيسف به من كل جهة " فقد جعل له عرو ستة ابواب فى الجهة الشرقية المواجهة لداره بابان ومثلها فى الجهة البحرية (الشمالية) وبابان فى الجهة الغربية وكان صقعه مطاطاً جداً ولا صحن له فاذا كان الصيف جلس الناس بفناءه من كسـل ناحية " (١)

ويمثل جامع عمرو اقدم الطرز المعمارية لبناء الساجد واهمها - وهو الطراز المشتق من عمارة الحرم النبوى الشريف اى طراز الجامع الذى يتألف من صحن مربع او مستطيل يحف به من جوانبه الارصة اربعة اربعة اعقبها رواق القبلة وقد استوحى عمرو فى تخطيطه وفى الحلاقة بينه وبين داره مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وداره بالمدينة (٢) وحظى جامع عمرو بمناية ورعاية الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر فقد تولوه بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سمته أضعاف مساحة المسجد الحقيق ستة عشرة مرة " وقد ثبت تاريخيا واثرنا انه لم يتبق غير قليل من عمارة المسجد الحقيق وزخرفته لان معالم المسجد المعمارية والزخرفية قد اندثرت معظمها " (٣)

== (٥) المسافة الان بين الجامع والنيل حوالى خمسةة مترا نتيجة تفسير مجرى النهر (فريد شافعى : العمارة المصرية فى مصر ، مصر -الولاء ، ج١ ص ٣٦٣)

(٦) القيرزى : الخطط ج١ ص ٢٨٦ - ابو المظمن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٦٧

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ - ابن سميد : المغرب ج١ ص ٤ - ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٨٩٨

- (١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ٣٤١ - القيرزى : الخطط ج٢ ص ٢٤٧
- (٢) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، تاريخها ، وفنونها ، وآثارها ص ٤٠٤
- (٣) احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ج١ ص ٧٣ - ٧٧

وكان لجامع عمرو اهمية كبيرة ، فقد كان ثالث مسجد اقيم في الاسلام ، اذ ان اول المساجد هو مسجد البصرة الذي اُنشئ سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) ^(١) وكان مسجد الكوفة هو ثاني المساجد في الاسلام ^(٢) ونظرا لاهمية جامع عمرو بين الماضى فقد كانت اصالة الجمعة تنام به حتى بعد انشاء جامعى الصكر و احمد بن طولسون ^(٣).

ولم تقتصر اهمية جامع عمرو بن العاص على ادائه الشعائر الدينية فحسب بل كان هذا الجامع كثيره من المساجد الجامعة في الامصار الاسلامية دار عبادة ومركزا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وقام جامع عمرو بدور كبير في التمهيد ونشر الثقافة العربية وفي هذا الجامع كانت مجالس القضاء وتحقق في الجهرسة البحرية الشرقية وكان يخصص لقاضى القضاة بها في كل اسبوع مرتين ^(٤).

وشهد جامع عمرو بن العاص حياة علمية زاخرة ، فقد كان هذا الجامع مركزا للثقافة والمعارف الاسلامية وشهد نهضة أدبية عظيمة ، شارك في السمار العلوى والحركة الثقافية في سائر الامصار الاسلامية وشهد جامع عمرو حلقات العلماء الذين اشتهروا بالاجتهاد والاستنباط فكان لكل عالم مجلسه الخاص الى جانب عمود من أعمدة المسجد حيث يلتف حوله طلابه فيلقى عليهم دروسه فيستنون اليه أو يدنون ما يسمعون منه ، وكان مجلس العالم يتوارثه تلاميذه من بعد وفاته ^(٥) وقد حدث بعد وفاة الامام الشافعى ان صارت حلقاته الى تلميذه يوسف بن يحيى البويطى ^(٦) وكان هناك موضع مشهور في جامع

(١) المرجع السابق.

(٢) السمودى : التنبيه والاشراف ص ٣٥٧-٣٥٨

(٣) القيرزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦-السيوطى : حسن المظفرة ج ١ ص ١٣٣

(٤) القيرزى : الخطط ج ١ ص ٢٥٣

(٥) The Encycl. of Islam. (Art Masjid) Vol.3, P.365

(٦) على مارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧

عمرو باسم مجلس ابن عبد الحكم* ومن نظرفيه وأي جميع الجامع من أوله إلى آخره* (١)
وينسب المجلس إلى عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤هـ

وقد تحدثت الحلقات العلمية بجامع عمرو بن الماص مثل غيره من الجوامع
في سائر الأماصار الإسلامية وهي الطريقة السائدة في التعليم في الفترة المبكرة
من تاريخ الدولة الإسلامية. وقد صار للجلوس في هذه الحلقات العلمية والتصدي
للفتيا أو التدريس قداسة وشروط معينة. فقال الباقر (٢) : "وأما جلوس
العلماء والفقهاء في الجوامع والمساجد والتصدي للتدريس والفتيا ، فعلى كل واحد
منهم زاجر من نفسه أن لا يتصدى لما ليس له بأهل ، فيضل به المستهدى ويزل به
المعتري".

(١) ابن دقماق : الانتصار ج٤ ص ٢٤
(٢) الباقر : الأحكام السلطانية ص ١٨٨

٤- انتشار الاسلام في مصر وأثره في التعريب

لم يعرف المصريون من القبط واليهود وغيرهم الدين الاسلامي ولا اللغة العربية قبل الفتح العربي لمصر بلادهم وانما جاءت مصر فتهم لها مصاحبة لاحداث الفتح نفسها . وكانت هذه الاحداث اول فرصة للمصريين ليمتلوا شيئاً عن الاسلام واللغة العربية . والواقع ان شأنهم في ذلك كان شأن بقية سكان البلاد السنتي فتحها العرب المسلمون . ولعل ذلك هو الذي حدا ببعض الكتاب المحدثين ان يقول : " ان الاسلام لم يكن له عال ^{مختلص} مخصوصين يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان للاسلام اناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شربلما ان يستصحب معه علمسى الدوام في حروبه ركبا من القس والرهبان ليأشروا فتح الضامير والقلوب ، بمصد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلى بها الاسم حيا تجمل الولدان شيئا . ولكننا لانعلم للاسلام مجسدا دينيا ولا رسلا واجبارا وراء الجيوش ولا رهينة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللمان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار . وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والاخذ والالباب . نعم قد اهتمق الاسلام قوم مشوا وراء منافسهم ولكنهم قلوبون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية المنطق بكلمة التوحيد لهيصر قائلها من المسلمين . (١)

وقد لسنا في دراستنا لموقف سكان مصر من الفتح العربي ان العرب لم يجبروا احدا ولم يضطروا الى ترك دينه المسيحي او اليهودي ، واعتناق الاسلام ولا غوى في ذلك فقد جاء في القرآن الكريم (لا اكراه في الدين ، قسده تبين الرش من الفى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لانقسام لها والله سميع عليم) . (٢)

(١) دى كاسترو: الاسلام خواطر وموانع ص ٤٤-٤٥ - القاهرة ١٣١٥ هـ =

١٨٩٨ م

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

آخر النخل
١٤١١
١٤١٢
١٤١٣

وقال سبحانه وتعالى ايضا : (ولو شاء ربك لامن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (١) وغير ذلك من الايات القرآنية التي تفيد هذا المعنى وتحث على الدعوة الى الاسلام بالحسنى وعدم الاكراه عليه . وقد لاحظنا ان عمرو بن العاص وجند المسلمين كانوا أثناء الفتح يخبرون المصريين بـ أمور ثلاثة : الاسلام أو الجبهة أو القتال .

والحقيقة ان الاسلام وجد طريقه بسرعة الى قلوب المصريين ، منذ ان وضع العرب اقدامهم في مصر . فقد اقبل كثير من المصريين على اعتناق الاسلام وتسرّعوا اليه بان الابهاء قبل ان يتم العرب عمليات فتح مصر . وتشير بعض المصادر التاريخية المحاصرة لحدث الفتح العربى لمصر الى اعتناق بعض المصريين الاسلام وانضمامهم الى صفوف المسلمين بل والاشتراك معهم فى انعام فتح البلاد المصرية . كما كان هؤلاء المتحولون الى الاسلام يستولون على املاك المصريين المحتفظين بدينهم والذين كانوا يتركون ديارهم وارضهم ويفرون من وجه العرب . ونذكر من هؤلاء الذين اسلموا يوحنا احد رهبان دير سيناء وكان ، لكانى المذهب فترى الديسر واعتنق الاسلام وحمل السلاح الى جانب المسلمين . بل كان يشتد على المسيحيين من الملكانيين او القبط اليمانية . (٢)

كما اعتنق الاسلام بعض كبار رجال القبط واستمروا يتولون مناصب بسارة فى ادارة البلاد بعد انعام الفتح (٣) وكانت هذه فى الغالب سياسة عمرو بن العاص التى تتنصت ترك الامور فى ايدى سكان البلاد المفتوحة سواء من اعتنق منهم الاسلام او من بقى على دينه .

(١) سورة يونس آية ٩٩

(٢) Chronique de Jean. PP. 440 , 465.

(٣) Hardy: Christian Egypt; Church and People. P.189

ونلاحظ ان المصادر التاريخية لم تشير الى موقف اليهود القاطنين فى مصر من الدين الاسلامى أثناء الفتح العربى وبعد انعام الفتح ونحن نرى انه قد يكون ذلك راجعا الى قلة عدد اليهود فى مصر الى جانب ان اقبالهم على ترك دينهم اليهودى والتحول الى الاسلام كان ضئيلا جدا آنذاك ما لم يستمر انتباء المؤرخين .

انتشر الاسلام في مصر انتشارا واسعا اذ كان اقبال القبط — بصفة خاصة — على اعتناق الاسلام وترك دينهم المسيحي يتزايد تدريجيا كلما تقدم الموحدين بالمغرب في مصر حتى صار من بقى منهم على دينه المسيحي قليل المدد بعد ان كان لهم الاظمية المدد بين المصريين • ونلاحظ ان الاقبال على اعتناق الدين الاسلامي كان على نطاق واسع في عصر الولاة عنه في عصر الدول المستقلة اي الدول الطولونية والافشيديّة والفاطمية — التي أصبح القبط فيها اقلية ولكن لها اهميتها وكيانها في المجتمع المصري •

ونلاحظ ايضا ان المصادر التاريخية المختلفة قلما تشير الى اعتناق اليهود ^{سنة ٧٠٠} للدين الاسلامي وتركهم دينهم اليهودي اللهم الا في عصر الخلفاء الفاطميين — بصفة خاصة في عهد الخليفة الحاكم بامر الله وان كان عدد من اقبل منهم على التحول عن دينه الى الاسلام كان ضئيلا بالنسبة الى عدد القبط المتحولين الى الدين الاسلامي •

ومع ذلك نجد فترات معينة ازداد فيها التحول الى الاسلام اكثر من غيرها وكان ذلك في الواقع نتيجة عدة اسباب وتحت تأثير ظروف معينة ناشئة عن سياسة الخلفاء او سياسة ولائهم الذين يظنون انجذبات الخلفاء • ونحن نرى ان ابرز العوامل التي كانت تشجع اهل الذمة على ترك دينهم واعتناق الاسلام وكانت الاعباء الاقتصادية او بمعنى آخر ما كان يلتزم به الذمي من الاعباء المالية ونفسى ^{اقرئ} مقدّمها الجزية •

ويبدو ان الجزية كانت موردا من اهم الموارد المالية للدولة الاسلامية في مصر في عصر الولاة بصفة خاصة • ومن ثم كان كثير من اهل الذمة يرغب في الخلاص من هذا العبء العادي عن طريق ترك دينه واعتناق الاسلام اذ كان نفس الغالب من يمتنع الاسلام يمتنع من اداء الجزية • وبدل على ذلك تناقص مقدار جباية مصر تدريجيا مع تقدم الحكم الاسلامي فيها • (١) وان كنا — في الوقت نفسه

(١) القرينى : الخطط ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٠

لا يمكننا ان نحين عدد من كان يتحول الى الاسلام في عصر كل والي او خليفة . تخلصا من اداء الجزية لان المصادر التاريخية كثيرا ما تذكر جباية مصر شاملة للجزية والخراج معا . وذلك الى جانب ان احصاء سكان مصر من المسلمين او القبط او اليهود لم يكن يتم دائما في مصر الاسلامية ولم نسمع عن احصاء كامل لسكان مصر وكل ما هنالك احصاء الرهبان في عصر الولاة الامويين . (١) او احصاء القبط (٢) وايضا احصاء اليهود في اواخر عصر الدولة الفاطمية . (٣) ونلاحظ ان هذا الاحصاء كان يتم في عصور مختلفة ومتباعدة .

ونستدل على ذلك ايضا من ان الجزية لم تعد موردا اساسيا من الموارد المالية للبلاد في عصر الامراء الطولونيين ومن جاء بعدهم من الحكام المسلمين وذلك لتناقص عدد من كان يؤديها آنذاك مما كانوا عليه في عهد الولاة . فقد صار اهل الذمة اقلية قليلة في ذلك العصر وصار اهتمام الامراء اكثر بخراج الارض وشئون الزراعة كمورد اساسي لمالية الدولة . (٤)

والى جانب الدافع الاقتصادي كانت هناك دوافع اخرى يضطرها لها اهل الذمة احيانا الى ترك دينهم واعتناق الاسلام وهي ما كان يتمرضها الذميون له من المضايقات والزامهم بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم بل والزامهم بأنواع معينة من الملابس ومنعهم من ممارسة بعض عاداتهم وظقوسهم الدينية وغير ذلك من سبيل التضييق والمصعق بهم في بعض الفترات مما كان يؤدي الى اسلام الكثير منهم تخلصا من هذه المضايقات . وكان ذلك يحدث في الواقع في فترات محدودة وهي الفترات التي اشتد فيها بعض الخلفاء في تطبيق احكام الاسلام بشأن اهل الذمة نضيف الى ذلك ان بعض الذميين كان يترك دينه المسيحي او اليهودي ويمتشق الاسلام طمعا في بعض المناصب الرئيسية في ادارة البلاد . كما سنرى . ولكن هناك كثير من اهل الذمة يقبلون على اعتناق الاسلام اعجابا بتماليه الرشيدة .

(١) قام بهذا الاحصاء لأول مرة الاصفهاني عبد العزيز . ثم قام به من بعده اسامة بن يزيد . انظر ابن الخفيع ص ١٤٢ ج ٢ ص ١٤٢ - ١٥١

(٢) قام به الوليد بن رفاع في خلافة هشام بن عبد الملك وقضى في ذلك تسعة اشهر فوجد اكثر من عشرة الاف قرية في كل منها خمسائة قبطي . انظر ابو صالح الارمني ص ٣٥ السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧

(٣) The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, T.I. PP. 146, 147, 149, 154, 158, 159.

وتحدث سيرتوماس ارتولد (١) عن تحول الكثير من القبط الى الاسلام . فقال ان هؤلاء القبط في الحقيقة قد تركوا دينهم المصحى بنفس السهولة والسرعة التي اعتنقوها بها في مستهل القرن الرابع الميلادي ويرى في الوقت نفسه ان سرعة انتشار الاسلام في السنوات الاولى للمغرب في مصر كان من بين اسبابها عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء اكثر من ان تكون راجعة الى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الالهيين الى الاسلام . وان اللاهوتى لبقا اليه قوميين طائفة منفصلة والشماثر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ وقتا طويلا ودفعوا ثمنها غاليا في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت صفتها اشد ما تكون غوضا وابها من الناحية الميتافيزيقية ولا شك ان كثيرا من هؤلاء قد تحولوا وقد اخفت الحيرة منهم كل مأخذ . واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احدم من حولهم الى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد بل اننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة ان لم تكن اسلامية خالصة فقد كانت على الاقل وثيقة الصلة بها وربما ساعد عدم وجود اى نظام كنى مستقل . ويجد طوقه لا يضاحه والتعبير عنه على زيادة الذين دخلوا في الاسلام . (٢)

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ - ويزيد على ذلك انه قبل هذا القرن

اي القرن ٧ م كان عدد مسيحي وادي النيل قليل . ولكن ما تعرض له الشهداء من اضطهادات دقليانوس وما تم على يد هؤلاء الشهداء من معجزات في ذلك العصر والشعور القوي الذي اثارته روح المقاومة لاوامر الحكومة الاجنبية الى جانب ما اعطوه من الضمانات بان جنة النعيم قد فتحت ابوابها لكل شهيد مات على ايدي معذبيه . كل هذا قد اثار في نفوسهم حماسا ادى الى سرعة انتشار الدين المصحى بصورة لا يكاد يصدقها العقل ودلا من ان ينتصر المصريون عن طريق التبشير او كثيرهم من اهالي بلاد المشرق نراهم ينتحلون المسيحية قسسى خيرة من الحاسة الجامحة دون ان يتلقوا اى شيء من التبشير او التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلق حياة من السمادة الابدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده .

(٢) سيرتوماس ارتولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ - ٢٢٦

ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنق الاسلام عن رغبة شديدة وسدود
دوافع مادية او اجتماعية وانما مالوا الى الانتماء الى هذا الدين لما لصوره فيهم
من دعوتهم الى السلام والمساواة والعدل وغير ذلك من الخصائص السامية التي يتضمنها
الدين الاسلامي.

وما لامك فيه ان قدم القبائل المصرية المتوالي الى مصر واستيطانهم
العدن والقرى المصرية واندماجهم مع المصريين واختلاطهم بهم كان له اثره ابيض
في انتشار الاسلام بين المصريين. ويجد ربنا هنا ان نشير الى الفترات التي اشتد
فهيما التحول الى الدين الاسلامي طوال تاريخ مصر الاسلامية منذ الفتح العربي
حتى سقوط الدولة الفاطمية (٢٠-٥٦٧هـ = ٢٤١-١٧١م).

لا شك ان ما قام به الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان - عندما عهد اليه
ابوه عبد العزيز امير مصر آنذاك بولاية الخراج من اخصاء الرهبان في جميع انحاء
البلاد المصرية والزامهم بأداء الجزية لأول مرة في الاسلام ومنع قبول رهبان جدد
والزام الاساقفة بأداء الف دينار الى جانب خراج كنائسهم المعتاد وما كان
يقوم به على جانب ذلك من اعمال الشدة والعنف ازاء القبط (١) كل ذلك
ادى الى اعتناق كثير من القبط الدين الاسلامي حتى ينعموا بما ينعم به المسلمون
ويتخلصون من سيادة الاصبغ واعوانه نحوهم. وتقول في ذلك الرواية القبطية :
" واضطر جماعة الى ان اسلموا ومن جعلتهم بطون والى الصعيد واخوه تاودوا وولده
تاوفاتس مقدم مبروط وجماعة كهنة وخداميين لا يحصوا من كدرتهم " (٢)

وأسلم نفر كبير من القبط في ولاية عبد الله بن عبد الملك الذي اسلم
الى اهل الذمة وألزم بطرك القبط بفرومة مالية كبيرة كما ضيق على الاساقفة

(١) ابن العلقم : سير الاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٣ - ابن العميد : تاريخ
المسلمين ص ٢٨-٢٩ . الراهب البهاوسي : حسن السلوك في تاريخ
البطارقة والملوك ج ١ ص ٢٣١ - الانبا ايسيدورس : الجريدة النفيسة ج ٢
ص ١١١

(٢) ابن العلقم : سير الاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٧ - ايضا الراهب البهاوسي
حسن السلوك ج ١ ص ٢٣١ - الانبا ايسيدورس : الخريدة النفيسة ج ٢
ص ١١١

والرهبان وزاد الخراج وعده بصفة عامة الى ابتزاز الاموال من القبط بكل وسيلة ممكنة والحق بهم كثير من الضرر^١ الذي^(١) ولعل الكثير منهم فضل التحسول الى الاسلام حتى يتخلص من هذه المظالمات .

ومن الفترات التي اشد فيها التحول ايضا الى الاسلام ولاية اسامة بن زيد لخراج مصر في عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك فقد اشد هذا الوالى في جباية الجزية والخراج وأمر علماء^{محاليه} في مختلف الاقاليم الا يتوانوا في جمع الضرائب على اختلافها .^(٢) ولا شك ان ذلك كله ادى الى اسلام كثير من القبط تخلصا من الاعباء المالية في ذلك العصر يضاف الى ذلك ان هذا الوالى قد تشدد فسي مراقبة حركة الهروب التي لجأ اليها القبط لمسلمهم بجدون الخلاص من الضرائب المختلفة بهوسهم من مكان الى اخر وهدد من يأوى غريبا في الكنائس والاديرة والقنادق كما الزمهم بحمل جوازات سفر تسمح بانتقالهم من مكان الى آخر داخل البلاد المصرية وعمل احصاء جديد للربان وامر بوسمهم ونسخ الترهيب لسنين يرغب فيه في ذلك الوقت .^(٣) كل ذلك كان من مظاهر التشدد في جباية الجزية والخراج وغيرها من الضرائب . وكان طبيعيا ان ينتج عن هذه السياسة المنيعة تحول كثير من القبط عن دينهم واعتناقهم الاسلام دين الدولة .

واعتق كثير من القبط الدين الاسلامي في عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز فقد اصدرا امره في جميع ارجاء الدولة الاسلامية بمنع استخدام اهل الذمة في الحكم وشئون الادارة وتقول الرواية القبطية انه كتب الى^{محاليه} على مصر:

(١) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٥ - Fowler: Christian Egypt. P. 58.

(٢) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥١-١٥٢

(٣) ابن المقفع : سير الالبا البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥١-١٥٢ - ابن العميد :

تاريخ المسلمين ص ٦٩ - القويزي : الخط ج ٢ ص ٣٩٥

" من اراد ان يقيم في حطة ولادة ، فيكون على دين محمد شله ومن لا يريد يخرج من اعالي " . ونتج عن ذلك ان تخلى القبط عن الاعمال وحل محطهم موظفون مسلمون . ودخلت اليد على التناري من الولاة والمتصرفين والمسلمين في كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيمهم وفقيرهم . . . (١)

ولاشك ان ذلك دفع كثيرا من القبط الى ترك دينهم واعتناق الاسلام ليحفظوا بما يتولونه من وظائف واعمال .

كذلك شجع الخليفة عربين عبدالمعز الدمين على التحول الى الاسلام ، حينما اعلن في جميع الامصار الاسلامية ومنها مصر ان من يمتنع الاسلام يحبس من اداء الجزية ولاشك ان الخلاص من هذا المصعب الطوي أدى الى اسلام كثير من اهل الذمة مما أضر بمالية الدولة . وكتب والي مصر آنذاك حيان بن مريش الى عربين عبدالمعز يقول : " اما بعد ، فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الطرث بن ثابته عشرين الف دينار وتمت عطاء اهل الديوان ، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فصل " وهكذا اراد هذا والي الا يرفع الجزية عن يمتنع الاسلام من اهل الذمة ولكن الخليفة ضمه من ذلك ، وكتب اليه : " . . . ضع الجزية عن اسلام ، فبح الله وأيك ، فان الله انما يمت محمد صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جلبيا ، ولمصرى لمصرا حقا من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه " . (٢)

-
- (١) ابن القفيع : سيرالاياء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٢-١٥٣
 (٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٢ - طبعة تورى : القريزي : الخطط ج ١ ص ١٢٥ - وتشير بعض المصادر الى ان هذا الخليفة امر رسوله الى مصر بضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطا ادبا له على قوله انظر : ابن النقاد : الذمة في استعمال اهل الذمة ورقة ٨٣ مخطوط .

وكان حفص بن الوليد الغضري من أكثر الولاة المسلمين رغبة في تشجيع
 أهل الذمة على اعتناق الدين الاسلامي ويقول سائرون (١) : " وقد أعلن حفص
 ان كل من يتخلى عن دينه ويصير مسلماً لا يؤخذ منه بعد جزية لانها كانت على الناس
 كلهم ولاجل هذه الخصلة اضل الشيطان خلائق فتخطوا عن دينهم ومنهم من اكتسب
 وصار من المسيكون ونستخلص من هذه الرواية ان الزام الذي الذي يعتنق الاسلام
 بأداء الجزية قد لجأ اليه ولاية مصر بعد عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي امر
 بأعفاء من اسلم من أهل الذمة من الجزية. فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر
 رأى تشجيع الذميين على التحول الى الاسلام عن طريق هذا الدافع المادي. فكان
 لذلك اثره الكبير واعتنق الاسلام في عصره عدد كبير من القبط اذ بلغ عددهم
 حوالي اربعة وعشرين ألف قبطي (٢) ^{عصر}

ويبدو ان سياسة رفع الجزية عن يعتنق الاسلام من أهل الذمة لم تستمر
 طويلاً بعد حفص بن الوليد. والدليل على ذلك ما أظنه الخليفة العباسي أبو المباس
 السفاح من أعفاء من اسلم من أداء الجزية في جميع اهلاد الاسلامية ورضها مصر.
 وتقول في ذلك الرواية القبطية " وكتب عبد الله الملك - أي السفاح - الى جميع
 ملكته ان كل من يصير على دينه صلى كصلاته يكون بغير جزية. فمن عظم الخراج
 والكلف عليهم انكر كثير من الفقراء والاعيان دين المسيح وتبعوه " (٣) وهكذا
 كان الدافع المادي في عصر الولاة الامويين والعباسيين اقوى الدوافع المشجعة
 على انتشار الاسلام بين أهل الذمة في مصر.

ولاشك ان الثورات المتعددة التي قام بها القبط في عصر الولاة الامويين
 والعباسيين (فوالفترة ما بين سنتي ١٠٢ و ٢١٦ هـ) والتي كان ينجح الولاة
 المسلمون في القضاء عليها بصورة كان يتبعها غالباً تحول كثير من القبط عن دينهم
 واعتناقهم الدين الاسلامي حتى ينضموا بالهدوء والامن وللخلاص من أداء
 الجزية وما قد يتعرضون له من المضايقات التي تضمنتها سياسة بعض الولاة المسلمين ^{المسلمين}

(١) سير الالباء البطارقة ج ١ ص ١٧٢

(٢) نفس المصدر ص ١٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٥ - ٢٠٦

في ذلك العصر • وقد بلغ انتشار الاسلام مداه • بعد ثورة البشوريين في سنة ٢١٦ هـ في عهد الخليفة المباسي المأمون • وكانت هذه الثورة آخر ثورات القبط في عصر الولاة بل وفي عصر الدول المستقلة ايضا اذ اصبح المسلمون يمدوا اغلبية بعد ان اسلم عدد كبير من القبط يقول القريزي (١) • ومن حينئذ ذلك القبط في جميع ارض مصر ولم يقدرا احد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وعظيهم المسلمون على طاعة القرى فرجعوا من الطارية الى الكايسة واستعمال المكر والحيل لزيادة المسلمين وعملوا كتاب الخراج •

وتعلق السيدة تيشر (٢) على اخاد ثورة البشوريين ونتاج عنها مسن تحول الكثيرين من القبط الى الاسلام فتقول ان انطلاق يد المسلمين في القبط وكناهم يلحقون بهم الاذى ويحتدون على كفافهم وطاقها • من الاواني والادوات كان ما اضطر كثير من القبط الى اعتناق الدين الاسلامي ونجاة في الخلاص • ومن ذلك الحين تناقص عدد القبط كثيرا وصار العرب يحكمون القرى ويصلون فسي الاواصي التي كانت في يد القبط من قبل • وزاد عدد المسلمين كثيرا وقويت شوكتهم عما كانوا عليه من قبل •

وحدث في خلافة المأمون المباسي ان قاضي مصر محمد بن عبد الله كان يستدعي اليه علما البطريرك القبطي انبا يوساب ويضطرهم الى ترك المسيحية واعتناق الاسلام (٣) كما شهدت خلافة القويك المباسي اسلام كثير

(١) الخطط ج٤ ص ٣٩٦

(٢) تاريخ الامة القبطية م ٢ ص ٢٢٤ — الشمامسة القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٤٢٩

(٣) ابن المقفع : سيرة الالهة البطركية م ١ ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ • وقال للبطرك لا يجوز لك ان تقوم امر الملوك وتدوس اوامرهم • ولا يجوز ان تستبسط هؤلاء الصبيان وتنصرهم • فاجابه انبا يوساب : انا ما اقوم امر الملوك ولا اقوم كلمة سالحة بل ما كان من كلام الظلم • ثم قال له • انت عارف بان كل من يقدمك ما كان يلزم مثل هؤلاء الذين هم نصارى باسلام لانهم يقدموا للبيع هدايا وهؤلاء من عند الملك الحبيبة والنوبة والروم جاءوني هديئة • ولكن القاضي لم يستجب لذلك وارغم القبطان على اعتناق الاسلام واعلم البطريرك بذلك وانه لم يمد له صلة بهم •

من اهل الذمة وخاصة من القبط لان عمر هذا الخليفة وكان طفلا بالتضييق على
الذميين والزامهم ببعض الاحكام فقد اضطر هذا الخليفة اهل الذمة الى عدم
التشبه بالمسلمين في لباسهم وان يلتزموا بملابسهم الخاصة بهم كما حرم عليهم
ارتداء اللون الابيض بل امر ان تكون ثيابهم مصبوبة بالانديان مختلفة كما امر ان يطبق
كل من القبط واليهود صورا مخزقة على ابواب دورهم حتى يسهل التمييز بينهم
وبين دور المسلمين (١) كما امر ولاته على الاقاليم المختلفة بعدم استخدام
غير المسلمين في شئون الادارة والحكم الا من يتوك دينة ويستحق الاسلام (٢)

وانزال ثابته في مصر عبد المسيح بن اسحق كنيوا من الاذى بالقبط واضطربهم
الى اخفاء علامة الصليب بل امر بكسر جميع الصلبان في الكنائس والاديرة
ومنع القبط من اظهار الصليب اثناء سيرهم في الطرقات كما امر القبط بالاجتماع
بصلواتهم كما حرم عليهم الصلاة على موتاهم ودفنهم من ضرب النواقيس كما منع
بيع النبيذ في جميع البلاد المصرية حتى صار لا يوجد خمر يرفع به القداس (٣)

وقد ادت هذه المضايقات كلها في العظم والمسكن وفي اداء الطقوس
الدينية الى تحول كبير من القبط الى الدين الاسلامي وتقول بعض المصادر
القبطية " ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى انهم انكروا السيد
المسيح فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحبتهم فيه واخرين لما لحقهم مسن
الفقر (٤) ويمنوا بن المقفع (٥) الى هذه السيادة اسلام من اسلم مسن
القبط في ذلك العصر قراء يقول " بهذه الاسباب يخرجون من اديانهم
وقوما كثيرا ما صبروا ولا توكلوا على الههم وانكروا اسم المخلص في تلك الايام
الشديدة ونصروا ما قاله في الانجيل القديس والذي يصبر الى التمام فهو يخلص
ويكرز بهذا الانجيل "

(١) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٢٣ — ابن القفيع : سير الابرار البطارقة

م ٢ ج ١ ص ٤ — ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢٨٥

(٢) ابن القفيع : سير الابرار البطارقة م ٢ ج ١ ص ٤ — ابن الاثير : الكامل ج ٥

ص ٢٨٥ وقد اشرنا الى هذه المضايقات بالتفصيل فيما سبق

(٣) ابن القفيع : سير الابرار البطارقة م ٢ ج ١ ص ٤ —

(٤) نفس المصدر ص ٤

(٥) نفس المصدر ص ٤

نذكر من اسلم في ذلك المصرا صطفن بن اندوته واولاده . وقد اخذ هؤلاء بعد اسلامهم يرسمون القبط بكل سوء ويقولون غنم ما يحط من شأنهم . وكان اصطفن بن اندوته كثيرا ما يقول : يخسر اضعاف روح القبط المضمومة ودفعهم الى الاسلام " ان النصراني قبل هذا اليوم لا يلبسوا ثيابا لها اكرام بل يلبسوا ثياب بدو اكرام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعهم اباؤهم فاذا كان الالباء تلبس هذا اللباس بالاحرى ان تكون اولادهم مثلهم . " (١) وهكذا كان انتشار الاسلام بين القبط يتزايد تدريجيا ويقل عدد القبط من مصر الى آخر كما نلاحظ ان من كان يمتنع عن الاسلام منهم قد انظر الى جانب المسلمين وعمل على اضعاف منويات القبط . والحق من شأنهم .

ومن المصوالتى كثر فيها اقبال القبط على التحول الى المدين الاسلامى عهد والى خواج مصر احمد بن محمد بن مبر . ذلك لانه تشدد كثيرا في جباية الجزية والخراج وفرض ضرائب كثيرة على المصريين وضاعف عليهم الجزية والخراج وقد تعرضنا لذلك في الفصل الخاص بالجزية والخراج وغيرها من الضرائب السنتى التزم بأدائها اهل الذمة في مصر الاسلامية . فبعد ان كانت جزية قبط مصر الف دينار زاد عليها حتى صارت ستة الاف دينار . حتى ان الانسان الفقير الذى يمحز قوته ياخذ منه في كل سنة خمسين درهما حتى ضجت اهل مصر واعمالها من عظيم هذا المذاب وجد كثير من النصراني لاجل قلة ما يأيد بهم من الدراهم . " (٢)

وهكذا تتابعت موجات الداخلين في الاسلام من القبط وشهد النصف الاول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) انتشارا واسما للاسلام فى مصر حتى اذا كانت اماره احمد بن طولون على مصر فى سنة ٢٥٤ هـ كان اكثر من مبعث مصر قد تحولوا الى الاسلام وصار المسلمون يكونون الاغلبية المظفى بين سكان مصر وصار اهل الذمة اقلية قليلة . ومن ثم اخذت الصيغة الاسلامية نتيجة

(١) ابن الحفغ : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٢

(٢) نفس المصدر ص ٢٧ — ٤٤

لذلك تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في الماديات والتقاليد وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة. (١) واكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك تناول حصيلة الجزية فلم تعد بابا أساسيا من ابواب الدخل في مصر منذ العصر الطولوني الى جانب اختفاء ثروات القبط التي كانت من مميزات عصر الولاية الاموية والعباسيين.

ويؤكد ذلك ما أشار اليه المقرئ (٢) من انحطاط جباية مصر فبعد ان كانت في ايام عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار وفي ولاية خلفه عبد الله بن سعد بن ابي مسرج اربعة عشر مليون دينار انحطت كثيرا عن هذا المقدار حتى وصلت الى ما يتراوح بين ثلاثة واربعه مليون دينار في القرن الثالث الهجري وكان ذلك دليلا على تناقص عدد اهل الذمة الذين يؤدون الجزية وضارت موارد البلاد تعتمد الى حد كبير على خراج الارض الذي كان يؤديه الذمى المحفوظ بدينه والذمى الذي اعتنق الاسلام ايضا. وتطور نظام جباية الخراج في مصر واتبع نظام قبالات الاراضى وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحول كثير من اهل الذمة الى الاسلام وانتشار المسلمين في القرى المصرية واشتغالها بالزراعة الى جانب القبط المحفوظين بد ينهم وما حدث نتيجة لذلك من اختلاط العرب بالقبط وما كان يتم بينهم من تزواج. (٣)

ولا معنى ذلك توقف تحول من بقى من اهل الذمة الى اعتناق الاسلام ففى المصور المتتالية. وما لاشك فيه ان المصريين لاخشيدي والفاطمي قد شهدا اعتناق كثير من اهل الذمة الدين الاسلامي. ففي عهد الامراء الاخشيديين تحول

(١) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية "المصر الطولوني" ص ٥٤ و

Zaki Hassan: Les Tulunides. P.216

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٣١

عدد من اهل الذمة الى الاسلام وترك دينه اليهودى او المسيحى طعنا فى تولي بعض الوظائف الكبرى وخاصة الوزارة . ونذكر ان اشهر هؤلاء هو ابو الفرج يعقوب ابن يوسف بن ابراهيم بن كاس وكان يهوديا . ولد ببغداد . ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب ، ثم سافر مع ابيه الى بلاد الشام ومنها رحل الى مصر فى سنة ٣٣٠ هـ وفى مصر تطوّر امر ابن كلس ولمع نجمه واتصل بخواص كافور الاخشيدى وما لبث كافور ان قرّبه اليه ، لنعيطته وحسن سياسته واجلّسه فى ديوانه الخاص . وبدأ مركز ابن كلس يسمو يومسما يمد يوم حتى صار له الامر والنهى . (١)

وأراد كافور ان يجهّد الى ابن كلس بالوزارة الا ان دينه اليهودى حل بينه وبين تحقيق ذلك فبادر ابن كلس الى ترك دينه اليهودى واعتناق الدين الاسلامى وتولى الوزارة فى سنة ٣٥٦ هـ . وقرا القرآن وصلى فى المسجد الجامع ورتب رجلا من اهل العلم بالقرآن وعلوم اللغة العربية ليتلمذ على يديه ، لكن ما لبث ان دب الخلاف بين ابن كلس وبين الوزير القائم آنذاك ابنى الفضل جعفر بن انقرات فأسرع ابن كلس الى الفرار الى بلاد المغرب حيث يحكم الخلفاء الفاطميون قبل فتحهم لمصر . (٢)

ثم عاد ابن كلس الى مصر بعد الفتح الفاطمى وقد لعب ابن كلس دورا له شأنه ^{في مصر} فى سياسة البلاد فى هذا الحصر ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنقوا الاسلام فى ذلك العصر - اى عصر الامراء الاخشيديين طواعية بدون ضغط او ارهاب او دافع اقتصادى او طمعا فى السلطان ، وان كانت المصادر التاريخية لم تشر الى ذلك صراحة .

(١) ابن زولاى : اخبار سيوفيه المصرى ص ٧٤ . ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ - ٢٠ . المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٧

(٢) ابن زولاى : اخبار سيوفيه المصرى ص ٧٦ ، ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢١ . المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٧ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧١

كان عصر الخلفاء الفاطميين اكثر المصور التاريخية — منذ منتصف القرن الثالث الهجرى — التى شهدت تحول كثيرين من القبط واليهود الى الدين الاسلامى . وان كنا نلاحظ ان تحول بعضهم الى الاسلام كان نتيجة لما تعرضوا له من المضايقات والمصف فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بصفة خاصة او رغبة منهم فى الحصول على المطايا والهيئات من الخلفاء وتولى بعض المناصب الرئيسية فى البلاد بعد عصر الحاكم بأمر الله .

لقد حظى كل من اليهود والقبط بتسامح الخلفاء الفاطميين وحسن معاملتهم لهم ويتجلى ذلك فى استخدام الخلفاء الفاطميين لهم فى مختلف الوظائف على نطاق واسع ولاشتراك معهم فى الاحتفالات بأعيادهم الدينية والساح لهم بهنساء الكنائس والاديرة الجديدة وتعمير القديم منها . ذلك الى جانب منادتهم ومصادقة الكثير منهم وخاصة الرهبان فى الاديرة واتخاذهم الاديرة متنزهات لهم .

وبالرغم من ذلك نجد احد هؤلاء الخلفاء وهو الحاكم بأمر الله يشتد فى معاملته لاهل الذمة من القبط واليهود ويكثر من مضايقتهم فنراه يلزمهم باللبس الضيق وعسدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم وضرورة شد الزنار فى اوساطهم ومنعهم من الاحتفال بكثير من اعيادهم الدينية كما ألزم القبط منهم بحمل صلبان من الخشب ، بينما يحل اليهود قوامى من الخشب ايضا كما افرد لكل منهم حمامات خاصة مميزة حتى لا يدخلوا حمامات المسلمين ولم يكف الحاكم بأمر الله بهذه المضايقات بل نراه يأمر ايضا بهدم الكنائس والاديرة وتحويل الكثير منها الى مساجد والاستيلاء على ما فيها من الاواني والادوات الذهبية والفضية . (١)

ومما لاشك فيه ان هذه المضايقات قد ادت الى اعتناق كثير من القبط واليهود الدين الاسلامى .

(١) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-

١٢٨

ابن سعيد الانطاكي ص ١٨٧-١٩٥-٢٠٠-٢٠٢ ابن الراهب ص ٨٢
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٣٥٩-٣٦٠ - ابو المطمن : النجوم
الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧-١٧٨ - القرىزى : الخطط ج ٤ ص ٣٩٨-٣٩٩

وذكر القريزي (١) انه كان من نتائج هذه الاحداث المختلفة التي قاسى منها اهل الذمة في مصر في عصر الحاكم بامر الله ان اسلم كثير من القبط حتى يأمضوا جانب هذا الخليفة المتقلب ويقول ابن القفح (٢) : " فجدد كثير من النصارى واليهود من رؤسائهم وادنائهم لاجل هذا ولم يصبروا على هذا الهوان والمذاب " .

وهكذا هذا اليهود اخذوا القبط في هذا العصر في اعتناق الاسلام وان كان كثيرا من هؤلاء اليهود كانوا يتظاهرون بتحولهم الى الاسلام ولكنهم في سرائرهم ظلوا مؤمنين بدِينهم اليهودي . (٣) والدليل على ذلك عردة كثير منهم الى اليهودية بعد ان اذن لهم الخليفة الحاكم بامر الله بذلك في سنة ٤١١ هـ .

اما ابن سعيد الانطاكي (٤) فيقول بشأن اسلام اهل الذمة في هذا العصر ان الخليفة الحاكم بامر الله قد تهدد النصارى وفزعهم وكثرت الراجيف والشفاعات فيهم . واسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين من القبط وتبعضهم خلق كثير من العامة كما اعتنق جماعة من اليهود الاسلام - وهكذا استمر اسلام القبط واليهود نتيجة مضايقات هذا الخليفة حتى انه لم يجد يرى في الطمىقات قبطى لمساعدة ايام . بينما كان اليهود اكثر تمسكا بدِينهم ولم يتحول الى الاسلام منهم الا نفيرا قليلا .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان الحاكم بامر الله كان يطاول جامدا ارطم بعض القبط على اعتناق الدين الاسلامى . وما لا شك فيه ان ذلك كان يحدث ايضا بالنسبة لليهود . (٥) ونجد بعض الروايات التاريخية القبطية التي تتضمن احداثا تؤيد هذه الحقيقة ذلك ان كثيرا من القبط قد برز في الدولة الفاطمية

(١) الخطط ج٤ ص ٤٠٠ تاريخ ابن الراهب ص ٨٢ - ٨٣

(٢) سير الالباء البطارقة م ٢ ج ٢ ص ١٢٦

(٣) Mann : The Jews, T.I. PP. 34, 37.

(٤) تاريخ ابن سعيد الانطاكي ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٥) Mann : The Jews, T.I. P. 37.

وصلح فيها اعلى المراتب حتى ضجت عامة المسلمين من تسلط هؤلاء الذين
عليهم ، وذلك الى جانب ما عرف عن الحاكم من سرعة القلب والرغبة في تحويل جميع
اهل الذمة الى الاسلام ، واعتناق المذهب الشيعى بصفة خاصة ، الى جانب جذب
المسلمين المعتنق الى هذا المذهب ايضا .

وبدلنا على ذلك ان الخليفة الحاكم بأمر الله قد استدعى اليه عشرة من كبار
رجال القبط المستخدمين في الدواوين والحكومة نذكر منهم الشيخ ابو نجاح والرئيس
فهد ابن ابراهيم . وقد عرض عليهم جميعا ترك الدين المسيحى واعتناق الاسلام
ووعدهم ببلوغ اعظم المقاصد وابلغ العارب . وقد استجاب اربعة من هؤلاء المشرة
الى طلبه تخطيا ما قاسوه من المذاب والارهاب وقد مات احدى في نفس الليلة
التي اعتنق فيها الاسلام . اما الثلاثة الآخرون الذين تحولوا الى الاسلام فقد
عادوا الى دينهم المسيحى عندما انتهك ضرب السياط والمذاب الشديد الذى
امر الحاكم بانزاله عليهم لتمسكهم بدينهم المسيحى . (١)

وكان من بين من أراد الحاكم بأمر الله اجباره على اعتناق الاسلام ايضا الكاتب
بغيرة الرشيدى الذى ترك الخدمة في الديوان واعلن صراحة امام الحاكم بامر
الله تمسكه الشديد بالمسيحية ورفضه الاسلام . فأمر الحاكم بأمر الله باعتقاله وانزال
مختلف ألوان المذاب والارهاب به . ولكن ببقرة صبر على كل ذلك . فلما ادرك الحاكم
ما يتميز به هذا القبطى من الايمان والصبر الشديد امر بالاقراج عنه فكتب له مجلا
يتضمن الا يعترضه احد في بيع ولا شراء ولا فى أى أمر آخر . (٢)

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان وفودا من القبط واليهود سمعت
الى مقابلة الحاكم واستأذنته فى الكلام والتعبير عما يجيش بنفوسهم من الحزن والمذاب
فأذن لهم بالكلام وأنهم على انفسهم . فقالوا له : ان سلوكه وسياسته معهم تختلف
تماما عما كانت عليه سياسة النبو صلى الله عليه وسلم والخلفاء المسلمين من بعده .

(١) ابن العلقم : سيرالامم البطارقة ٢ ج ٢ ص ١٢٢-١٢٣

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨-١٢٩

كما ان ذلك مناقض لما يتضمنه العهد الذي منحه المسلمون الفاتحون لاهل الذممة وأرادوا منه الاستفسار عن اسباب تغيير هذه السياسة . فأجيبهم الحاكم بأن السياسة التي التزمها النبي عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه كانا للفرص منها الترغيب في التحول الى الاسلام الا ان هذه السياسة لم تثبت الثمرة المرجوة منها وقد مضى عليها اربعة قرون وبالرغم من ذلك ما زال يوجد كثير من غير المسلمين في البلاد المصرية او غيرها ثم قال لهم : " فليس لكم الان عندى الا اختيار واحدة من اثنتين ، اما استنصافك الاسلام ، بمحو كل هذا التأخير ، واما الحقوة العاجلة اذا ابيتم الدخول فيه . " (١)

ولما عدل الحاكم عن سياسة المصنف والارهاب ازاء أهل الذمة في سنة ٤١١ هـ وأذن لهم باعادة بناء الكنائس والاديرة كما امنهم على انفسهم ، عاد كثير من اسلم من القبط واليهود الى دينهم القديم . وتذكر بعض الروايات القبطية ان جماعة من القبط الذين كانوا قد اسلموا وقفوا في طريق الحاكم وسألوه ان يأذن لهم فسي العودة الى دينهم المسيحى ، فسمح لهم بذلك وتبع هؤلاء جماعات اخرى من الذين تحولوا الى الاسلام في ذلك العصر تحت تأثير الضغط والارهاب . (٢)

وكان ذلك هو شأن اليهود ايضا . فقد عاد الكثير منهم الى دينهم اليهودى بعد تسامح الحاكم معهم . (٣) ويقول ابن زولاقي انه قد ارتد عن الاسلام اكثر من سبعة آلاف يهودى وعادوا الى دينهم القديم في يوم واحد . (٤)

ونذكر من الامثلة لهؤلاء الذين اسلموا في ذلك العصر ثم ارتدوا عن الاسلام وعادوا الى دينهم القديم ، الراهب " بيمين " الذى سأل الحاكم ان يأذن له ببناء

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٨-٢٠٩

(٢) ابن المقفع : سيرة الابرار البطارقة ٢ ج ٢ ص ١٣٥ - ابن حميد الانطاكى ص ٢٣١

(٣) Mann : The Jews, T.1. P. 35.

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٩

دير على اسم الشهيد مقوريوس ، وهو دير شهران فأذن له الحاكم بذلك .
وقد سكن بعين هذا الدير هو جماعة من الرهبان ، وكان الحاكم بأمر الله يتسرد
عليه كثيرا فيه . وقد استغل هذا الراهب حسن علاقته بالحاكم في تحسين أحوال
القبط ونوغير الامن لهم جميعا . (١)

وكان ذلك في الواقع مخالفا لحكم الاسلام بشأن المرتد ، اذ كان الاسلام
يقضى بقتل المرتد ولكن ذلك لم يحدث مطلقا في عهد الخليفة الحاكم . وتسوق
لنا بعض المصادر القبطية قصة القديس ديسقورس الذي كان من سكان مدينسة
الامكندرية واعتنق الاسلام وكتب الى اخيه في مدينة الفيوم يعلمها بترك المسيحية ،
واعتناق دين الاسلام فأرسلت اليه تقول : " لقد كنت اشتبهى ان يأتينى خبر موتك
وانت مسيحى فكنت افرح بذلك ولا يأتينى خبرك بانك تركت المسيح الهك . . وأعلم
ان هذا الكتاب آخر صلة بينى وبينك فمن الان لا نحمد ترى وجهك ولا نكاتبسنى " .
فكان لهذا الكلام أثره الشديد فى نفسه ، فأسرع بارتداء ملابس القبط وشد الزنار
فى وسطه ووشم نفسه بعلامة الصليب فلما بلغ خبره والى مصر . لم تحدد الرواية
تاريخ هذا الحدث . أمر بالقهض عليه وسأله عن سبب ارتداده عن الاسلام فأجابه
ديسقورس " انا ولدت مسيحيا ، وأموت مسيحيا ، ولا اعرف ديننا غير هذا " . فهدده
الوالى وألحق به كثيرا من ألوان التمييز وسجنه ولكنه أصر على تسكته بالمسيحية
فأمر الوالى بقتله حرقا . (٢)

وقد حدث ما يشبه ذلك فى أوائل عهد الفاطميين فى مصر اذ علم القاضى
محمد ابن النعمان . فى القرن الرابع الهجرى . ان احد القبط كان قد اعتنق
الاسلام ثم ارتد عنه وكان قد جاوز الثمانين من عمره . وقد أمر الخليفة الفاطمى

(١) ابن المقفع : سير الالهة البطارقة ج ٢ ص ١٢٥ . ابو صالح الارونى

ص ٢٠

(٢) السنكمار : ج ٢ ص ١٣-١٤

المميز بالله بتسليمه الى والى الشرطة وطالب من القاضي ان يرسل اليه اربعة
شهود ليتوب امامهم فان تاب ضحه مائة دينار وان أصر على ارتداده عن الاسلام
يقتل . ولكن هذا المرتد أصر على موقفه فقتل وألقى به فى النيل . (١)

ولما توفى الخليفة الحاكم بأمر الله ولى الخلافة الفاطمية بعد ما بهنه الظاهر
لاعزاز دين الله فى سنة ٤١١ هـ . وأصدر الظاهر سجلا قرئ على جميع
سكان مصر ، وقد جاء فيه " انه انتهى اليه استشمار جماعة اهل الذمة من النصارى
واليهود انهم يستكروهون على الانتقال الى شريعة الاسلام وامتحاضهم من ذلك
لئذ كان لا اكراه فى الدين " وان يزيلوا من انفسهم ما تخيلوه ويتحققوا انهم
يحملون على حكم الصيانة والرعاية وينزلون منزلة اهل الحماطة والحماية ، ومن آثر
منهم الدخول فى دين الاسلام اختيارا من قلبه ، وهداية من ربه ، ولم يكن فرضه
التمرز والاستطالة فليدخل فيه مقبولا مبرورا . ومن آثر بقاءه على دينه من غير
ارتداد كان عليه ذمته وحماطته وعلى جميع اهل الملّة حفظه وصيانته . (٢)

ونلمس من دراستنا لتاريخ اهل الذمة فى خلافة المستنصر بالله انه قد
اسلم فى عهده نفر من القبط واليهود ، رغبة فى الاستمرار فى مناصبهم
وارضاء لشعور المسلمين الذين كثيرا ما كانوا يمتنكون تسلط اهل الذمة
على شئون الحكم . نذكر من هؤلاء ابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحسى
وكان يهودى الاصل ، ثم اعتنق الاسلام ، وقد ولى الوزارة للمستنصر
فى سنة ٤٣٦ هـ . (٣)

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٩٣

آدم متر : الحضارة الاسلامية جا حاشية ص ٥٨

(٢) ابن سعيد الانطاكي ص ٢٣٥-٢٣٦

(٣) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نار الوزارة ص ٣٧-٣٨

ونذكر منهم ايضا: ابا علي الحسن بن ابي محمد ابراهيم بن سهل
التتوي * الذي تخلص عن اليهودية وتولى الوزارة للخليفة المستنصر. (١) وأبنا
محمد منصور المعروف بابن زنبور * وكان قبطيا ثم اعتنق الاسلام * لما عهد
اليه بالوزارة * في عهد الخليفة المستنصر ايضا. (٢)

(١) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٢

(٢) نفس المصدر ص ٥٤

٥ - موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية

كان انتشار اللغة العربية في مصر صاحبا ايضا للفتح العربي ومقترنا الى حد كبير بانتشار الاسلام لانه كان يجب على من يمتنع الاسلام ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن واداء الصلاة . ويجدر بنا ان نشير الى ما كان سائدا في مصر قبل الفتح العربي من اللغات .

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي هي اللغة الرسمية في الحكومة والمعاملات التجارية والكنيسة والعلاقات السياسية ، اما لغة المصريين الدارجة التي يتحدث بها عامة القبط فهي اللغة القبطية ويدوان استخدامها كان يسميان ابنا المجمع القبطي وفي شرح المعلوم والدروس الدينية التي كانت تلقى باليونانية ثم تشرح للقبط بلغتهم القبطية . (١)

وهكذا كانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكومة بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى ان احد القمص قال : " اذا اراد يوناني ان يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له ان يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع ان يفهمهم اما اذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه " . وذلك يؤكد عدم انتشار اللغة اليونانية بين جميع المصريين . وان اللغة اليونانية كانت تسير جنبا الى جنب مع اللغة القبطية حتى الفتح العربي للبلاد المصرية . (٢)

وكانت اللغة القبطية تكتب بالحروف اليونانية ثم اُضيف لها القبط سبعة حروف من الخط الديموطيقي Demotiv وهي حروف تعبير عن اصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي : فاي (ڤ) وفاي (ف) وخاش (خ) وهوري

Meinardus : Christian Egypt. P. 107. (١)

ومحمد كامل حنين : ادب مصر الاسلامية ص ٢٨
(٢) محمد كامل حنين : ادب مصر الاسلامية ص ٢٧

(هـ) وجنط (جـ) وتشيط (تش) وتى (ت) . (١)

وكانت اللغة القبطية مقسمة الى عدة لهجات اولفات رئيسية . يقول احد اصاقفة مصر الاسلمية (فى القرن الخامس الهجرى - الطادى عشر الميلادى) ويدعى انتناس Athanase - وكان اسقفا لمدينة قوص) " تعلم ان اللغة القبطية مقسومة على ثلاث اقاليم منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحرى " المعروف بالبحيرة ومنها القبطى البشمورى المستعمل ببلاد البشمور . والمستعمل الان - اى فى مصر هذا الاسقف - القبطى البحرى والقبطى الصعيدى والاصل فيها لغة واحدة . (٢)

وكانت هذه الاقسام الرئيسية للغة القبطية تنقسم بدورها الى لهجات فرعية نذكر منها الفيومية وكان استخدائها قاصرا على اقليم الفيوم والاخميمية وكانت لهجة سكان اخميم . والاخميمية الفرعية او الاسيوطية ويتكلم بها الاهالى فى المنطقة ما بين البهنسا واسيوط . (٣)

كانت اللهجة البحرية Bohairic هى المستعملة فى الطقوس الدينية فى الكنيسة القبطية بينما كانت اللهجة الصعيدية Sa'idic هى لهجة الادب . وكانت اكر اللهجات انتشارا فى مصر اما اللهجات الاخرى فكان كل منها خاصا بالاقليم الذى يحل اسمه وبالرغم من ان اللهجة الصعيدية كانت هى اللهجة المامة القبطية حتى القرن التاسع الميلادى فان اللهجة البحرية قد حلت محلها لمما اكسبته من الاهمية الدينية والكنسية وايضا لان كثيرا من الادب الصعيدى قد ترجم الى اللهجة البحرية . (٤)

(١) مواد كامل : حضارة مصر فى المصر القبطى ص ٢٤ - ٢٧ - يس عبد المسيح : اللهجات القبطية واثارها الادبية ص ٣٩ (رسالة مارينا سنة ٩٥٤ م)

و Meinardus: Christian Egypt. P. 107.

(٢) Quatramère: Recherches Critique et Histoire sur la longue et le literature de l'Egypte, PP. 20-21

(٣) مواد كامل : حضارة مصر فى المصر القبطى ص ٢٧ - ٢٨ يس عبد المسيح : اللهجات القبطية واثارها الادبية ص ٤١ - ٤٢

و Meinardus : Christian Egypt. P. 107.

Meinardus : Op. Cit. PP. 107 - 108.

(٤)

ساعد الفتح العربى لمصر على اتعاش اللغة القبطية (١) وكان ذلك
فى الغالب - على حساب اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية منذ عهد البطالمة
فبعد ان كانت الدروس الدينية فى كثير من الاحيان تقرأ باليونانية • ثم تشرح
للقيط باللغة القبطية الدارجة اصبحت بعد الفتح العربى لا تقرأ الا باللغة القبطية
وتشرح بها ايضا • والى جانب ذلك نجد البلاد والاقاليم التى كانت تغلب عليها
الاسماء باليونانية اصبحت تعرف باسمائها القبطية التى ترجع الى الاسماء المصرية
القديمة ونذكر من الامثلة على ذلك اخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis وهناسيا
بدلا من هيراكليوبوليس Héracleo- والاشمونيين بدلا من هرموبوليس Hermo-
polis وكان ذلك فى الواقع يمنا لقديم لم يندثر تماما • فان اللغة القبطية او الاسماء
المصرية القديمة كانت قد غلبت على امرها لفترة من الزمن ثم اخذت تستعيد مكانتها
عند الفتح العربى لمصر • (٢) بعد ان تخلصت البلاد من الحكم الرومانى وما كان
يرى اليه الحكام الرومان من القضاة على اللغة القبطية وان يحل محلها اللغة
اليونانية فى جميع الامور والاحوال • فتغل لهم بذلك السيطرة والحكم على البلاد
سياسيا ولغويا •

ونحن نرى انه كان امرا طبيعيا ان تنتشر لغة العرب الفاتحين بين المصريين
وان يتطور الامر فتصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة اليونانية
وكان ذلك فى الواقع نتيجة حتمية لسيادة العرب على البلاد المصرية بدلا من
الرومان •

وكان انتشار اللغة العربية فى مصر مصاحبا لانتشار الاسلام حتى صارت
اللغة العربية لغة التخاطب ولغة الكتابة والعلم • ونلاحظ ان انتشار اللغة
العربية بين المصريين كان بميربطا بمكس ما كان عليه الحال فى انتشار الاسلام •

(١) Quatrémerre: Recherches Critique et historique sur la langue et le literature d'Egypte, P.32.
(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane..., PP. 137 - 138.

كما اننا نلاحظ ان المصادر التاريخية المختلفة لم تشر الى متى بدأ القبط يستخدمون اللغة العربية لغة للتخاطب فيما بينهم . وصحبا كان الامر ، فاننا يمكن ان نقول ان القبط او المصريين بصفة عامة قد عرفوا اللغة العربية منذ السنوات الاولى للفتح العربي لمصر . ذلك لان من احقق منهم الدين الاسلامي كان لزاما عليه ان يتعلم اللغة العربية حتى يتمكن من تفهم دينه الجديد ومعرفة شرائعه الى جانب قراءة القرآن .

كلمة الش في

كذلك يبدو انه قد حدث ان تعلم اللغة العربية — في القرن الاول للمسيح — في مصر — بعض القبط المحافظين بدو بينهم المسيحي حتى يتقربوا الى الحكام واولى الامر في البلاد تذكر من هؤلاء الشماس بنيامين الذي تقرب الى الاصح بن عبد العزيز . فقد عهد اليه ابوه عبد العزيز بن مروان بكثير من امور مصر . وكان هذا الشماس يطلع الاصح على كثير من اسرار القبط . كما قام بترجمة الانجيل من اللغة القبطية الى اللغة العربية بناء على طلب الاصح كما ترجم له كتب دينية اخرى وكان الاصح يرمى من وراء ذلك ان يعلم هو والمسلمون ما في هذه الكتب مما يمس الدين الاسلامي . (١) ولا شك ان هذا الشماس كان يتقن اللغة العربية ويفهمها جيدا حتى انه امكنه القيام بهذه الترجمة . ونرى ايضا ان ما قام به الاصح من ترجمة هذه الكتب الى اللغة العربية كان مقدمة لتعريب الدواوين واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

وحدث ايضا في ايام عبد العزيز بن مروان على مصر ان امر الخليفة عبد الملك بن مروان بترجمة النصوص التي اعتاد ان يكتبها صناع اوراق البودي في مصر على ما يقومون بصناعته من هذه الاوراق . فلما تبين معناها قال : " ما أغلظ هذا في امر الدين والاسلام " . وكتب الى اخيه عبد العزيز بن مروان في مصر بأبطال هذه الكتابات وان يستبدلها باحدى الشهاداتتين ، فقام عبد العزيز بن

(١) ابن القتيبي : سير الابرار البطارقة ١ ج ٢ ص ١٤٣

مروان بذلك . (١) وسعد ذلك كله فيما بعد لتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية بدلا من اللغة اليونانية وان تكون ايضا لغة التخاطب بين القبط وفي المعاملات الاجتماعية .

استمرت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في الدواوين حتى عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ) ويؤيد ذلك اوراق البردي ذات الصبغة الرسمية والتي يرجع تاريخها الى عهد الوليد والتي دونت باللغتين اليونانية والعربية معا . وذلك لان اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية التي تدون بها الاعمال فسي تلك الدواوين اما اللغة العربية فكانت لغة الحكام العرب .

ونذكر من الاثلة على ذلك بردية يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ هـ . وتتضمن مرسوما صادرا من والي مصر عبد الله بن عبد الملك (٢) . وهذه البردية

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج١ ص ٤٤٩ . ويقول انسه لما حملت هذه القراطين الى بلاد الرومان وهم امبراطورهم بها امتشاط غضبا واستنكر ما فيها وكتب الى عبد الملك يقول : " ان عمل القراطين من بحرص واثار ما يطرز هناك للرومان ولم يزل يطرز بطرازهم فان كان ممن تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبحت فقد اخطأوا فاختر احدى الحالتين وارسل اليه هدية يفرجه بها حتى يعيد القراطين الى ما كانت عليه فردها اليه عبد الملك ولم يحطيمها اى اهتمام ولم يجيب الامبراطور الرومانى الى رغبته . عند ذلك هدد الامبراطور بنقش سب النبي عليه الصلاة والسلام على النقود ما ادى الى ضرب النقود الاسلامية آنذاك . نفس المصدر السابق .

تدل فسي الواقع على ان اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فـــــــ
دواوين الحكومة حتى ذلك العصر . فلما كانت سنة ٨٢ هـ نقل عبد الله بن عبد الملك
دواوين مصر الى اللغة العربية . وبذلك صارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية
التي تدون بها الاعمال بدلا من اللغة اليونانية . (١)

(٢) جوهان : اوراق البردي الصفر ١ ص ٢٥-٢٦ طراز رقم ٥٩ ويقبول
جامستون فيت انخذ بداسة اوراق البردي التي ترجع الى العصر العربي في مصر
يمكن ان نستخلص ان الاوراق البردية التي دونت باللغتين العربية واليونانية
اقدمها يرجع الى سنة ٢٢ هـ (٢٤٣ م) واحدها يرجع الى سنة ١٠١ هـ .
٧١٩ م وهناك برديات باللغة اليونانية فقط اخرها مؤرخ في سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م)
اما اوراق البردي المدونة بالعربية فقط فاقدمها يرجع الى سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م)
انظر : G. Wiet: L'Egypte Musulmane, P.138, et
Zaki Hassan : Les Tulunides, P.217.

ولفظ طراز فارسي الاصل معناه التطريز ثم صار يطلق على الثوب الموشى .
ثم اطلق هذا اللفظ اخيرا على الدار التي كان يصنع فيها الثياب او على المادة
التي تستعمل في التطريز ثم تطور احتمال هذا اللفظ وصار يطلق على
كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة او مكتوبة واطلق لفظ طراز اخيرا
على الكتابة التي كانت تكتب على دج البردي . في الدار التي كان يصنع
بها اوراق البردي ويطلق عليها اسم " الطراز " .

وكان دج البردي يتكون من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة
الاولى من هذه الاوراق باليونانية Protocol اي اللصق الاول وكانت تشتمل
على الكتابة الرسمية التي تسمى الان الطراز . انظر جوهان : اوراق البردي
السفر الاول ص ٣٤

(١) القريزي : الخطط ج ١ ص ١٥٨ وكانت دواوين الخراج والجبايات وغيرها
من الدواوين في البلاد الاسلامية شأنها شأن مصر على ما كانت عليه قبل الفتح
العربي لها فديوان الحراق كان باللغة الفارسية وديوان الشام بالرومية . وكتاب
الديوان من اهل العهد من الفريقين فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان يقول
ابن خلدون في المقدمة ص ٢٤٢ احتل الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة
الهداوة الى روتق الحضارة ومن مذاجة الامة الى حذق الكتابة وظهور
في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحبان . ومن ثم فكر عبد الملك في جعل
اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدواوين واعمال الحكومة وامر سليمان
ابن سعد ان ينقل ديوان الشام الى اللغة العربية فكان ذلك وجعل عليه
سرجون بن منصور كاتب عبد الملك فقال للكتاب الرومان اطلبوا العيش في غير
هذه الصناعات فقد قطعها الله عنكم اما ديوان الحراق فقد امر الحاجج ابن يوسف
التقي كاتبه صالح بن عبد الرحمن الذي كان يحلم الكتابة بالعربية والفارسية
بتصحيح ديوان الحراق فكان ذلك انظر القريزي : الخطط ج ١ ص ١٥٨-١٥٩
مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣-٢٤٤

وقد أدت عملية تعريب الدواوين في مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية الى اللغة العربية . ومن ثم صار للتعريب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية . وبدأت تنتشر اللغة العربية في جميع المدن والقرى المصرية وأصبحت لغة الادارة والحكم والتدريج . صارت بعد ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب . فضلا عن انها لغة السياسة والدين . (١)

ونلاحظ ان تعريب الدواوين في سنة ٨٧ هـ لم يقض نهائيا على استخدام اللغة اليونانية في كتابة الوثائق الرسمية . فكان من الضروري ان يكون هناك مرحلة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية في الاعمال الرسمية . فقد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب اللغة العربية طوال عهد الامير عبدالله ابن عبدالملك وفي عهد خلفه قرة بن شريك . ويؤكد ذلك كثير من الاوراق البردية (التي ترجع الى الفترة ما بين سنتي ٨٦ و ٩٦ هـ) . (٢)

كما تشير احدى اوراق البردي العربية الى احتمال اللغة اليونانية فسمى بعضها الوثائق في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ولا شك ان ذلك يدلنا على ان بعض المصريين كان لا يزال يلجأ باللغة اليونانية حتى ذلك الوقت . ويتجسد ذلك بها . وتتضمن هذه البردية تظلم بعض القرى المصرية من حال الضرائب وهي مؤرخة في سنة ١٣٧ — ١٤٠ هـ (٧٥٤ — ٧٥٧ م) وتتكون هذه الوثيقة من واحد ومائة سطر كتبت الثمانون اسطر الاولى فيها باللغة الطبطية والاثني عشر سطر التاليس باللغة اليونانية اما باقى الاسطر فقد كتبت باللغة العربية . والاسطر القبطية تحوى على نص الاخطار الاصلية . (٣) وذلك يدلنا بحدود شك — على ان رؤساء

(١) سيدة كاشف : عبدالعزيز بن مروان ص ١٤٥

(٢) جروهان : اوراق البردي ج ١ طراز ٦ ص ١١ — طراز ٦١ ص ١٣ طراز ٢٢ ص ١٤ — طراز ٣١ ص ١٦ — طراز ١٨ ص ١٧ — طراز ٥٠ ص ١٨ — طراز ٥١ ص ١٩ — طراز ٢١ ص ٢٠ — الى غير ذلك من البرديات المتعددة حتى ص ٤٩

(٣) جروهان : اوراق البردي ج ٢ ص ٦٢ — ٧٠

القرى كان جلهم تقريباً من القبط في ذلك العصر، الى جانب ان اللغة القبطية كانت هي اللغة المستعملة في القرى المصرية في حياة القبط وفي تعاملهم في المجتمع المصري. ولم تكن اللغة العربية حتى ذلك العصر قد صارت لغة التخاطب والمعاملات الكلية في جميع المدن والقرى المصرية. اما النص اليوناني في هذه البردية فكان عبارة عن وصف دقيق لبعض محتويات النص مثل اسماء الجحاشات التي كتبت الاخطار بينما كان النص المصري اكثر اختصاراً. (١)

ويرى بعض الكتاب المحدثين (٢) ان استخدام اللغتين اليونانية والعربية في مصر في التخاطب والمعاملات بين الرومان والقبط وغيرهم كان سائداً بين سكان مصر وذلنا على ذلك ما جاء في بعض اوراق البردي حيث يوجد ثبوتاً عبارة عن احد عشر سطراً وضم اسماء لبعض القبط ويرجع خطه اليوناني المنق الى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). (٣)

ونستخلص من دراسة اوراق البردي المصرية ان اللغة القبطية كانت تستخدم في كتابة بعض الوثائق في مصر الاسلامية - كما رأينا في البردية المتضمنة ظلامسة بعض القرى - وان كان من المصير ان نقول ان اللغة القبطية قد اصبحت لنفسه رسمية في المعاملات الحكومية وانما كانت في المرحلة الثالثة بعد اللغتين العربية واليونانية (٤) ونستدل على ذلك ببعض اوراق البردي التي كان يكتب فيها النص القبطي في نهاية الوثيقة. (٥) او في ظهورها (٦) ومضاف الى ذلك

-
- (١) جوهان : اوراق البردي ج ٢ ص ٧٠
 - (٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٤٥١-٤٥٢
 - (٣) جوهان : اوراق البردي ج ١ ص ٥٤
 - (٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٤٥١
 - (٥) ويقول جوهان في وصف الطراز رقم ٦ المورخ في صفح ٨٦ - ٩٦ (ج ١ ص ١١) وفي اسفل الطراز فراغ عرضه ١٥ سم وفي اسفله نص قبطي عشرة اسطر وايضا الطراز رقم ٦١ ص ١٢ وفيه نجد بين نص الوثيقة اليوناني وبين نص النص القبطي ٥ سم. وكذلك البردية رقم ٢ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطي وبين الطراز ٦ سم.

ان النص القبطى كان — فى الغالب — يكتب بحجر يختلف لونه عن لون الحجر السذى يكتب به نص الوثيقة الصينى او اليونانى . (١)

وبالرغم من ان اللغة العربية قد اصبحت اللغة الرسمية فى البلاد المصرية او بمعنى اخر لغة السياسة والحكم فانه من الواضح ان القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى — انها لم تصبح لغة التخاطب بين سكان مصر جميعا . وانه كان لا يزال يجهلها كثير من القبط ونرى ذلك واضحا حينما قيصر مروان — اخر الخلفاء الامويين — على البطرك انبا غيلاس ومعه الاساقفة وكان هؤلاء القبط لا يفهمون العربية ولا يمكنهم الحديث بها . وكان مروان بن محمد يصحب معه بعض المترجمة الذين تولوا ترجمة الحديث الذى دار بين مروان وبين البطرك القبطى لعدم فهم كل منهما للغة الاخر . (٢)

وتشير بعض المصادر القبطية الحديثة الى ان اللغة العربية بدأت تنافس اللغة القبطية فى التعليم والدراسة وفى مختلف الميادين منذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى . ولا غرو فان حلول اللغة العربية محل اللغة القبطية فى الكتابة سبقه انتشار اللغة العربية كلفة للتخاطب بين افراد الشعب فقد اصبحت اللغة العربية لغة الدواوين ثم صارت لغة التعليم والدراسة . وقد اصبحت القبط انفسهم فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) يولف علماء وفهم

(٦) جوهان اوراق اليردى جا الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ وه سطر ١١ على متن قبطى كتب فى ظهر الطراز والطراز رقم ٧ ص ٤٢ وظهره اربعة عشر سطر من صك قبطى — وكذلك الطراز رقم ٤ ص ٤٦ اربعة اسطر قبطية فى ظهر الاصل .

(١) انظر وصفى جوهان (جا ص ١١) للطراز رقم ٦ فان الصك مكتوب بحجر بنى مائل للحمراء على حين كتبت السطور القبطية بحيز اسود . وكذلك الطل فى الطراز ٦١ ص ١٣ والطراز ٦٦ ص ٢٣ والطراز ٧ ص ٤٢ وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فان لون الحجر فى نصه الاصلى اسود ولونه فى النص القبطى بنى .

(٢) ابن العنق : ميرالاباء البطرك رقم ١ جا ص ١٩٧ — ١٩٨

في العلوم اللاهوتية باللغة العربية مما يدل على أنها صارت لغة العلم وكان يفهمها
أغلب سكان مصر. (١)

ونرى أن تحول كثير من الذين إلى اعتناق الدين الاسلامي كان من
أهم العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية فصارت لغة التخاطب ثم لفظة
العلم والدراسة. إذ كان لزاما على هؤلاء المتحولين إلى الاسلام أن يدرسوا
اللغة العربية ويتفهموا فيها حتى يتوكلوا من قراءة القرآن وفهم شرائع الاسلام.
ومن ثم صارت اللغة العربية بالتدريج على مر العصور التاريخية - ضرورة في عمليات
البيع والشراء في المدن. كما اقبل القبط في القرى على تعلم اللغة العربية
واستعمالها في حياتهم اليومية. (٢)

وبالرغم من انتشار اللغة العربية في بداية القرن الثالث الهجري وفهم
كثير من القبط لها فإن ذلك لم يقض نهائيا على اللغة القبطية، إذ يبدو أن بعض
القبط استمر مطلقا على لفته القبطية دون مطولة لمعرفة غيرها. ويؤكد
ذلك أن الخليفة المأمون لما زار مصر في بداية القرن الثالث الهجري كان يصحب
معه المترجمين عند زيارته لبعض المدن والقرى التي مربها في طريقه.

فيقول المقرئ (٣) أن الخليفة المأمون مر في طريقه بقية طاء النمسيل
فلم يدخلها وكانت ملكا لحجوز قبطية تسمى مارية. فخرجت هذه المرأة تنادي

(١) مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ص ٧١-٧٢.
يسمى هذا الصيغ اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ص ٤٩ (رسالة
مارينا سنة ١٩٥٤م).

(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane. P. 138.

(٣) الخط ج ١ ص ١٣٠-١٣١

على الخليفة فظنها المأمون مستغيثة مظلمة ، فوقف لها وكان لا يدعى ابداً الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له ان القبطية قالت : يا أمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت شيعتى والقبط تميزنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين ان يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ولا تشمت به الاعداء * .

وحدث فى عصر هذا الخليفة ايضا ان البطرك كثيرا ما كان يخاطب اساقفته باللغة القبطية مع علمهم جميعا باللغة العربية . فقد حدث ان قاضى مصر آنذاك محمد ابن عبد الله استدعى البطرك انبا يوساب ومعضل اساقفة الذين سمعوا به لدى هذا القاضى وتمعد القاضى المذكور اهانة البطرك انبا يوساب امام هؤلاء الاساقفة . فوجه البطرك بعض الكلام الى هؤلاء الاساقفة الخارجين عليه باللغة القبطية وكان فى هذا المجلس جماعة من الفقهاء المسلمين الذين يعلمون القبطية فترجعوا للقاضى ما قاله البطرك باللغة العربية . (١)

ويؤكد ذلك بعض اوراق البردى التى ترجع الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فهناك بردية مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ . تتضمن عقد بيع وتشير الى ان احد القبط قد ادلى بشهادته على هذا المقعد وكتب شهادته واسمه باللغة القبطية . (٢) ومع ذلك فان ما قام به الخليفة العباسى المعتصم من اسقاط الموب من الديوان قد أدى الى اختلاط العرب بالعصرانيين فى القرى والمدن المصرية ، مما كان له اثره الواضح فى انتشار اللغة العربية بدور قضائها على اللغة القبطية . (٣)

اخذت اللغة العربية تجد طريقها بين اهل الذمة حتى صارت الاغلبية منهم تجيدها قراءة وفهما وتحدث بها فى العصر الطولونى وبدلت على ذلك ما جاء

(١) ابن القلق : سير الالباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٩١

(٢) جروهمان : اوراق البردى ج ١ ص ١٤٦ - ١٥٢

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فصول السلام ص ٢٥٧ - ٢٥٨

في بعض الأوراق البردية فهناك بردية مؤرخة في سنة ٢٧٤ هـ وفيها ان احد القبط
قد ادلى بشهادته وجاء في هذه البردية " اقرار دانيال بجميع ما في هذا الكتاب
بمد ان قرئ عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بها فيه " (١)

ولمخ الامران صارت جميع وثائق اهل الذمة سواء كانت تتضمن عقد بيع
او شراء او عقود الزواج تكتب باللغة العربية ومن الامثلة على ذلك بردية تتضمن
عقد زواج ثم في الاشمونين بين يحنس بن شنودة وبين زوجته القبطية (٢)

ونحن نرجح ان اللغة القبطية كانت مازالت متداولة بين بعض القبط حتى عهد
الامراء الاخشيديين واستمر ذلك حتى اواخر القرن الرابع الهجري (العاشر
الميلادي) فيقول القديس (٣) عن سكان مصر " لغتهم عربية " وذكهم يتحدثون
القبطية " اي ان اللغة التي كانت سائدة في البلاد وفي المعاملات المختلفة وشئون
السياسة والحكم بل والعلم والدراسة كانت هي اللغة العربية . بينما كان اهل
الذمة حتى ذلك العصر لا يزال كثير منهم يتكلم القبطية وقد يكون ذلك الى جانب
فهمهم والاطمئنان باللغة العربية .

ونستدل على ذلك بان سعيد بن بطريق البطريرك الملاكى قد ألف كتابا
في التاريخ باللغة العربية وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الهجري . ثم
جاء بعده الاسقف ساويرس بن العفقع . اسقف مدينة الاشمونين . فكتب كتابا
المشهور " سير الابهاء البطارقة " في اواخر القرن الرابع الهجري (العاشر
الميلادي) في عهد الخليفة الفاطمي المبرور في اللغة العربية . وكان
ساويرس (٤) يقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى اللغة العربية
ما يؤكد لنا ان اللغة العربية قد اصبحت آنذاك لغة التخاطب بين المصريين عامة .

(١) جروهان : أوراق البردي ج ٢ ص ١٧٠

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٥-٨٦

(٣) احسن التلخيص : ص ٢٠٣ و The Oxford Dictionary of the Christian Church, Art. Coptic. P. 342.

(٤) سير الابهاء البطارقة م ١ ج ١ ص ٦

ويقول ساويرس في مقدمة كتابه المذكور " . . . فاستعنت بمن اظم استحقاقهم من الاخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدته منها بالقلم القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديسار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من اكثرهم " .

ويتهم بعض كتاب القبط المحدثين بعض حكام مصر الاسلامية بمطاولتهم اقتلاع اللغة القبطية ومنع المصريين من التحدث بها ومن ثم القضاء عليها تماما ويوجه هذا الاتهام بصفة خاصة الى الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله . فنسراه يقول ان الحاكم بامر الله لم يقتصر على مصادرة الاقباط في كنائسهم ومنازلهم واملاكهم ودياراتهم ومقنناتهم ولا باستبدال لغتهم القبطية في دواوين الحكومة ومسالحها واعمالها الكتابية والحسابية باللغة العربية من ايام الامير عبد الله (سنة ٧٠٤ م) بل زاد الطين بلة . فأمر بمحو هذه اللغة محوا تاما وازالة كل اثر لها وذلك ليجتال التحدث بها في البيوت والطرق ومعاينة كل من يستعملها بسقط لسانه واقتدي بها الحاكم في مطاوعة اللغة القبطية كيبون من خلفائه . (١)

ونحن نرى انه لم يوجد في المصادر التاريخية المختلفة ما يشير الى ذلك صراحة في عصر الحاكم بامر الله او عصر غيره من حكام مصر المسلمين . ولعل هذا الكاتب القبطي اعتمد في اتهامه هذا على موقف الحاكم بامر الله الشديد من القبط والزامهم ببعض الاحكام القاسية في عصره . وايضا لعله بنى رأيه هذا على ما نسب به بعض المؤرخين القبط الى هذا الخليفة من انه عرض على بعض القبط الاسلام وانه الحق بهم كثيرا من صنوف المذاب والارهاب في سبيل ذلك فقرأى انه لا بد انه قام بمثل ذلك في سبيل ترك القبط لغتهم وسيادة اللغة العربية بينهم ففسى الحديث والدراسة وغيرها .

(١) بانوب جشمى : اللغة القبطية بين الكنائس والاديرة ص ١٧ (رسالة

مارينا سنة ١٩٤٧ م) .

ويشير بعض الكتاب المحدثين ايضا الى انه في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلادى) ظهر نشاط فهب بين القبط ذلك انهم ارادوا ان يحتضروا بقوميتهم ويحفظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فسمى دير منى مقار الا ان حركتهم هذه باءت بالفشل فى القرن التالى - اى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لان اللغة القبطية كانت تتقهقر امام اللغة العربية وكراقبال الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية الى اللغة العربية . كما انه بعد القرن الرابع الهجرى (الماشر الميلادى) كان رجال الكنيسة يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت الكتب الدينية باللغة العربية . (١)

وعليه يبدو ان مقدرة القبط على فهم اللغة العربية وتعلمها وهى لغة حكامهم المسلمين واهلهم اللغة القبطية قد ادى تدريجيا وبمرور الوقت الى فقدان اللغة القبطية لاهميتها كما ان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمون اللغة القبطية فى حد يشهم ولا فى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية مما ادى الى نقص اهمية اللغة القبطية ثم اختفائها تماما فى مصر . (٢)

وتطور الامر بعد ذلك الى ان صار القبط يستخدمون اللغة العربية الى جانب اللغة القبطية فى الكنيسة فقد قرئ تقليد القس انبا مقارة بطريركا فى كنيسة المحلقة فى عهد الخليفة الفاطمى الامير باحكام الله . باللغات اليونانية والقبطية والعربية . (٣) وفى القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) امر البطريرك انبا غبريال القس بقراءة الصلوات والعزائم الدينية باللغة العربية - السائدة آنذاك . كما عني ايضا بترجمة جميع الكتب والطقوس الدينية الى اللغة العربية حتى يفهمها عامة الشعب جميعا . (٤)

-
- (١) محمد كامل حسنين : ادى عصر الاسلامى ص ٣٢ - ٣٣
 (٢) Quatremere: Recherches Critique et Historique sur la langue.
 (٣) ابن المقفع : سيرة الابرار البطارقة م ٣ ج ١ ص ٤٠ و ٤١
 Synaxaire Arabe Jacobite, T.1. P.16.
 (٤) Chronique de Michel le Syrien, T.3, fasc.2.P.235,
 et Meinardua: Christian Egypt. P.108, and
 Butler: Ancient Churches, T.2. P.252.

ومع ذلك استمرت اللغة القبطية معروفة لدى بعض القبط حتى عصر السلوخ
ابو صالح الارمنى (فى القرن السادس الهجرى) فكان من عادة سكان اسكندرية
ان يصعدوا الى القبط بالفتاء فى افواههم باللغة القبطية الصعيدية. (١) ويؤكد
ذلك ايضا ان ابا الفخرين ازهر الذى ترك دينه اليهودى واعتنق المسيحية (فى
القرن السادس الهجرى) قد تعلم اللغة القبطية بطلاقة. فكان يجادل اليهود
باللغة العبرية ويفسر للقبط باللغة القبطية. (٢) وذلك يدلنا على بقاء اللغة
القبطية بين القبط يتحدثون بها ويتدارسون بها ايضا حتى ذلك المصير
وما بعد.

وتم فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر
الميلاديين) ترجمة كتب الطقوس الدينية الى اللغة العربية لتكون بجانب
النسخ القبطية لها. (٣) وحتى عصر المماليك القريزى (القرن التاسع الهجرى
- الخامس عشر الميلادى) كان القبط مازالوا يتكلمون القبطية فى الاديرة حول
اسيوط. (٤)

والواضح ان المصادر التاريخية المصرية قلما تشير الى انتشار اللغة
العربية بين اليهود - وذلك بعكس ما لسناء بالنسبة للقبط - ولعل ذلك

(١) ابو صالح الارمنى ص ١٢٩ و Butler: Op. Cit., P. 252.

(٢) ابن القفج: سير الالباء البطارقة م ٣ ج ١ ص ٥٢.

(٣) Meinardus: Christian Egypt. P. 108, and Butler: Op. Cit., P. 252.

(٤) القريزى الخط ج ١ ص ٤١٦.

وقول ان نصارى قرية ادركوا كانوا فى عصره يتقنون القبطية
ويفسرون بها أمور دينهم.

كان واجما كما ذكرنا مرارا الى قلة عدد اليهود في مصر بالنسبة لعدد القبط .
ويقول المقدسي (١) عن سكان مصر واهل الذمة بها خاصة " وعامة ذمته نصارى و
يقال لهم القبط ، ويهود قليل "

والرغم من ذلك نجد اشارات في بعض المصادر الحديثة المعتمدة على
الوثائق العبرية (وخاصة الـ Cairo Geniza) تؤكد ان اللغة العربية
قد انتشرت بين اليهود ايضا شأنهم في ذلك شأن القبط كما انها اصبحت لغة
الدراسة والعلم بينهم . ويؤكد ذلك ان سعيد بن يوسف الفيومي -
Seadia B. You-ssif. يقال له ايضا Seadia Hagounssif الذي عاش في الفترة ما بين سنتي ٨٩٢ - ٩٤٢ م
(اى في القرنين الثالث والرابع الهجريين) كان اول من نبغ في الدراسات العلمية
والادبية من بين اليهود ووضح هذا العالم اليهودي كثيرا من المؤلفات باللغة
العربية بل انه ترجم التوراة الى اللغة العربية مع التعليقات والشرح حتى
يسهل فهم عامة اليهود لها . (٢)

ولاشك ان ذلك يدل على ان عامة اليهود كانوا في ذلك العصر يتحدثون
بالعربية بحيث اصبحت يصعب عليهم فهم العبرية . فقام هذا العالم اليهودي بترجمة
التوراة وشرحه بالعربية لغة عصره . ولم يقتصر الامر على ذلك بل نراه يعمل مجسما
لقواعد اللغة العبرية وجمل فيه ما يقابل العبري باللغة العربية . (٣) حتى
يكون في متناول الجميع .

وقد عاصر هذا العالم اليهودي عالم يهودي آخر يسمى اسحق بن سليمان
الاسرائيلي وقد نبغ في الطب والفلسفة ، وألف كتبه في هذه الميادين باللغة
العربية ايضا ثم رحل من مصر الى المغرب ليحمل في خدمة الخلفاء الفاطميين
هناك . (٤)

(١) احسن التقاسيم ص ٢٠٢

(٢) Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115.

(٣) Ibid. P. 115, et The Itinerary of Benjamin, T.2. P. 244.

(٤) Maurice Fargon : Op. Cit., P. 115.

وهكذا انتشر الاسلام بسرعة عظيمة في مصر وصار دين الاغلبية المظلمة بين سكانها ، كما انتشرت اللغة العربية وصار لها السيادة اللغوية ثم أصبحت لغة جميع سكان البلاد المصرية ، في المعاملات المياسية والتجارية وفي الحياة الاجتماعية . كما استخدمها القبط في كتاباتهم بدلا من اللغة القبطية ومن ثم اندثرت اللغة القبطية حتى صار يعجز عن فهمها عامة القبط ولا شك في ان ذلك كما تذهب بعض المصادر الحديثة كان ميزة من مميزات العربية على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التي توالى على مصر قبل الفتح العربي لها لم تستطع القضاء على لغة المصريين كما حدث بالنسبة للعرب (١)

الخاصة بالفردوسي

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٦٠

واذا قارنا ما حدث في مصر بما حدث في غيرها من البلاد المفتوحة نجد ان فتح العرب لايران مثلا والهند لم يقض على لغتها القومية ولم يقض على المقامات الدينية فيها عند الفتح قضا تاما ولم يمنع اعتناق الاثراك الدين الاسلامي من احتفاظهم بلغتهم القومية والاندلس التي كانت تزدهر فيها الحضارة الاسلامية بعد فتح العرب لها تغلب على امرها في اواخر المصور الوسطى وتمود ثانية دولة مسيحية الدين بعيدة عن اللغة العربية انظر نفس المصدر ص ٢٦١-٢٦٢

٦- أثر سياسة الضرائب في انتشار الاسلام والتعريب

يأتى في مقدمة الضرائب الجزية والخراج • وقبل ان نخوض في البحث في هاتين الضريبتين وغيرها ، يجدر بنا ان نمعرف كلا من اللفظين فالجزية هي ضريبة الروس اما الخراج فهو الضريبة العقارية المفروضة على الارض • (١) وقد كان لهاتين الضريبتين اثرهما في ابعاد انتشار الاسلام والتعريب في مصر

ويرى فان بوش Van Berchem ان كلمة خراج يقصد بها الضريبة المقابلة وايضا جزية الروس وانها احيانا تطلق على ضرائب اخرى تختلف في طبيعتها عن هاتين الضريبتين • (٢) بينما يرى فلها وزن ان لفظي خراج وجزية كانا لفظيين مترادفين ولم يعتمد مدلولهما معنى اتاوة Tribute وان العرب لم يميزوا بين ضريبة الارض وضريبة الرأس الا منذ سنة ١٢١ هـ • وكان من اشد المتحمسين لرأى فلها وزن ، بكر G.H.Becker ويذهب بكر الى ان العرب في مصر طلبوا اتاوة نقدية ، يحسب مقدارها بمعدل دينارين عن كل فرد من الرجال الى جانب اتاوة عينية تضاهي ضريبة القمح Embolé في عهد الرومان وكانت هذه الاتاوات تجمع بواسطة المصريين طبقا للنظم البيزنطية - التي ابقى عليها عرب بن المصاح دون تغيير يذكر - ويضيف بكر الى ذلك ، ان جزءا من هذه الاتاوة كان يأتى عن تطبيق ضريبة الرأس البيزنطية القديمة • (٣)

ثم يقول بكر انه لما كان العرب هم الذين يتصلعون الضرائب دون القيام بجسمها او ثقلها فهم لهذا لم يميزوا بأي شكل من الاشكال بين ضريبة الارض وضريبة الرأس • وانه قد حدث اول تحول عن هذا النظام في ولاية عبد العزيز بن سنان عندما فرض ضريبة وأي على الرهبان بمعدل دينار على كل منهم وذلك المسمى

أرض

- (١) واسم الجزية مشتق من الجزاء اما جزاء على كفرهم لاخذها منهم صفارا لهم واما جزاء على ايمان المسلمين لهم لاخذها منهم رققا • اما الخراج فهو كراة الارض وليس فيه صفارا ولا ذلة لاهل الذمة كالجزية وكانت كل من الجزية والخراج حسب طاقة اهل الذمة • انظر في ذلك الماوردي الاحكام السلطانية ص ٣٧ - ١٣٩ ابن القلاء : الاحكام السلطانية ص ٣٧ - ابو عبيد : الاموال ص ٤١ - ٥٢٣ الشافعي : الام ج ٢ ص ٣٢٠ - وغيرها من كتب الفقه والخراج •
- (٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٧
- (٣) داهلي دينيت : الجزية والاسلام ص ٣ - ٣٢

جانب ما كان يجمعه الموظفون المصريون ، ويعد اعضاء المكان الذى قام به عيسى
الله بن الجعظ ادخل عند ذلك النظام الحقيقى لضريبة الارض وضريبة الرأس ، أى
الخراج والجزية . ويستند فى ذلك الى ان كلمة خراج لم تذكر فى اية بردية يرجع
تاريخها الى القرن الاول الهجرى فى مصر . (١)

والحقيقة اننا كثيراً ما نجد خلطاً فى المصادر التاريخية فى استعمال لفظى
الخراج والجزية . فنرى احياناً لفظ الجزية يعنى ضريبة الارض وضريبة الرأس معاً . كما
اننا نجد احياناً لفظ الخراج يعنى الضريبتين معاً ، او جميع ما يجبى من اهل
الذمة من الضرائب نذكر من الامثلة على ذلك ابن عبد الحكم الطرخ المصرى المسلم
فهو يستعمل لفظ الجزية احياناً بمعناه الدقيق فيقصد به ضريبة الرأس واحياناً
يستعمله للدلالة على كل الضرائب المفروضة على الذميين . كما انه يستعمله ايضاً
احياناً للدلالة على الخراج دون غيره من الضرائب . كما يستخدم لفظ خراج بمعنى
ضريبة الرأس . (٢)

بينما نجد الطرخ القبطى ساويرس يقصد احياناً بلفظ الخراج الضرائب عامة
وكثيراً ما يستعمله بمعناه الدقيق — أى ضريبة الارض — اما لفظ الجزية فلم يستخدمه
على الاطلاق الا بمعناه الخاص وهو ضريبة الرأس . (٣)

الجزية :

اما عن الجزية ، وهى ضريبة الرأس ، فنجد المصادر التاريخية العربية المختلفة
تجمع على وجودها فى مصر الاسلامية حيث يلتزم بدفعها اهل الذمة . ويناقش دانييل
دانيت بمضراً فى الكتاب المحدثين فى ذلك فيشير الى ان الطرخ كايثانى يرفض
وجود مثل هذه الضريبة بينما يصفها بكرى بأنها حقيقة تاريخية وان كان يرى ان ضريبة
الدنيايين على كل فرد معدل نظرياً استعمله عمرو بن العاص ليحسب به ما أراد ان

- (١) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ٣٦
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٩ — ٢١٠
(٣) ابن القلق : سير الالباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٣ — ١٤٥ م ٢ ج ١ ص ٣

تم نسخ صفحتين
حتى ص ١٠٢
ما عدا فقرة
بالبحث ؟

يحصل عليه من ايراد * وان الدخل الذى يودى منه الافراد ضريبتهم كان يأتى من
اوجه نشاط مختلفة حسب عمل كل فرد منهم ولكن الغالبية المظلمة من المصريين
كانت تعمل فى الزراعة وذلك كان ما يدفعه القبط من ضرائب من ايراداتهم من
فلاحة الارض وعليه فان ضريبة الدينارين كانت اناوة شملت الضرائب من جميع الانواع
التي كانت تجبى من المصريين وان ضريبة الرأس كانت جزءا من اناوة وانهم
ضريبة ضئيلة لا اثر لها تقريبا فى حيلة الايراد * (١)

ونحن نرى انه من الحسير قبول ما ذهب اليه بكر بشأن الجزية فى مصر ونقول
ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب وانها تتضمن نسبة كبيرة لها
شأنها فى مالية البلاد المصرية - كما سنرى - ونستدل على رأينا هذا بما جاء
فى النصوص المختلفة بشأن الجزية وضريبة الرأس والتي جاء فيها ان الجزية او بمعنى
اخر معدل الدينارين لم يكن شاملا لجميع الضرائب التي التزم الذميون فى مصر
بأدائها للمغرب ويؤيد ذلك ايضا كثير من اوراق البردى ويجد ربنا الاشارة
الى النصوص والصهود المختلفة التي تضمنت فرض الجزية وغيرها من الضرائب على
المصريين *

* فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر
اعلاها واسفلها من القبط دينارين دينا ريق * عن كل نفس شريفهم ووضيعةهم ومن
بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ القانسي ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم * ولا على
النساء شى * وعلى ان للمسلمين عليهم النزل لجناحتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه
ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم *

(١) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦-١٢٧ *
ويشير الى ان كل من فلها وزن وبكر ان ضريبة الرأس او معدل الدينارين عبارة
عن اناوة وليست جزية رأس والواقع انها ضريبة تجبى على الفرد تبدو وكأنها
ضريبة رأس ولكنها غيبية بها ويفسر بكر ذلك بان العرب لم يكن لهم شأن
بالارض وان علاقاتهم كانت بالناس الذين يودون الضريبة - ولا ان هذا يودى
الى الارتباك والحيرة ولذا أخذ على سبيل القياس مثلا من حياتنا الحضرة
فنقول ان رسم الانتاج على الطباق او التعريفات الجمركية على السكر شبيهة
بضريبة الرأس بمعنى ان الفرد يدفع نقودا بالفعل فى الاجراءات العملية
لفرض الضرائب * نفس المصدر ص ١٢٧

وان لهم ارضهم وأموالهم • لا يتعرض لهم في شيء منها • فشرط هذا كله على القبط خاصة واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية • وفرض عليهم الدينارين • رفع ذلك عرفاؤهم ^(١) بالايمان المؤكدة فكان جميع من احصى يومئذ بمصر اعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصوا وكتبوا ورفعوا اكثر من ستة الاف الف نفس • وكانت فرضتهم يومئذ اثني عشر الف دينار في كل سنة • ^(٢)

ويذكر البلاذري ^(٣) ان عمرو بن العاص لما عقد صلح نابليون ففرض على كل بالغ من القبط دينارين الا ان يكون فقيرا وان يدفع ملاك الاراضى منهم الى جانب الدينارين ثلاث اداد خنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل • رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم بينهم • وان يقدموا لكل مسلم جبة صوف وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين في كل عام • ويجوز لهم ان يستبدلوا الجبة الصوف بثوب قبطى • وفى مقابل ذلك يكون لهم الامان على اموالهم واعمالهم ولا تسبى نساؤهم واولادهم •

كما جاء في الامان الذى منحه عمرو بن العاص لقبط مصر • • • وعلى اهل مصر ان يسطروا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ما جنى لصوتهم فان ابى احدا منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم • وذمتنا من ابى بريقته وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك • ^(٤)

(١) المصنف هو العالم بالشئ • ومن يعرف اصطبه ويذكر دى ساس De Sacy

ان المصنف معناه الكاتب وهى مقابلة للكلمة اليونانية جرافى كاتب • انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام حاشية ص ٣٧

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٤-٢٥ اما تكرار كلمة دينارين فلعل ذلك يعنى ان كل رجل من القبط سيدفع اربعة دنانير لان عمرو بن العاص قد اغنى القبط من دفع الجزية سنة الفتح على ان يؤدونها في السنة التالية • ويؤيد ذلك رواية الواقدي (فتوح الشام ج ٢ ص ٨٤) وتتضمن ان عمرا قال للقبط عندما تسلم الحصن • • • اناكم على انفسكم اولادكم وحريكم منه منا عليكم وقد وضعت عنكم الجزية هذه السنة وفي السنة الاتية تأخذ منكم من كل محتلم اربعة دنانير • • •

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٦

ويقول ابو صالح الارضى (١) " ملك عمرو الحصن وفتح عتوة واستباح ما فيه
وأمن اهله على انهم ذمة ووضع عليهم الجزية والخراج في ارضهم . وان صاحب النوبة
اى الفسطاط قرر على كل عالم دينارين وهى سبعة وعشرون درهما الا ثلثه الا ان يكون
الظلم فقيرا . والتزم كل غنى موسر فى كل سنة بدينارين وثلاث ارباب حنطة . . . وكان
عدد القبط بمصر دون الشيخ الكبير الماحز والفتى الذى لم يبلغ الحلم . ستة الاف الف
نفس وكان المحمول من جهتهم اثنا عشر الف دينار خارجا عن جزية اليهود بمصر
واعمالها وحمل الى عربين الخطاب وهو اول مال حمل اليه من مصر .

كذلك جاء فى عهد الصلح التى عقدتها عمرو بن العاص مع بعض المدن المصرية
مثل اخنا ورشيد والبرلس ان يفرض على كل قبطى جزية دينارين الى جانب
ارتاق المسلمين . (٢)

نستخلص من هذه الروايات المختلفة التى نصت على اداء المصريين الجزية
ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب التى فرضها العرب على المصريين
وان معدلها الذى اشارت اليه هذه الروايات لم يكن شاملا لجميع الضرائب . وان
هذه الضريبة ضريبة رأس كالتى كانت فى مصر البيزنطى من قبل وتسمى :
(٣) . Andrismos or diagra-
phon

والى جانب ذلك كان لا يدفع الجزية الا الرجال البالغين القادرين بينما
يخفى منها الفقراء والشيخ المجزة والنساء والاطفال ويبدو ذلك ما كتبه الخليفة
عربى الخطاب الى عمرو بن العاص " . . . ولا يضربوا الجزية الا على من جرت

(٤) = الطبرى : تاريخ الام والملوك ج ٢ ص ١٦٩ - ٢٠٠ - ابو المطسن : النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، القلقشنلى : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٢٤ .
تحصيل الاستيفاء فى مخازى المصطفى ورقة ١١٠٩ ب

(١) تاريخ ابو صالح ص ٢٨ - ٢٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٧ - ابو عبيد : الاموال ص ١٤١
ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٦٤

(٣) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٩

عليها المواسي (١) ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان . . . (٢).

نستخلص من الروايات التاريخية السابقة أيضا أن مقدار الجزية الذي ألزم به المصريون كان متساويا بين الجميع وهو دينارين . والواقع كما يقول بعض الكتاب المحدثين أنه لو كان العرب ظلموا أهل الذمة في مصر على هذا الأسس أشار المصريون عليهم منذ السنوات الأولى للفتح . وكان العرب قد عادوا بذلك إلى ظلم الرومان وعسفهم وكانت حكومتهم - أي الحكومة الرومانية تمضي ذوى النفوذ والثراء من الأعباء العالية أو على الأقل من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان كما أن هذا لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة التي كانت ترمي إلى التقرب إلى أهل البلاد المفتوحة وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف ، وإنما بحسن السياسة . (٣)

والواقع أن مقدار الجزية الذي ألزم به أهل الذمة في مصر كان يتناسب وثروة الذمى وما له من دخل وأنه لم يكن واحد بالنسبة لجميع الذميين وذلك أسوة بأهل الذمة في البلاد الإسلامية الأخرى . ونرى الفقهاء يجمعون على أن الجزية كانت تتناسب وثروة الذمى وسواء كان من القبط أو اليهود وكانت الجزية على ثلاث مستويات الموسري يؤدى ثمانية وأربعين درهماً والمتوسط الحال أربعة وعشرين درهماً أما من دون هؤلاء فميدفع اثنا عشر درهماً كجزية رأس . (٤)

(١) المواسي : جمع موسى والمواد هنا من بلغ الظم من الرجال

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والعرب ص ٢٠٥
وكان ذلك هو حكم الجزية في الإسلام في البلاد المفتوحة كلها .
انظر أيضا : آدم القرشي : كتاب الخراج ص ٧٢

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٣٨

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٢ - ١٢٤ - ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة
ق ١ ص ٢٦٧ - ٢٧٧ ابن القراء : الأحكام السلطانية ص ١٣٩ - الشعراوى : الميزان
ج ٢ ص ١٤٥ - الألبشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف ج ١ ص ١١٢

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يأخذ من صالحه من المأهدين ما سقى
على نفسه لا يضح من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ومن نزل منهم على الجزية • ولم يسم
شيئا نظر عمر في امره فاذا احتاجوا تخفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر
استغنائهم • (١)

ويبدو من بعض الاحداث التاريخية ان العرب عند فتحهم لمصر لم يحددوا
الجزية تحديدا نهائيا وانما اهتموا بفرضها وتركوا تحديد ها للوالي او الخليفة •
كما يتضح ذلك ايضا من نص معاهدة بابليون • فقد حدث ان جاء الى عمرو بن
المصعب الفتح طلعا صاحب اخنا وسأله عما عليهم من جزية حتى ينظموا شئونهم •
فأجابهم عمرو وهو يشير الى ركن كريمة : " لو اعطيتني من الارض الى السقف •
ما اخبرتك ما عليك انما انتم خزنة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم • وان خفف عنا خففنا
عنكم " • (٢) • اى ان عمرو بن المصعب لم يحدد مقدار الجزية المقررة على المصريين
عند الفتح ويمكن القول ان مقدار الدينارين التى اشارت اليه بعض النصوص التاريخية
انما كان عقب الفتح وليس عند عقد الصلح كما ان معدل الدينارين لم يستمر طوال
تاريخ مصر الاسلامية كما سنرى •

وتؤكد اوراق البردى المختلفة ان الجزية فى مصر كانت تتناسب فى الواقع
مع ثروة الذى وان مقدار الجزية المفروض على اهل الذمة لم يكن متساويا بين
الجميع ففى كتاب من قرة بن عريك الى صاحب كورة اشقوه نجده يأمره فيه بان يرسل
كشفا بالاماكن المختلفة يحدد الرجل فى كل مكان وما عليهم من جزية واملاك كل
منهم من الارض وما يباشرونه من الاعمال ويطلب ايضا من صاحب الكورة الا يوجد اى
مجال للشكوى او للاستياء منه • ويذكره بانه مصمم على مكافأة من يسير سيرا
حسنا ومماقبة من يتنكب عن طريق المدل • (٣)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧

(٣) H.I. Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum. PP. 272-273

ونما على ما جاء في هذا الكتاب فانه لو كان كل ذي بدفع جزية مساوية لما يدفعه الاخر لما استدعى الامران يطلب والى مصر من صاحب هذه الكورة كشفنا بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وما عليه من جزية . ولما طلب من صاحب الكورة ان يكون عادلا في عمله ولما هدده اذا هو لم يتبع طريق الحق ، او اوجد اى مجال للشكوى او الاستياء من جانب اهل كورته . وانه لو كانت الجزية متساوية بالنسبة لجميع الذميين لاكتفى الوالى بمعرفة عدد الرجال ، وبذلك يتمكن من معرفة مقدار الجزية الواجبة عليهم . (١)

بدلنا على ذلك ايضا كتاب آخر لقرة بن شريك يطلب فيه من صاحب الكورة ، ان يمدل في تقرير الضرائب الواجبة على كل فرد وان يسهل عليهم الاتصال به كى يسمح ما يقولون . (٢) كما حفظت لنا اوراق البردى ايضا كشفا دونت فيها اسماء اشخاص مختلفين ترجع هذه الكشوف الى القرن الثالث الهجرى . وقد ذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل منهم . ونلاحظ فيها اختلاف ما يؤديه كل شخص وقلمنا نجد شخصين يدفعان جزية متساوية فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا وثلاث وثالث يؤدى ربع وثمان دينار وهكذا . (٣)

وتؤكد اوراق البردى اليونانية ان ضريبة الرأس كانت تتفق ومدى يساير دافع الضريبة وانه لتسهيل عملية التقدير كان العرب المسلمون يحسبون دافسح اقل او اكثر من رجل كامل . وان المعدل الذى تقرر لضريبة الرأس كان ديناران لمتوسط دفع الضريبة وهو الرقم الذى ذكره المؤرخون المسلمون .

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام .

(٢) Bell : Op. Cit. PP. 280 - 282.

(٣) جروهان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٩٢-١٩٩

وهكذا اجبر المرب المسلمون بعض الرجال انهم اقل من رجل كامل او اكثره وذلك حتى يمكنهم ان يعدوا بين الغنى والفقر في اداء ضريبة الرأس على اساس معدل الدينارين للرجل الموسر منهم . وعليه اجبر دافع الضريبة في السطر الثالث ثلثي رجل فادى ضريبة رأس مقدارها دينار وثلثه . ذلك لان متوسط الضريبة دينارين للرجل الكامل . وفي السطر الحاشي اجبر دافع الضريبة نصف رجل ولذلك ادى نصف المعدل اى دينار واحد . وفي السطر الاخير اجبر دافع الضريبة خمسة امداس رجل وعليه ادى دينار وثلثي دينار . وهكذا . . .

كما تشير اوراق البردى الى ان كثيرا من الولاة في مصر كانوا يميلون الى توخي المعدل في جباية الجزية وعدم مطابقة شخص دون اخر او التساهل مع احدهم وعدم التساهل مع الاخرين ويدلنا على ذلك ما جاء في احدى البرديات اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني :

"خوفا من الله ، وحفظا للمدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم ترتب ناظرا بما وانه اربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم في جمع الضرائب فاذا فرغوا من ذلك فابحث الينا بمكلفه شاملة للتفاصيل المتعلقة بالمبلغ المطلوب من كل واحد منهم مبينا في هذه المكلفة اسما الاشخاص الذين جمعت منهم هذه الجزية المقررة ومكان اقامتهم ولا تجعلنا نعرف انك قد خدمت اهل كورتك باى صورة من الصور في مسألة الضريبة التى كلفت بها . او انك طببت او ظلمت احدا ما في جمعها . لاننا نعرف ان الاشخاص المكلفين بدفعها لابد وان لا يطيعوا بعضنا وامنك . فاذا وجدت انهم قد ظلموا احدا ما بلين زائد نتيجة مطالباتهم اياه او اثقلوا عليه غاية الاثقال لكراهيتهما اياه فاننا ينقص منهم في اشخاصهم واملاكهم تنفيذا للشرع . ومن انذرهم وحذرهم واخبرهم ان لا يرهقوا عاملا والا يخطو له لا يطيق حتى ولو كان بعيدا عنهم او ليس من زمريتهم في جمع الضرائب ولكن يجب محاولة الجميع بالمعدل واخذ الشئ من كل منهم بقدر طاقتهم ورجاء هذه الضريبة بان يبدأوا باتفاق مسدون يبينون فيه انه اذا ثبت بعد التحصيل انهم كلفوا احدا فوق قدرته وخفقوا عن احد تماما فانهم يتحصلون جميعا سد النقص فيما بينهم بالتساوى وسيكونون عرضة الى جانب ذلك للعقاب الشديد جزاء عدم انصافهم لامرنا ويجب ان يرسل الاتفاق

المذكور الينا برفقة المكلفة المشتعلة على ماقرر على كل شخص . (١)

والواضح من اوراق البردى ومن الروايات التاريخية المختلفة ان الجزية في مصر كانت تدفع نقدا بالدينار وكمور الدينار وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ماورد في قطع الاوستراكا (٢) وفي اوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية باسم دمريا اما في اوراق البردى المصرية فتعرف باسم الجزية . (٣)

الخزاج :

اما ضريبة الخزاج فاننا نتساءل من قبل الحديث عن هذه الضريبة وماكان من شروطها ومقدارها وكيف كانت تجبى — هل صرفت تحت صلح أم غوة ؟؟ (٤)

- (١) تروتون : اهل الذمة في الاسلام ص ١٥٤ — ١٥٥
- (٢) قطع من الفخار والاحجار كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ولا سيما الاغريق والفراعنة والقبط واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية . انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ط ٢٧ .
- (٣) نفس المصدر ص ٤١
- (٤) ولهذا التساؤل اهمية عظيمة لان حكم البلاد المفتوحة صلح يختلف عن حكم البلاد المفتوحة غوة اى بالقوة والقهر . ذلك ان الاراضى التى يتسم فتحها صلح يعتقد المهد والامان تكون فيض للمسلمين . والفى هو ماصولح عليه المسلمون من الجزية والخزاج . فاذا كانت مصر فتحت صلح وتهدد بين المسلمين والمصريين عقد بدون قتال يفتق المصريون مع العرب على مقدار الجزية والخزاج التى تدفع للمسلمين دون التمرض لارضى المصريين او اخذها منهم قهرا او غوة . اما الاراضى التى تفتح غوة فتصير غيصة تقسم بين الفاتحين وذلك عملا بالاية الكريمة — سورة الانفال آية ٤١ . (واعلموا ان ما غنم من شىء فان لله خمس وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) وعلى هذا فان خمس ما غنم الفاتحون يكون لمن ساءهم الله سبحانه وتعالى لا يكون لمساوهم ويكون للاسام تقسيمه قيم من حضر منهم بحد ان يجتهد وايه ويتجرى المدل . اما الاربعة اخماس الاخرى فتكون للمسلمين الفالبيين وتقسم بينهم بالتساوى وعلى هذا الاساس اذا كانت مصر فتحت غوة فانها تصبح غيمة للعرب وتصبوا لارضى مصر ملكا للمسلمين . انظر يحيى بن آدم القرشى : الخزاج ص ١٧ — ١٨ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٤٢

نلاحظ اختلاف الروايات التاريخية بشأن الاجابة عن هذا التساؤل . واختلف الامر على المؤرخين انفسهم مثل ابن عبد الحكم (١) والمقريزي (٢) وابو المظن (٣) والسيوطي (٤) فنجد كل مؤرخ من هؤلاء يذكر بعض الروايات التي يذهب اصحابها الى مصر قد فتحت جميعها صلحا الا مدينة الاسكندرية وبعض المدن والقرى المجاورة لها بينما يشيرون الى روايات اخرى تتضمن ان مصر قد فتحت حوة .

احدها

اما المجموعة الاولى من الروايات فقد جاء في احدها : " ان عمرا لما فتحت الاسكندرية بقي من الاسارى بها من بلغ الخراج . وأخسى يومئذ ست مائة الف . سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو فقس قسمهم . فكان اكثر المسلمين يريدون قسمها فقال عمرو : لا اقدر على قسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين . فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها وان المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر : لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيطو للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم . فأقرها عمرو وأحصى اهلها وفرض عليهم الخراج . ففتحت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين على كل رجل لا يزداد على احد منهم في جزية رأسه اكثر من دينارين الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع الا اهل الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت حوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة . " (٥)

ونحن نرى ان فتح الاسكندرية حوة كان في المرة الثانية عندما حاول الرومان استردادها من ايدي المسلمين في سنة ٦٥ هـ بينما كان قد تم فتحها صلحا فمضى باديء الامر كما جاء في كتاب حنا النقيوسي . (٦) وعقد عمرو بن العاص صلح سكان المدينة الصلح .

(١) فتح مصر واخبارها ص ٢٤-٨٢

(٢) الخطط ج ٢ ص ٧٢-٧٤

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩-٢٠

(٤) حسن المطهرة ج ١ ص ١٢٥-١٢٩

(٥) ابن عبد الحكم : فتح مصر واخبارها ص ٢٦

Chronique de Jean. P. 455.

(٦)

كما تشير بعض الروايات من هذه المجموعة ه الى عقود صلح مع كثير من المدن المصرية — وهى المدن التى صالح عمرو اهلها على صلح شبيه بصلح بابليون ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس (١) والقيوم واخميم والبشرودات وقسرى الصعيد وسائر مدن الوجه البحرى فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت ارضها ارض خراج (٢) وكان لهم فى عهدهم ستة شروط * ان يؤخذ من ارضهم شئ ولا يزداد عليهم ولا يكلفون غير طاعتهم ولا يؤخذ ديارهم وان يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم (٣)

اما المجموعة الثانية من الروايات التى يرى فيها روايتها ان مصر فتحت عنوة فتستند فى ذلك الى عدم وجود اى عقد او عهد بين المسلمين الفاتحين وبين المصريين سكان البلاد وقد جاء فى بعض هذه الروايات ان عمرو بن العاص كان يقول : " لقد تعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبلى مصر على عهد ولا عقد ان شئت قتلت وان شئت بعت وان شئت خست " (٤)

ومهما اختلفت هذه الروايات التى غضبها المؤرخون كتبهم فقد اجمع هؤلاء المؤرخين على ان مصر قد عولت معاملة البلاد المفتوحة صلح ففرض العرب الفاتحون الجزية على الرؤس والخراج على الارض وقد حدد صلح بابليون مصر مصر السياسى — كما ذكرنا من قبل — وهكذا كما تذهب بعض المصادر — الحديثة — بالرغم من ان مصر قد فتحت عنوة فان العرب فى نفس الوقت قبلوا عقد الصلح مع المصريين لانهم اعتبروا انفسهم مطربين للرومان لا المصريين * كما انه عند فتح العرب الاسكندرية فى سنة ٢٥ هـ عنوة كان انتصارا على الرومان وعلى امراء طورهم قسطنطين الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى اعطاه العرب للمصريين (٥)

- (١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٧٧
- (٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٨
- (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٧٨ — وناه على ذلك رفض وردان عامل الخراج فى مصر فى عهد الخليفة لا موى معاوية بن ابي سفيان — ان يزيد على كل رجل من القبط قبطا كما امره الخليفة وقال : كيف تزيد عليهم وفسى عهدهم ان لا يزداد عليهم شئ *
- (٤) ابو عبيد : الاموال ص ١٤٠ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٨
- (٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٤

ويؤيدنا في ذلك ما ذكره البلاذري (١) في رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص
 فقال : " اهتم به على الناس امر مصر ، فقال قوم : فتحت غزوة • وقال اخرون : فتحت
 صلط • والثلج (٢) وفي امرها ان ابي قديمها فقاتله اهل البيوت (٣) فتفتحها قهرا
 وادخلها المسلمين • وكان الزبير اول من علا حصنها • فقال صاحبها لعمرو : انه قد
 بلغنا فملككم بالثام وضمكم الجزية على النصارى واليهود واتراكم الارض في ايدي
 اهلها يعمونها ويؤدون خراجها • فان فسلمت بنا مثل ذلك كان ارد عليكم من قتلنا
 وسبينا واجلاتنا • قال : فاستشار ابي المسلمين فاعا روا عليه بان يفعل ذلك الا نفر
 منهم • سألوا ان يقسم الارض بينهم • فوضع على كل طلم دينارين جزية الا ان يكون
 فقيرا • والنز كل ذي ارض من الديار ثلثة ادادب خبطة وقسطى زيت وقسطى عمل
 وقسطى خل رتقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم • وأحصى المسلمين
 فالزم جميع اهل مصر لكل رجل منهم • حبة صوف ورنسا (٤) او عامسة
 وسراويل (٥) وخفين في كل عام او عدل الحبة الصوف ثوبا قبطيا • (٦) وكتب
 عليهم بذلك كتابا وشرط لهم اذا وفوا بذلك ان لا تباع نساؤهم وابناؤهم ولا يبيعوا •
 وان تهراموا لهم وتوزعهم في ايديهم فكتب بذلك الى امير المؤمنين عمر فاجازه وصارت
 الارض ارض خراج الا انه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس انها فتحت
 صلط • قال : ولما فرغ ملك البيوت من امر نفسه ومن معه في مد يده صالح من جميع
 اهل مصر على مثل صلح البيوت فرفضوا به • وقالوا : هؤلاء الممتعون (٧) قد

(١) فتح البلدان ص ٢١٦-٢١٧

(٢) الثلج ما تطمئن اليه النفس وترتاح له وتشربه — سيدة كاشف : مصر في فجر
 الاسلام — حاشية ص ٤٤

(٣) المقصود بها باليون

(٤) البرنس : هو كل ثوب غطاء الرأس جزء منه كما يعنى القلنسوة الطويلة
 او رداء ذو كمين يلبس بعد الحمام والمقصود هنا القلنسوة التي كان يرتديها
 المسلمون في صدر الاسلام • انظر الوسيط ج ١ ص ٥٢

(٥) السروال : لباس يغطي الجزء الاسفل من الجسم الوسيط ج ١ ص ٤٣٠

(٦) كانت الثياب القبطية ذاتة الصيت مشهورة بدقة صناعتها وارتفاع ثمنها •

(٧) امتنع عن الشيء يعنى كف عنه وامتنع بالامر اى تقوى واحصى به • والامتنع اى
 القوى الشديده • انظر الوسيط ج ٢ ص ٨٩٥ والممتعون هنا بمعنى الاقوياء •

قد رضى وقسموا بهذا ، فمحمداً أضح لا تفرش (١) لامتعة لنا . ووضع الخراج على ارض مصر فجعل كل جريب (٢) دينارا وثلاث ارباب طحاما ، وعلى رأس كل حالم دينارين . وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وهكذا ترك العرب الاراضى فى ايدى اصحابها المصريين دون التمسك بها لها وتقسيمها بين الفاتحين . ويؤكد ذلك ايضا ما جاء فى نمرالمنه او الامان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين عقب الفتح مباشرة . هذا ما أعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم وملازمهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وحرمهم ، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا يتقص . وفى رواية اخرى ، ان من الشروط التى اشترطها عمرو بن العاص للمصريين اذا ان تكون لهم ارضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شئ منها . (٤)

ويتضح لنا من رواية البلاذرى ان ضريبة الخراج فى مصر كانت قسمين : قسم يؤخذ نقدا بالدينارين . والقسم الثانى يؤخذ عينا من الحنطة والزيت والمصل والخل وغير ذلك من الوان الطعام ، يؤكد ذلك لنا ما تضمنته كثير من اوراق البردى مما يشير الى ان ضريبة الخراج كان المصريون يدفعونها نقدا وعينا .

(١) الفرش : تمنى فرش البيت والقضاء الواسع من الارض او صفارا الانعام . قال تعالى : " ومن الانعام حيلة وفرشا " . الوسيط ج٢ ص ٦٨٩ .
والقصد هنا المبنى الثانى .

(٢) الجريب : وحدة تقاس بها الارض . وهو عبارة عن عشرة قصبات فى عشرة قصبات .
المأوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ . ويقول الاب انستاس الكوملى فى كتابه النقود المصرية وطم النميات ان اهل البصرة يعرفون الجريب الى يومنا هذا .
وهو عدد هم نحو مائة نخلة ومن غير النخيل ارض صحتها هكتار والهكتار يساوى عشرة آلاف متر مربع .

سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام طائفة ص ٤٥

(٣) تاريخ الطبرى ج٢ ص ٩٩ او ما يليها . ابوالمظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٢٤ . وما يليها . القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٢٤

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٦٤

فهناك بردية تتضمن كتابا من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ الى اهل شيسرا بعيرو من كورة اشقوه يطلب فيه منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام فقط . وقد بطل فى هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم " هذا كتاب من قرة بن شريك لاهل شيسرا بعيرو من كورة اشقوه انه اصابكم من جزية سنة ٨٨ هـ مائة دينار واربعة دنانير وثلاث دنانير وثمان مائة . ومن جزية الطعام احد عشر ارب وثلث ارب قمح . وكتب راعدة فى صفر من سنة ٩١ هـ . (١) وفى بردية اخرى نجده كتاب قرة بن شريك الى اهل باكونيس من كورة افروديتى (اشقوه) يطلبهم ما اصابهم من الجزية سنة ٨٨ هـ من ضريبة الرأى وما اصابهم ايضا من ضريبة الطعام اى الخراج فى هذه السنة . (٢)

وهكذا نجد ان ضريبة الطعام فى هذه البرديات وغيرها لا بد وانها تسمى ضريبة الارض او بمعنى اخر الخراج . او جزوا منه وهو ما يدفع عينا ويسمى ترتون (٣) هذا الجزء من ضريبة الخراج بـ ضريبة الفلة . اما فى اوراق البردى اليونانية فتسمى امبولا - Embola (٤) بينما فى اوراق البردى العربية تسمى كما رأينا ، ضريبة الطعام . ويؤكد ذلك بردية اخرى تتضمن كتابا خاصا بـ ضريبة الطعام مرسلا الى والى قرة بن شريك من عاملين هما : بقطر بن شيود وسيوس وابا قيرس بسن اندرياس . (٥)

ونجد فى اوراق البردى ايضا ما يؤكد ان جزوا من ضريبة الخراج كسان يدفع نقدا . فهناك بردية تتضمن كتاب من قرة بن شريك لصاحب كورة اشقوة .

(١) جوهان : اوراق البردى — السفر ٣ ص ٤٧ — ٤٩

(٢) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٥

(٣) اهل الذمة فى الاسلام ص ٢١٣

(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodite Papyri, P.271.

(٥) جوهان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ٦٠

يطلب فيه منه ان يرسل اليه القمح المفروض على اهل كورته ويخبره انه اذا وجد
الاهالى صموة في دفع الجزية غلة فلا بأس من دفعها نقداً . ويحدد له ما يعادل
عدداً معيناً من الارادب نقداً ولكنه يطلب منه ان يحمل على ارسال القمح لا النقود .
وكذلك حفظت لنا اوراق البردي ايضالات عن خراج سنة ٢٧٨ هـ وسنة ٢٨٧ هـ سنة
٢٩٣ هـ سنة ٣١٢ هـ سنة ٣١٣ هـ . لبعض الاعطاش وتبين منها ان الخراج
دفع نقداً . (٢)

ويجدر بنا الاشارة الى ان اهم ما كان يجبي في ضريبة الطعام هو القمح
الى جانب انواع اخرى من الطعام . وكانت الفلال ترسل منذ السنوات الاولى
للحكم العربي في مصر الى العاصمة الاسلامية . المدينة ، ثم انقطع ارسالها
في فتنة عثمان بن عفان ثم اعيد حملها الى المدينة في عهدي معاوية وابنه يزيد ، ثم
انقطع في خلافة عبد الملك بن مروان . واستمر بعد ذلك حمل الفلال الى المدينة
حتى عهد الخليفة العباسي جعفر المنصور . (٣) ولعل هذا الامر هو الذي
جمل الابل لمانس (٤) Lamans يقول : ان مصر لم تكن لها اهمية
اقتصادية اذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P. 24
(٢) جوهان : اوراق البردي - السفر ٣ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠

(٣) البلاذري : فتح البلدان ص ٢١٧-٢١٨
ويذكر ان اهل مصر صولحوا بعد صلحهم الاول على ان يؤدوا مكان الخطة
والزيت والصل والخل دينارين . فالزم كل رجل ذى بادية اربعة دنانير
بينما يقول اليعقوبي ان عمرا جبي بصر ١٤ مليون دينار من خراج رؤسهم
اي الجزية لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة اردب اربعة دين .
انظر : سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٤٠٠-٤٠١ . ويقول ان الفلال
كانت ترسل بطريق البحر حتى خلافة المنصور الذي امر بضم خليج امير
المؤمنين الذي كان يصل مصر ببلاد العرب بحرا . وكانت الفلال ترسل الى
المدينة في بادئ الامر باعبارها مقر الخلافة الاسلامية . ولم يبطل ارسالها
اليها بالرغم من انه قد حل محلها عواصم اسلامية اخرى . وبالرغم من التغيرات
السياسية التي حدثت بمصر وفي الخلافة نفسها . انظر ص ٥٢

Un Gouverneur Omeyyade d'Egypte, P. 102.

(٤)

ويتضح لنا من الروايات التاريخية المختلفة ان ضريبة الخراج كانت تجبى من المصريين على اساس مساحة الارض التى يمتلكها الشخص . كما انه كان يراعى فسى ذلك طالة فيضان النيل فى كل سنة لا رتباطه بالزراعة . وقد امكننا ذلك من نصوص العهد الذى اعده عمرو بن العاص للمصريين . (١) ويتضح لنا ذلك ايضا من روايات سائرين عن مدى اهتمام المصريين بل والولاة ايضا بفيضان النيل حتى يتمكنوا من جباية الخراج وما كان يحدث . كما رأينا . من اشتراك الجميع فى الدعاء والصلاة من اجل زيادته .

ويقول ابن مائى (٢) " وفى كتب المصريين ، اذا أوفى النيل ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج واذا زاد عن ذلك فذراعا زاد الخراج مائة الف دينار ، فان نقص ذراعا نقص الخراج مائة الف دينار . ولا يبعد ان يكون ذلك فيما تقدم من السنين عند بلوغ العمارة الى حد اجبر به هذا القدر . فأما الان فقد تغيرت الاحوال واختلفت احكام الاعمال " كذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الارض وطلة الاراضى اذا كانت عامرة أو غامرة .

وقد كتب الطوردي (٣) فى هذا المعنى فقال : ان الارض تختلف من ثلاثة اوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه " احدها ما يختص بالارض من جودة يتركبها زرعها ، او رداءة يقل بها ربحها . والثانى ما يختص بالزراع من اختلاف انواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه . والثالث ما يختص بالسقى والشرب لان ما القتم المؤنة فى سقيه بالنواضح (٤) والدوالى (٥) ، لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى الصبح (٦) والامطار .

(١) تاريخ الطبرى ج٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ - ٢٥ وقد ذكرنا نص هذا العهد .

(٢) قوانين الدواوين ص ٧٦

(٣) الاحكام السلطانية ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الناضح اى الدابة التى تعمل الماء من البقرا والنهر لسقى الزرع والجمع نواضح . الوسيط ج٢ ص ٩٣٦

(٥) الفرد دالية وهى الماقية او الناعورة او الدلو وثبت برأسه خشبه على شكل صليب ثم يشد بها طرف جبل وطرفه الاخر بجذع قائم على رأس البئر ويستقى بها . الوسيط ج١ ص ٢٩٥ .

(٦) الماء الجارى الظاهر على سطح الارض . الوسيط ج١ ص ٤٦٩

ومن الناس من اجبر شرطاً رايماً وهو قسرها من البلدان والاسواق ز وعدها
لزيادة اثمانها وقصانها ، وهذا انما يعتبر فيما يكون خواجه ورقاً . (١) ولا يعتبر فيما
يكون خواجه جاً . (٢) ، وتلك الشروط تعتبر في الحب والورق .

وهناك نوعان من الخراج ، خراج الجزية ، وهو الخراج الذي يفرض على الارض
التي صلح اهلها على ان تكون لهم . اما النوع الثاني فيسمى خراج اجرة ويفرض ^{للملوك}
على الارض التي صلح اهلها عليها على ان تصير وقفاً ولا يعقط عنها باسالمهم او بانتقالها
الى غيرهم من المسلمين . (٣) وكان الخراج في مصر من نوع خراج الجزية لان الاواشي
المصرية تركت في ايدي اصحابها يزرعونها ويؤدون الخراج عنها .

ضرائب اخرى :

كان على المصريين الى جانب الجزية والخراج ، ضرائب اخرى متعددة الانواع ،
وان كنا لانجد اشارة لكثير منها في كتب الفقه والتشريع الاسلامي . ويقول ترتون (٤) ^{المعتمد}
على ما وصل اليه من اوراق البردي اليونانية والقبطية والمصرية انه كان هناك ضرائب متعددة
فكانت ضريبة الارض تدفع نقداً او عينا ، اما الضريبة الثلاثية - Tetartia فكانت
تدفع نقداً ، واما المحاتيد (٥) فالظاهر ان المادة جرت على دفعها نقداً . وهناك
محاتيد معينة من اللبن والملح والجزية . ولم يكن يدفع المسلمون شيئاً من هذه
الضرائب بمعنى ان عب الضرائب كله كان يقع على عاتق اهل الذمة في مصر . ويقسول
في موضع اخر ان الضريبة الثلاثية كانت تبلغ على وجه التقريب جزءاً من مائة من الخسراج .
وانه من الجدير بالملاحظة ان هناك قائمة واردة في مجموعة رينيه . تحتوي على ثلاث
ضرائب نقدية كما يشير احد المؤرخين السريان الى الضرائب والجزية والخراج .

(١) القضة مضروبة كانت او غير مضروبة وجمعها اوراق ووراق . الوسيط ج ٢ ص ١٠٣٨
وهنا بمعنى النقود .

(٢) اي الفلال .

(٣) الطوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٢

(٤) اهل الذمة في الاسلام ص ٢١١ - ٢١٢ ، ٢١٢

(٥) المحاتيد ترجمة لكلمة Requisitions والمحاتيد اصطلاح عراقى للمطلبات
المالية التي تقتضيها المصلحة العامة من الافراد لاسيما بين العشائر . المصدر
السابق طبعة ص ٢١١

بينما نرى دانييل دينيت (١) يقسم الضرائب التي كان يؤديها اهل الذمة في مصر بناء على ما جاء في الاوراق البردية - الى سبع فئات هي :

١- الضريبة النقدية Demosia

٢- ضريبة ال Tetartia وقدرها واحد في المائة من الضريبة النقدية ويرجع انها كانت لتغطية نفقات جميع الضرائب.

٣- ما يسمى Aparurismos dianamon aneu-timesos وهو مقدار من المال مخصص لامدادات خاصة ، يطلبها العرب وتشتري حسب سعر السوق وقد ذكر تحت هذا البند الاغنام والدواجن الزبيب والتبيض واللاتاد الخشبية وجدوع النخل وغير ذلك .

٤- Apargurismos dianamon tetimései

وهو حساب شراء ادوات واعدادات تطلبها الحكومة حسب تعريفة محددة او جدول اسعار وقد ذكر من بينها الحصر والجمال والخيش اللزج لعمل الاجولة .

٥- ضريبة لبن لصنع الزبد وتسمى Apargurismos galaktus

٦- ضريبة على عمل النحل Apargurismos melitos

وهذه الضريبة لا يؤديها سوى افراد يقي نفسها ويوكانيس .

٧- Logismia وتتضمن مقدارا من المال يستقطع خصيما من جميع الحصص

الضريبية ما عدا الضريبة الثلاثية وضريبة العمل وكانت هذه الضريبة محددة بمقاييس ولاخذ منها المبالغ اللازمة لجميع الافراض الاحتياطية لتغطية نفقات العمال وناء السفن وشراء المسامير والجمال والقوارب وغير ذلك .

وتحفظ بعض اوراق البردى اليونانية كشوايا بالضرائب المفروضة على بعض الاديرة ، نذكر منها القائمة التالية : (٢)

(١) الجزية والاصنام ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) تترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ٢١٧-٢١٨

وجه الصرف	ابا ارمانوس	بريوسية	مرسم المقدسة
لامير المؤمنين	—	—	—
بضائع للسفن	$\frac{2}{3}$	—	$\frac{2}{3}$
قماش لخيمة من الشعر	$\frac{5}{12}$	$\frac{1}{12}$	$\frac{5}{12}$
غرامة	$28\frac{1}{3}$	—	$33\frac{1}{2}$
لبطارة الاسطول ومصاريف	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{2}$
وقسطان خل لامها جرين	—	$\frac{1}{2}$	$\frac{2}{4}$
قسطان من خل لمها جرى	—	$\frac{1}{2}$	$\frac{2}{4}$
الاسطول	—	—	—
عربة بضائع عند القلزم	$\frac{1}{3}$	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{6}$
اكوام للمصنف	—	—	$\frac{1}{6}$
مصاريف للوالى	$\frac{5}{6}$	—	$\frac{5}{6}$
العناية بالاكوام	—	—	$\frac{1}{4}$
بضائع الى القلزم	$\frac{1}{6}$	$\frac{1}{4}$	—
بطارة للاسطول الاناضولى	$\frac{1}{4}$	—	—
ومصاريف اخرى	$\frac{1}{2}$	—	—
اربعون عاملا لجامع دمشق	—	20	50
للعناية بالاكوام والسلاسل	—	—	—
المجموع	$31\frac{2}{3}$	$22\frac{1}{4}$	$36\frac{11}{12}$

ويمتدح تترتون (١) على هذه القائمة التي جاءت في إحدى البرديات مستشهدا
ببردية أخرى جاء فيها أن الوالي كان يحتاج إلى مواد مختلفة " لا طائفا وللعمال
الذين معنا من العرب والنصارى على السواء " ولغيرهم " كما أن الأساطيل كانت في
حاجة إلى كثير من البطارية الذين يلتزم لهم دافعوا الضرائب بأجورهم وكذلك الحال
أزاء العمال الذين كان لابد من إنقاذهم للعمل في بيت المقدس ودمشق وبغداد
إلى ذلك فرار كثير من الفلاحين المصريين من قراهم وتخليهم عن أراضيهم . وقد لا نكون
بمعدين عن الصواب إذا قلنا أن فداحة الضرائب كانت إحدى الدوافع لهم على ذلك
وأن هذا الموقف من جانب الحكومة المصرية أدى إلى حمل كثير من الفلاحين المصريين
أحيانا على ترك أراضيهم . ومن الجلي أن هناك تناقض واضح بين ما يراه الفقهاء والمشرعون
وبين الوقائع الواردة في أوراق البردي إذ تبرهن البرديات على وجود ضرائب لم تتضمنها
أحكام الإسلام نحو أهل الذمة .

ويقول دانييل ديفيت (٢) : أنه من المؤكد أنه كان " هناك حصة من المال
لم تكن تصد للرب وأنه كان في استطاعتهم أن يرسلوا أوامر خاصة في طلب أشياء
بعضها أو خدمات تؤدي قيمتها من هذه الحصة حتى تستنفد . وبهذا نمعرف تماما أن
جميع المطالبات الخاصة والأوامر التي تظهر دائما في خطابات الوالي إلى الباجارك
لا تمثل أعباء إضافية وإنما هي امدادات قد دخل حسابها ضمن ميزانية قائمة بذاتها
نشأت من استئذان مقدار معين من كل الضرائب العادية . . . "

ونستخلص من الروايات التاريخية التي تضمنتها المصادر العربية أن عمرو بن
الناصر عند فتحه البلاد المصرية ألزم المصريين ببعض الالتزامات العادية أو بمعنى آخر
بضرائب عينية يأتي في مقدمتها أرزاق المسلمين التي تجمع وتوزع على الجند المسلمين
وتتكون من الحنطة والزيت والملح والخل . وتحفظ لنا المصادر العربية نصين بشأن
هذه الأرزاق .

(١) أهل الذمة في الإسلام ص ٣١٩ - ٢٢٠

(٢) الجزية والإسلام ص ١٥٤

فيشير ابن عبد الحكم (١) الى ان عمر بن الخطاب كان قد كتب الى امراء الاجناد لتحديد الجزية على الذين بلغوا من سكان البلاد المفتوحة الى جانب اوراق المسلمين ومن بين هذه البلاد مصر . وقد جعل على المصريين لكل مسلم اردبا فسى كل شهر ومقدارا معيناً من الودك والعسل وايضا بعض الثياب .

(٢) بينما يقول الهلاندري والزم كل ذي ارض مع الديناوين ثلاث اوداب خطية وقسطى زيت وقسطى عمل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق ، وتقسف فيهم والزم جميع اهل مصر ان يقدم لكل رجل منهم — اى من المسلمين — جبة صوف وبنسأ او عمامة وصراويل وخفين فى كل عام او بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا . .

والى جانب اوراق المسلمين وكسوتهم ، اشترط على المصريين ضيافة من منزل عند هم من المسلمين ثلاث ليال . تقول الرواية العربية وعلى ان للمسلمين المنزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترض عليهم (٣)

كانت الاسباب التى دفعت العرب الى اعتراط واجب الضيافة على المصريين — هو ان العرب فى بداية الامر كانت اقامتهم قاصرة على العاصمة وللشفور المصرية لحمايتها والدفاع عنها وواجب الضيافة اخذه العرب عن الرومان والبيزنطيين فى مصر . (٤)

وتؤكد اوراق البردى ما تشير اليه المصادر العربية من التزامات مادية — غير الجزية والخراج — التزم المصريون بها عند الفتح العربى لمصر . فهناك بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢ م) جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم ، اننا الامير عبد الله اكتب اليكما خوستوفور وشيود وراكيسر بارطركى هيراكليسولس — اهناسيا قد حصلت منكما فى هيراكليسولس لصالح من مصر من العرب خسا وستين من النشم ولا اكثر من ذلك وللعلم قد حررنا لكم هذا البيان . . . (٥)

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٤

(٤) سيدة كاف : مصر فى فجر الاسلام ص ٥٧

(٥) دانيلى دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦

(١) كما ان ضيافة المسلمين ثلاثة ايام ، عريده البردية (رقم 555 PERF)
وتقديم مد من القمح لكل مسلم تشير اليه البردية رقم 555 و 556 من نفس
المجموعة اما البردية رقم 557 فتتضمن تقديم الزيت للمسلمين . وهكذا تؤكد اوراق
البردى الصادر الاسلامية في وصفها للضرائب الاعفائية . وتدل في الوقت نفسه على ان
الباजार كان في مصر الاسلامية الموظف الرئيسي في الادارة المحلية . (٢)

وجاء في بعض اوراق البردى اليونانية ما يشير الى وجود ضرائب غير عادية كان
على اهل الذمة اداؤها في مصر الاسلامية . فترى مثلاً قرة بن شريك يطلب من صاحب
كورة اشقوة جمع تلك الضرائب الغير عادية والمادية مع مراعاة المعدل بين الدافعين
لها . (٣)

وهكذا ادخلت ضرائب جديدة في مصر الاسلامية في بعض المصور . ويبدو ان
الولاة المسلمين كانوا يلجأون الى فرض الضرائب الجديدة عندما تزداد مصروفات الدولة
عن ايراداتها او رغبة منهم في جمع اكبر مقدار ممكن من الاموال من مصر . ففي ولايعة
موس بن مصعب النخعي (١٦٢-١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على الحوانيت وعلسى
الاسواق والدواب . (٤) ولما ولي احمد بن محمد بن مديبر خراج مصر . ابتدع
ضرائب جديدة . تقول الرواية القبطية انه فرض ضرائب على الحشيش والنخسل
والشجر المثمرة . المخروسة في بيوت الرهبان في جميع انحاء البلاد
المصرية . (٥)

(١) هذه الحروف اختصار لمجموعة J. Karabacek; "Papyrus Erzherzog
Fuhrer Dutsch die Ausstellung".

(٢) دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٦

(٣) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri. (٣)
PP. 272-281-283.

(٤) الكتدى : الولاة والقضاة ص ١٢٥ - وكان ذلك تقليدا لابي جعفر النصور الذي
وضع الضرائب على حوانيت بغداد - انظر : المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٦٧

(٥) ابن المقفع : سيرة الابهاء البطارقة ج ٢ ص ٢٤

بينما تذهب الرواية العربية الى انه اول من أدخل في مصر ضرائب سوى مال الخراج فكان من " دهاة الناس وشياطين الكتاب " . وابتدع في مصر بدعاً استمرت سائدة من بعده . فحجروا على النطرون . بمحمد ان كان يباحط لجميع الناس . وفرض ضرائب على الكلا^١ التي تربطها الماشية وسماها المراعى . كما فرض ضرائب على الاسماك وسماها المصايد . وغير ذلك من الضرائب التي عرفت انذاك باسم المرافق والمعاون . فانقسم مال مصر حينذاك الى خراجي وهلالى . والهلالى هو ما عرف باسم المرافق والمعاون وقد ألفها احمد بن طولون عندما ولى امانة مصر . وقد بلغت هذه الضرائب في مصر مائة الف دينار في كل سنة . وقد اعيدت الاموال الهلالية في عهد الفاطميين وصارت تصرف باسم المكوس . فلما استبد صلاح الدين بأمور البلاد ، أمر بإسقاط مكوس مصر والقاهرة . (١)

الضرائب على التجارة :

والى جانب ما تقدم ، نجد انه كانت هناك ضرائب على التجارة وتسمى المكوس^(٢) منذ مطلع الفتح العربى لمصر . واول من ولى امر هذه الضرائب في عهد عمرو بن العاص وميمونة بن شرحبيل بن حسنة . وكان ممن ساهم في فتح مصر من الصحابة^(٣) ، ويبدو ان هذه الضرائب كانت تؤخذ عن التجارة الداخلية في البلاد المصرية وكان مقسراً صاحب المكس الذى يباشر منه مهام منصبه هو ام دينين التي عرفت باسم المكس او المقس نسبة الى صاحب المكس الذى يقيم فيها . (٤)

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧

تترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٤٤ و Zaki Hassan: Les Tulunides
والطال الخراجى هو ما يؤخذ مسانحة من الاراضى التى تزرع حبوا ونخلا وغبا
PP244

وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية . والمال الهلالى عدة ابواب استحدثها

ولاية السوء شيئا بعد شئ . انظر : المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٦

(٢) المكوس نوع من الضرائب فرض على التجارى الجاهلية وكلمة مكس مشتقة من اللفظ

السراني ماكوس . انظر جوهان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٩ والمكس هو

المشار ويقول له صاحب المكس . والمكس ايضا انتقاض الثمن في البيعة . انظر

الخطط ج ٢ ص ١٩٧ . سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام - طبعة ٥٥

ويقول جروهمان (١) ليس من الشرب ان نجد نظام المكس منذ بداية الادارة المصرية في مصر اذا لاحظنا ان ثمة نظام مماثل تماما كان قائما في العهدين اليوناني والروماني وانه مما لا شك فيه كان يوجد مركز تجارى للفلال في القسطاط عرف باسم ميدان القمح او ميدان الخلة . وكان يحده غربا المكان الذى يلى باب القنطرة حتى المقس ويصل الى خليج القاهرة من ناحية الشرق .

ونجد في اوراق البردى المصرية ما يؤكد وجود المكس على التجارة الداخلية في البلاد فهناك وثيقة خاصة بارسال القمح الى القسطاط واطلاق المكس لتجارة القمح . ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى ربيع الاول سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) وقد جاء فيها " .. الى القسطاط فاني وضعت عنهم مكسه فليبيعوه بالقسطاط . وعجل ذلك فاني قد خفست غلاء الطعام بالقسطاط واني اذا وضعت للتجار مكسهم اصابوا ربحا حسنا . وانما الحصاد ان شاء الله في اربعين ليلة او قريب من ذلك فعجل ما كنت تساعد به من لذلك واكتب الى كيف فعلت في ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام ، والعلام على من اتبع الهدى .. " (٢) .

وقد ولى مكس مصر في عهد الخلفاء الامويين الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وزيق بن حيان . وكان عربين عبد العزيز قد كتب اليه ان : " انظر من مريك من المسلمين فتخذ ما ظهر من اموالهم ، ما يدبرون للتجارات ، من كل اربعين دينار دينا ، فما نقص في حساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينار ، فان نقص عن عشرين دينار بثلاث دینار فدعها ولا تأخذ منها شيئا . ومن مريك من اهل

= (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣١ طبعة ليدن .

بينما رفض ولاية المكس انذاك ظلك بن ثابت القهسى وقال ان كعب بن ضنة

قال : " لا تقرب المكس فان صاحبه في النار " واثرت عن النبي عليه الصلاة والسلام

انه قال : " لا يدخل صاحب المكس الجنة " وقال ايضا " اذا لقيتم عشارا فاقتلوه " .

(٤) جروهمان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠٠ - سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٦٥

(١) اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ٨ - ٩

المسألة ؟

الذمة ، فخذ ما يديرون من التجارات من اموالهم من كل عشرين دينار ديناراً ، فما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرة دنانير ، فان نقصت ثلاثة دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئاً ، واكتب لهم بما تأخذ منهم كتاباً الى ملته من الحول . (١)

ونستخلص من هذا النص ان المكس كان يؤخذ من التجار المسلمين بنسبة اثنين ونصف في المائة من تجارتهم بينما كان يؤخذ من الذميين ضعف ذلك ، اي بنسبة خمسة في المائة من تجارتهم وان المكس كان يؤخذ من التجارة مرة واحدة في السنة ، ويحطون ايضاً بذلك حتى لا يدفصون على نفس التجارة مكملاً ثانياً . بينما يرى بعض الفقهاء وجوب اخذ المكس على التجارة في كل مرة يهربها صاحبها . (٢)

وكما اهتمت الحكومة المصرية في مصر بفرض الضرائب على التجارة الداخلية ، فكما اهتمت ايضاً بفرض الضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بشورها بين الشرق والغرب وكذلك على التجارة الصادرة والواردة . فكانت هناك ضرائب مقررة على التجار في الثغور المصرية . دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب واسوان والاسكندرية . فالمكس قبل الاسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الاسواق او حق فرض الضرائب التي تجبى في الموانئ والبلاد التي على الحدود المصرية . وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقبروه من نظام الذكاة والمشور . (٣)

هذه هي الضرائب التي التزم اهل الذمة في مصر بدفعها . ويمكن القول بصفة عامة ان النظام المالي المصري كان مأخوذاً — الى حد كبير — من النظام البيزنطي

(١) الشافعي : الام ج ٧ ص ٢٢٨
ابو عبيد : الاموال ص ٥٣٤

(٢) تترن : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٤٢ — ويقول ان انسين مالك رفض ولاية المكس " لانعدام ما كان من التقوى عند السلف " . وربما كان الرفض من جانبها قائماً على اساس تفسير مدلول كلمة المكس اذ كانت في البداية بسيطة يقصد بها الخراج ثم تبدل مفهومها بعض الزمن ، فأصبحت تطلق على ضرائب معينة لم يرد ذكرها في القرآن ولا في الحديث . واصبح جميع المسلمون — الخيرين ينظرون اليها نظرة ملوها بالشك والريبة .

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٧٥

ولم يكن أخف منه وطأة الا انه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشيء عن سالفه . فقد ابطأ الصرب خاصة في اول عهدهم بعض الضرائب التافهة التي استحدثها البيزنطيون . وقد زادت وطأة النظام الضرائبي خاصة في عهد اصحاب الاقطاع في مصر الاسلامية من الترك ، كما يتبين من اوراق البردى . (١)

طرق جباية الضرائب :

وننتقل الى دراسة طرق جباية الضرائب في مصر الاسلامية . والواقع ان الصرب بعد فتحهم لمصر ، ابقوا على نظام الجباية الذي كان سائدا في مصر البيزنطية ، اذ كانت كل كورة او قرية مسئولة بالتضامن عن دفع ما على سكانها من الضرائب ويؤيد ذلك الرواية العربية واوراق البردى العربية واليونانية .

يقول ابن عبد الحكم (٢) انه لما استوثق الامر لعمر بن العاص في مصر ، اقر قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عرت القرية وكثرا هليها زيد عليهم وان قل اهلها وخرت نقصوا . فيجتمع عرفاء كل قرية وماروتها (٣) ورؤسائها اهلها فيتناظروا في العمارة والخراب حتى اذا اقرروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العمارة فينظرون فيخرجون من الارض فدادين لكتائسهم وحاماتهم ومحدياتهم ، من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصلاح والاجراء فقسما عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيها جليلة قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تكون الا الرجل الشاب او المتزوج . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع على قدر طاقتهم فان عجز احد وشكى ضعف من زرع ارضه . وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة اعطى ما عجز عنه اهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدوتهم وكأوت قسمتهم على قراريط والدينار اربعة وعشرين قيسراطا يقسمون الارض على ذلك .

(١) نفس المصدر ص ٥٩ Zaky Hassan: Les Tulunides, P.244

(٢) فتوح مصر والغرب ص ٢٠٦-٢٠٧

(٣) الماروت لفظ صرياني الاصل معناه كبير الوجها . انظر المصدر السابق خاتمة

نرى من هذا النص ان رؤساء القرى وذوى النفوذ بها هم الذين كانوا يقدرون الضرائب تحت اشراف صاحب الكورة ، الذى كان عليه الاتصال بالوالى او عامل الخراج لتأدية الضرائب المقررة على كورته وعلى الذى تدخل فى دائرة نفوذه .

ويؤيد ذلك كثير من اوراق البردى ، ففى كتاب من قوة بن شريك الى صاحب قرية شبرا بسمير فى سنة ٩١ هـ نجده يطلب منه ما على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ .
(١) وقد رها مائة واربعة وثلاث دینار ، ومن ضريبة الطحام احدى عشر وثلث اردب من القمح وهناك بردية اخرى تتضمن ايضا كتابا من قوة بن شريك فى نفس السنة الى اهل قرية شبرا اجية نيوتية من كورة اشقوة يذكر لهم فيه انه اصابهم من جزية سنة ٨٨ سبع مئة وثلاثين دینار . (٢) ونجد بردية ثالثة فيها كتاب لنفس الوالى وفى نفس السنة الى اهالى قرية اروس من قرى الشرقية — يعلمهم فيه ما اصابهم من جزية سنة ٨٨ ايضا ومبلغها ثلاثين وسدس دینار . (٣) وفى بردية رابعة كتاب من قوة بن شريك ايضا فى نفس السنة الى اهالى هروس ابيرميوطسى من كورة اشقوة — يذكر لهم فيه ما عليهم من جزية وقد رها ثمان وعشرين وسدس دینار . (٤)

وكما كان الحاكم العام فى مصر البيزنطية يقدّر الضرائب التى تفرض على نواحي البلاد المختلفة على اساس المحلوطات والقوائم التى يقدمها اليه حكام الاقاليم نجسده الوضع كذلك فى مصر الاسلامية اذ يتبع المربى نفس النظام . وتشير بعض اوراق البردى الى ذلك فهناك بردية فيها ان قوة بن شريك قد ارسل الى صاحب كورة اشقوة تعليمات خاصة بجباية الضرائب واما امره فيها بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كي يختاروا رجلا امثا اذكيا ليكلفهم تقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ومعد ان يقوموا بمقتضى هذه تحت اشراف صاحب الكورة ويطلب منهم ان يرسل اليه نتيجة عملهم بعد ان يحتفظ بنسخة لنفسه ويطلب منه ايضا ان يكتب اسما والقباء .

(١) جروهان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٤٧ — ٤٩

(٢) نفس المصدر ص ٥١ — ٥٢

(٣) نفس المصدر ص ٣ — ٥٤

(٤) نفس المصدر ص ٥٥

ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وينذره بأنه إذا وجد أن قوة حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضاً أشد عقاباً . (١)

وشرح بعض الكتاب المحدثين الإجراءات الضريبية أو بعض آخر الخطوات المتبعة في جمع الضرائب في مصر الإسلامية معتمداً في ذلك على ما جاء في أوراق بردى أفروديتي كما أنه يذكر أرقام بعض هذه البرديات مستشهداً بها . ونذكر فيما يلي بعض هذه الخطوات .

تتضمن الخطوة الأولى عند جمع الضرائب أعداد قائمة لا يحددها الحاكم نفسه وإنما أفراد أحسن اختيار هم ويكونون من رؤساء القرى ومن كبار ملاك الأراضي وكانت هذه القوائم تشمل جميع السكان من الرجال وفيها ضريبة الرأس التي قدرت على كل منهم والأرض التي يملكها والضريبة المقدرة عليها وكذلك الخدمات الخاصة التي قام بها كل واحد منهم . ثم ترسل هذه القوائم بعد الانتهاء من إعدادها إلى موظف ديوان الخراج بالقسطنطينية وكثيراً ما كان يطلب من مقدرى الضرائب أن يصحبوا قوائمهم إلى العاصمة الإسلامية . (٢) ويتضح ذلك من إحدى البرديات وقد جاء فيها : " وأحضروا معكم رجال اقلية منكم الذين ذكرنا أسماءهم في خطاباتنا السابقة وكذلك قائمة بالاماكن في كل منها أسماء الذكور من السكان وضريبة الرأس التي قدرت على كل منهم وصاحبة الأرض التي يملكها كل رجل من أرض الكروم والأرض الزراعية والخدمات التي قام بها سواء بناءً على تعليمات بذلك أو بغير تعليمات . وقائمة باسماء الأبقين وألقابهم

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P. 282

(٢) بردى أفروديتي The Aphrodito Papyri نسبة إلى مدينة أفروديتي أو كوم اشقاو البطلمية في مصر العليا جنوب طما . والبردي في ثلاث لغات اليونانية والقبطية والصربية ويشمل مكاتبات رسمية وقوائم ضرائب وغير ذلك من النصوص الإدارية والقانونية ومعظمها ينتمي إلى عصر قسطنطين (٩٠-٩٢ هـ = ٧٠٩-٧١٤ م) انظر : دانييل دينيت : الجزية والإسلام ص ١٣١

(٣) دانييل دينيت : الجزية والإسلام ص ١٤٩ - ١٥٠

فى كل مكان وما اختصارا ووضحوا لنا فى قائمتكم كل ما تصفون . . على ان تخبروا اولئك الذين سيصبحونكم فى كل مكان فى اقليمكم ان يحضروا معهم قوائم اماكنهم حتى اذا احتاج الامر ان نستقى منهم المعلومات عن موضوع ما كانوا على استعداد لى يزودونا بكل ما يعلمون وان يقدموا لنا كل ما يستطيعون . (١)

ثم تأتى الخطوة الثانية فى جمع الضرائب ذلك انه بعد ان تصل القوائم المختلفة من الكور المصرية يقوم موظفى بيت المال فى العاصمة . بتقدير حصص الضرائب على كل ^{منطقة} اقليم وكل قرية تدخل فى سلطة حاكم الاقليم (الباجاراك) وبعد ذلك يأتى دور الوالى فى اعلان النتائج المختلفة لكل قسم من اقسام الاقليم فى " امر طلب " مقرا فيه مقدار الضرائب النقدية - وخاصة الجزية والخراج - التى كان على هذا القسم من الاقليم ان يؤديها ويؤكد وجود هذه الخطوة وحوالى احدى عشر بردية نشرها بكرة . وهذا نص ما جاء فى واحدة منها : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من قرة بن شريك لاهل باكونيس من كورة افروديتى انه اصابكم من جزية سنة ٨٨ اربعمائة دينار وثمانية وتسعون ومن ضريبة الطعام مائة وثمانية وعشرون اردب قمح ونصف اردب ونصف وبة . (٢) " وعند ما يصل هذا الامر الى اقسام الاقليم كان يختار اشخاص ليقوموا بجمع الضرائب بعد تقديرها على افراد السكان وكان جامعوا الضرائب يقومون بحمل قوائم للتقدير توضح ما يجمعون ويطلق عليها اسم Merismois . (٣)

وهكذا نجد انه كانت هناك عليتان منفصلتان لتقدير الحصة الضريبية الاولى عند اعداد القائمة التى ترسل الى القسطنطينية والتى تقدر الحصة على اساسها . اما العملية الثانية فهى اعداد قوائم التقدير التى توضح ما يجمع من الضرائب وتسمى Merismois - وكانت تعد لجمع الضرائب عددا يصل امر الطلب من الوالى . وهذه الخطوات فى الواقع كانت بشأن الضرائب الاعيادية . اما الضرائب الاخرى الغير اعيادية فكانت تحصى بالقسطنطينية بنفس الطريقة . (٤)

Bell : Op. Cit. P. 273.

(١)

(٢) التوبة مكيال معين وكانت وبة عربين الخطاب ستة امداد والمد ربع ساع . انظر

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمصر ص ٦٠٦ - وخشبة نفس الصفحة

(٣) دانييل دينيت : الجزية والاسام ص ١٥١ - ١٥١

(٤) نفس المصدر ص ١٥١

ونحن نرى انه من المسير قبول ما ذهب اليه بل Bell من انه لما كانت الضرائب فى السنوات الاولى للحكم العربى فى مصر كما كانت فى العهد البيزنطى تفرضها الحكومة فى شكل اجالى على القرى لا على الفرد • فان اساس النظام العالى كان دائما مبدأ الضرائب الجماعية التى تفرض على الجماعة لا الفرد • وان علاقة هذا الاخير كوحدة لفرض الضريبة كانت بالجماعة التى ينتمى اليها لا بالحكومة. (١) ذلك لان نظام الضرائب كان اساسه الفرد فى المحل الاول • الفرد وما يؤديه من عمل وما يفلحه من ارض فكانت الخطوة الاولى لجمع الضرائب المقررة اعداد قائمة التقدير لكل فرد يلى ذلك جمع المبالغ الفردية كما تظهر فى القائمة بعضها الى بعض • اما الخطوة الثالثة فكانت تتضمن ان يؤخذ من كل فرد ما فرض عليه • يلى ذلك الخطوة الرابعة والاخيرة — وكان يمثل فيها المظهر الجماعى — اذ كان التسديد بواسطة القرية لكل الحصص المجموعة. (٢)

(٣) ثم ظهر فى مصر فى العصر المباسى نظام اخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات الاراضى • وقد بدأ العمل به خاصة بعد ان انتشر الاسلام بين القبط ونسزل العرب الى القرى المصرية بعد ان كانت اقامتهم قاصوة على العاصمة والثغور المصرية • يقول القرئزى : (٤) وكان من خير اراضى مصر بعد نزول العرب بأراضيها • واستيطانهم

(١) نفس المصدر ص ١٥١-١٥٢

(٢) نفس المصدر ص ١٥٢

(٣) يقول دى سامران لفظ قبالة معناه ضمان الاشخاص دفع ضريبة معينة او التزامه بتنفيذ عهد او ارتباط • انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام — حاشية ص ٦١

وشير بعض المصادر الى رغبة الخليفة ابو جعفر المنصور فى ان يجعل والى مصر ضابطا لخراجها فقد حدث ان ارسل هذا الخليفة الى واليه على مصر محمد بن الاشعث (١٤١-١٤٢ هـ) يعرض عليه ضمان خراج مصر — بمعنى انه اراد ان يلزمه بدفع مبلغ معين عن مصر كلها — الا ان ابن الاشعث رفض ذلك — والواقع انه لا يمكن ان يرفض احد ولاية خراج مصر بينما من الجائز بل من المعقول ان يرفض الشخص ضمان خراجها كما فعل محمد ابن الاشعث •

(٤) الخطط ج ١ ص ١٣١-١٣٢

وأهلهم فيها • واتخاذهم الزرع محاشا وكسبا • واتقياد جمهور القبط الى اظهراس
الاسلام واختلاط انسابهم بانساب المسلمين لتكاهنهم السلطات • ان متولى خراج مصر
كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية فى الوقت الذى تنهى فيه قبالسة
الاراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن • فيقوم رجل ينادى على البلاد : صفقات •
صفقات • وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور • والصفقات
على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين • لاجل الظلم
والاستبصار وغير ذلك • فاذا نقص هذا الامر خرج كل من كان قبل ارضا وضعتها الى ناحية
فتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعماله بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك
ويحمل ما عليه من الخراج فى ابلانه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبائله وضمانه لتلك
الاراضى • وما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها • وخر غلجها بضاربة مقدرة
فى ديوان الخراج (١) ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين •

(١) يقوم ديوان الخراج مقام خزانة الدولة او وزارة المالية بها وتحمل اليه جباية
الاقاليه وينفق منها على رواتب الموظفين واعماليات الجند وغيرها من النفقات
المحلية ثم يحل ما تبقى الى بيت المال العام فى عاصمة الخلافة المدينة ثم
دمشق ثم بغداد • واخيرا استقلت مصر عن الخلافة المباسية فى العصر الفاطمى
كما حدث من قبل فى عصر الطولونيين والاشعبديين ويقول ابن خلدون : المقدمة
ص ٢٤٣ • المكنية التجارية بمصر • عن ديوان الخراج والجبايات • اظن ان
هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على اعمال الجبايات وحفظ
حقوق الدولة فى الدخل والخروج واصناء المصاكر باسماهم وتقدير اراضيهم
وصرف اعلياتهم فى ابلاناتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يريتها قومه
تلك الاعمال وقهارة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل
فلك فى الدخل والخروج مبنى على جز كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة
من اهل تلك الاعمال •

ولقد ابقى عمرو بن العاص ومن جاء بعده من ولاة مصر على ديوان الخراج
الذى كان فى مصر البيزنطية وكانت اللغة المستعملة فيه اليونانية والقبطية
واستمر على ذلك حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فجعل عبدالله بن
عبد الملك اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى البلاد بدلا من اللغتين اليونانية
والقبطية وصرف عن ديوان الخراج انتساب القبطى وجعل عليه احد المسلمين
وهو ابن يهودى الخزاري سنة ٨٧ • انظر : القسيزى : الخطط ج ١ ص ١٥٨

وتذهب بعض المصادر الحديثة الى ان عبدالله بن محمد بن ابي سرج • والى
مصر بعد عمرو بن العاص طول هو ومن جاء بعده اذ ظل بعض التمديدات على
النظام العالى فى مصر جاهد بين وذلك بتدارك بعض عيوبه ونقا تصورات ديوان
الخراج فى مصر الى ادارتين • انظر دانييل ديفيت : الجزية والاسلام ص ١٢٥ ١٢٦

ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقي • وكانت الولاية تتعدد في طلب ذلك مسرة •
وتصاح به مرة • فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة • حولوا السنة (١) وراكوا (٢) البلاد
كلها وعدلوها تمديلا جديدا فزيد فيها يحتمل الزيادة غير الضمان للبلاد ونقص
فيها يحتاج الى التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاصر الا ان عمر
احد بن طولون جامع وصار المحسك (٣) منزل لامراء مصر • فنقل الديوان الى
جامع احد بن طولون • ثم نقل ايام العزيز بالله نزار الى دار الوزير يعقوب بن
كلبس • فلما مات الوزير نقل الديوان الى القصر بالظاهر واستمر به مدة الدولة
الفاطمية •

وهكذا كان يقام في جامع عمرو بن العاصر في جامع احد بن طولون ثم قس
قصر يعقوب بن كلب في مصر الفاطمية ومن بعد وفاته في قصر الخلافة مزاد علي بن
لتقبل الارض او بمعنى اخر ضمان خراجها • وكان تقبل الارض لمدة اربع سنوات حتى
تتمادت سنوات المحصول الطيب مع سنوات المحصول الضعيف • كما كان الشخص
التقبل للارض يخص من الاموال المقرر عليه دفعها ما يصرفه في رى الترع واصلاح الجسور
وما الى ذلك كما نفهم من هذا النص ايضا ان الخراج كان يتم دفعه على اقساط
ولا يدفع مرة واحدة كل سنة وان ما تبقى منه كان يسمى البواقي •

(١) تحويل السنة : يعنى تحويل السنين القمرية او الهلالية الى السنين الشمسية
او الخراجية التي يرتبط بها الزراعة وجباية الخراج ذلك لانه اذا جمع الخراج
حسب السنين الهلالية فكأننا نجعل الخراج في اثنين وثلاثين سنة شمسية ثلاث
وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الاشياء • ولذلك تحذف كل ثلاث وثلاثين سنة
قمرية خراج سنة وهذا ما يسمى بالتحويل • ويسمى ايضا الازدلاق لان لكل ثلاثة
وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية • انظر : القرى : الخطط
ج ٢ ص ٣٩ ... آدم منز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩٠ - ١٩١ • سيده
كاشف : مصر في فجر الاسلام - حاشية ص ٦٢

(٢) راك : يعنى تقويم الاراضى وصحبها • مصر في فجر الاسلام حاشية ص ٦٢

(٣) لا شك ان المقصود القطارع وليست المسكر التي بناها المباسيون بعد غلبتهم
على الامويين •

ويؤكد ابن حوقل (١) الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري في عهد
الفاطميين - ان الخراج كان يتم دفعه في مصر على أقساط وأنه كان لا يجري جمعه
دفعة واحدة بل يبقى منه ما يسمى بالبواقي وان ذلك قد أصبح عادة متبعة بين المصريين.
فيقول ".... وماذا يطالب الناس يا فتاح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من
السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول والمفقود ، وما يشير يؤخذ الناس فيه باتمام
وجع الخراج من السجلات وبرصها يطالب الناس فيه بالربح الثاني والثمن من الخراج
وبرصه تقف المساحة على اهل الاعمال ويطلب الناس باغلاق نصف الخراج - من
سجلاتهم " . ويشتم تقدر المساحة ويطلب الناس بها يضاف الى المساحة من ابرص
وجوه الاموال كالصرف والجهنزة وحق المراضى والقرب والكتاب على رسم كل ناحية .
ويستخرج منذ اتمام الربح ما تقررت عليه المقود والمساحة ويطلق الحصاد لجميع الناس
ويؤونة يستخرج فيه بتمام نصف الخراج ما بقي ولم يوزن بعد المساحة ، وبأبسط
يستتم فيه ثلاثة ارباع الخراج وهو اصل زيادة ماء الفول ويكون ضعيفا . ومصرى ويفلق
فيه الخراج وفيه جمهور زيادة ماء النيل . وفي ذى الشهرين تأخر البقايا على دق
الكمان لانه يصل في تبت ويذهب بابه " .

ويؤكد وجود نظام الالتزام او القبالة في جباية الضرائب المختلفة في مصر
الاسلامية ما جاء في الاوراق البردية وخاصة في مصر المباشرة فهناك برديات تشير
الى ذلك ويرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجري . (٢) ، وبرديات اخرى يرجع
تاريخها الى القرن الرابع الهجري . (٣)

(١) كتاب صورة الارض ص ١٢٩ - ١٣٠

(٢) جوهان : اوراق البردية السفر ٣ ص ١٣٦ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧

١٤٨

(٣) نفس المصدر ص ١٥٩ - ١٦٠

والواضح ايضا من الروايات التاريخية ان نظام الالتزام في جباية مصر ظل سائدا حتى عصر الفاطميين . فقد عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في سنة ٣٦٣ هـ الى يعقوب بن كلس واصلح بن الحسن ، بولاية الخراج ووجوه الاموال والحسبة والمواحصل والاعشار . (١) والجوالي (٢) ، والاحباش والموارث والشرطيين ، وجميع ما يرتبط بذلك في مصر وسائر الاعمال . وكتب المعز لهما سجلا بذلك ، قرئ على منبر جامع احمد بن طولون . وقد باشر هذان الرجلان مهامهم بحزم وسياسة حسنة . فكانا يقومان بالمزاد على الناس لتقبل الاراضى وغيرها من وجوه الاموال . كما كانا يتشددان فى المطالبة بالهواقي .

تقول الرواية التاريخية : * وجلسا غد هذا اليوم - اى اليوم الذى اعلن فيه توليهما الخراج - فى دار الامارة فى جامع احمد بن طولون للنداء على الضياع ومآثر وجوه الاموال . وحضر الناس للقبالات وطالبوا بالبقايا من الاموال ما على المالكيين والمتقبلين والعمال . واستقصيا فى الطلب ونظروا فى المظالم * . (٣)

(١) اول من وضع الاعشار فى الاسلام عرب بن الخطاب ففرض على التجار المسلمين ان يدفعوا مهر ما معهم اما اهل الذمة فيدفعون نصف المهر على تجارتهم . انظر : حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله - حاشية ص ١٧٧

(٢) الجوالي هى ما يؤخذ من اهل الذمة من جزية مقررة على رؤسهم فى كل سنة . وهى قسمين فى حضرة الديار المصرية - القسطنطا او القاهرة - وما هو خارج عن ذلك . اما فى حضرة الديار المصرية فيوجد ناظر يتبعه مباشرين من شاد وطل وشمود ، وتحت يده طائر لليهود واخير للقيط ويعرف ارباب الاسماء الواردة فى الدواوين ومن ينضم اليهم من يبلغ كل سنة من الصفار . ومن يقدم الى الحضرة من البلاد الخارجة عنها ويمير عنه بالطاوى ومن يمتنع الاسلام او يمت ويطلب على كتاب الديوان ما يتجدد من ذلك . اما ما هو خارج الحضرة من سائر الاقاليم فان جزية الاقليم تكون لزاما او متقبل . انظر ابن صائى : قوانين الدواوين ص ٣١٧-٣١٩ - القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١١٢-١١٧ .

(٣) ابن مسير : اخبار مصر ج ٢ ص ٤٥ - القهزى : اتماظ الحنفا ص ١٤٤-١٤٥ الخطيب ج ١ ص ١٣٢ .

وكما كان بعض الولاة يتشددون في حمل المتقبلين على اداء ما عليهم من البواقي كان هناك من يتساهل في ذلك بل كان بعضهم احيانا يتسامحون في ترك هذه البواقي دون الصالحة بها . وقد حدث مثل ذلك في عهد الخليفة الفاطمي الامر ووزيره الافضل ابن امير الجيوش وذلك في سنة ٥١٥ هـ حين كتبت مجلات تخفضت ترك البواقي التي على المتقبلين والضامين في هذا العام وارسلت الى جميع انطا البلاد لقراءتها على الناس . (١)

وكان يحدث بعد انخفاض النيل ونذر البذور المختلفة ان يرسل من العاصمة المصرية القضاة ثم القاهرة بعض الاشراف المشهورين بالثقة والعدل والنباهة ممن يكون لهم معرفة بالخراج . وكان يصحب هؤلاء في العادة كاتب من القبط ويخرجون الى كل ناحية من نواحي البلاد فيحررون مساحة ما شملته الري — الاراضي ما لملكه بار او شقي . ويكتب بذلك في مجلات واضحة — تسمى بكافسات — بالافدقة والقطائع وما تتضمنه من الاصناف المزروعة . وفي الشهر الرابع من المنسوبة القبطية يعين من العاصمة ايضا بعض الرجال المعروفين بالحكمة وقوة البسط ويصاحبهم بعض الكتاب المشهورين بالعدل والامانة وايضا كاتب من القبط — وهؤلاء غير الذين خرجوا لمسح الاراضي — ويذهب هؤلاء لكل ناحية فيستخرج مباشر وكل بلد ثلث ماوجب عليهم من الخراج وفقا لما جاء في المكلفات ومن هذا الثلث كان يدفع ما تتطلبه المعسكر من النفقات . وكانت تبقى في جهات الضمان والمتقبلين جلة البواقي . والظاهر ان المتقبلين للاراضي كانوا يدفعون ما عليهم من الخراج نقدا او عينا ما تنتجه الارض من الفلال والاصناف المختلفة . (٢) ويمكن ان نقول بناء على ذلك ان الخراج

(١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٣٤

(٢) نفس المصدر ص ١٣٨ — وفي عهد الخليفة الفاطمي الطغظ انتدب بعد انتهاء الفيضان جماعة من العدول والكتاب القبط الى الولايات والاعمال المختلفة لتحرير ما شملته الري وما زرع من الاراضي وتقدير الخراج وكتابة المكلفات فخرج الى الجهات من يمسحها من شاد وناظر وعدول وتأخر الكتاب القبطي ثم لحقهم فاراد عبور النهر الى الناحية التي مقررا له الذهاب اليها واصر صاحب المعدي اخذ اجرة منه فأعطى ذلك الكتاب القبطي .

كان يختلف من سنة الى اخرى وحسب حلة الري والمصلحة المزروعة.

وتشهر بعض المصادر الاخرى الى ان الذى كان يقوم بصح الاراضى الزراعية، وكتابة المكلفات هم حولة البلاد ويمسهم مباشر الخراج الخاص بالناحية او الاقليم. وان مباشر الخراج فى كل ناحية هو الذى يمين ايضا من يقومون باستخراج الخراج، ومن شاد وعدول تدوى خبوة بعلم المساحة وكاتب امين، وقصابين لقياس الاراضى، ولم يكن هؤلاء جميعا ينتدبون من العاصمة. (١)

فلما انتهت عملية صح الاراضى فى هذه الناحية وكتابة المكلفات التى تحل الى ديوان الخراج الرئيسى كما جرت العادة اضاف هذا الكاتب عشرين فدانا سميت باسم "ارض اللجام" ونسبها الى صاحب المعدية وجعل عليها لكل فدان اربعة دنانير ومدة خراج المكلفون باستخراج ثلث الخراج من هذه الناحية وفقا لما جاء فى المكلفات المذكورة فاستدعوا اصحاب الزرع وكان من بينهم صاحب المعدية وارغوه على دفع ستة وعشرين وثلاثى دينار. فانكر ملكيته للارض وايدى فى ذلك اهل قريته. فلما اعيد النظر فى قوائم الخراج لم توجد اية اشارة الى ارض اللجام وانتهى الامر بحساب الكاتب القبطى على ذلك اشد العقاب انظر : توتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ٣١-٣٢

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٤ ص ٢٤٢-٢٥٢. ويقول بشان ذلك ان الذى يحتاج اليه مباشر الخراج بمصر ويمتد عليه فى مباشرته انه اذا شمل الري ارض الجهة التى مباشرها ان يبدأ بالزام حولة البلاد وفرد ما خولى وهو الذى يقيس الارض برفع قوانين الري ولتضمن هذه القوانين ما شمله الري وهلاه النيل من اراضى الناحية لسنة كذا الخراجية وتكون المساحة بالفدان ويفصلون ذلك بالري اى ما شمله النيل والشراقى وهو ما لم يشمله ماء النيل بعد ذلك يقارن ما جاء بما سبق ذلك فى سنة بلغ فيها النيل ما بلغه فى تلك السنة. ومعدان يسجل ذلك على المزارعين ينظم اوراقا مشتتة بالاسماء والقبائل جمع قبالة - ويشهد على ذلك ومن ثم تسجيل كل هذا فى خضرته ثم يمسح جريدة على اوراق السجلات يشرح فيها اسم كل فلاح وما يسجله من الفدان ويفصل ذلك بقبائله وجهته وقطاعه فاذا نهت الزرع وان وقت حصاده ذهب عند ذلك ما مباشر مساحة الارض من شاد وعدول وكاتب وقصابين يمسحون الاراضى المزروعة بالاسماء والقبائل ويمسحون اصناف المزروعات ويكون مباشروا المساحة قد مسطوا ايضا سجلات التخدير فاذا تكاملت المساحة نظم مباشروها اوراقا يمسحونها المكلفة ثم يعقد المباشرون على جميع ذلك كله ويتفقده ما استخرج منه وجطة ما يجمع للديوان فاذا تم كسل اسم بما عليه كتب طامه ما ثبتت ذلك وان بقى عليه شئ اجمله من بين البواقى.

ونحن نرى انه لما كان لكل اقليم ديوان خراج خاص به — وهو فرج لديوان الخراج الرئيسى فى العاصمة — فمن ثم كان لكل اقليم مباشر للخراج وعليه كان يعتمد مباشر الخراج على موظفين وعمال من نفس الاقليم ، الى جانب انه كان يحضر من ديوان الخراج الرئيسى موظفون يشرفون على الموظفين والعمال المحليين عند القيام بعملهم — ويحصلون على صورة مسجلة لما تم بشأن الاراضى وتقدر الخراج فى كل ناحية ، حتى يطلق عليها صاحب الديوان الرئيسى وموظفيه .

وكان الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون ايضا اوراق الهردى المصرية باسم براءة وكانت هذه الايصالات او البراءات تختم بخاتم بيضاوى الشكل يتضمن عبارة دينية ، يليها اسم الجهيد والصراف . (١) وقد جاء ذكر البراءة فى بعض الروايات القبطية التى تشير الى ان الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك كتب الى والى مصر امره باعطاء براءة لكل من يدفع الخراج ، حتى لا يظلم احد ، ولا تكون فى دولته ظلم . (٢) وكان جابى الضريبة المحلية ينتخبه المكان ويسمى القبال . (٣)

(١) جروهان : اوراق الهردى السفر ٣ ص ١٣٩ — ١٤٢ — ١٤٣ — ١٥١ — ١٥٢ — ١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٦ . وقد عرفت هذه الايصالات ايضا بهذا الاسم فى قطع الاوستراكا — انظر Crum: Coptic Ostraca. PP. 36-37

(٢) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطارقة ١ ج ٢ ص ١٥٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٣ — ونسج عن قبائل قوية فى كورثا لاشمونين فى احدى البرديات المصرية ترجع الى القرن الثانى الهجرى فى رجب سنة ١٣٤ هـ (يناير او فبراير سنة ٧٠٢ م) وتتضمن امر صادر من طمل اشمون الى احد مراسيه ويقول جروهان فى تعليقه على هذه البردية ان كلمة قبائل او قبائل ليس بمعنى الجابى Erheber der grundsteuer بل ينهى ان ينطبق هذا الاسم انطباقا تاما على الوزان الذى يكيل القمح الذى يدخل الى القرى المختلفة برسوم ضريبة الطعام . كما ان هذا اللقب يستعمل كثيرا فى المسائل الخاصة بالنصارى فى ورقى الهردى المخفوظ بكنيسة جامنة هايد ليج . مثلا بولة بنند واق القبال وفى اوراق الهردى بدار الكتب رقم ١٥٩ مينا القبال ورقم ٥٢٤٣ ذرى بن مينا القبال . انظر جروهان : اوراق الهردى السفر ٣ ص ٩٩ — ١٠١

ونستخلص من أوراق البردى ومن المصادر التاريخية المختلفة ان ديوان الخراج
والأموال في العاصمة كانت له فروع في الأقاليم المختلفة وأنه كان يتولاها موظف
يسمى القسطل وكان هؤلاء الموظفين غالبا من القبط . (١) أما من يقوم بجسم
الضرائب ، ويضطلع بتسليم وتحرير دفع الخراج والاعفاء منه والاشراف على الضرائب
فيسمى الجيهنذ وكان هؤلاء الجيهانذة في مصر الاسلمية ، في الغالب من القبط
أيضا . (٢)

ويقول النويري (٣) انه كان يجب على مباشري الجوالي - أي الجزية - ان يلزم
رئيس اليهود ورئيس القبط وغيرهما من طوائف اهل الذمة بكتابة أوراق يسمونها الرقاع ،
يوضحون فيها من استجد في منطقتهم من الطواري (٤) والنوابت (٥) كما يشير
منهم في نهاية الرقاع الى من تحول الى الاسلام ومن توفي وأيضا من خرج من بلده
الى بلد اخر والى أي جهة ذهب ان امكن ذلك وكان هؤلاء ينتقدون دائما احوال
النوابت حتى اذا وصل احد هم الى سن البلوغ ألزم باداء الجزية .

(١) جوهان : أوراق البردى - السفر ٣ ص ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧
١٤٨ .

وتسميه بعض المصادر الحديثة بالقسطل أي الجيم بدلا من القاف .
سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٦٤

(٢) جوهان : أوراق البردى - السفر الثالث ص ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ -
١٦٠ - ١٦٢ - ١٦٧ .

(٣) نهاية الاربع ص ٢٤٢ - ٢٤٥

(٤) الطواريء هم الذين يطرءون على البلاد ولم يكونوا منها .
انظر المصدر السابق حاشية ص ٢٤٢

(٥) النوابت : جمع نابتة ، أي النشىء الصغار والمراد بها هنا من دون البلوغ .
نفس المصدر - حاشية ص ٢٤٢

كان اهالى بعض الكور يقدمون الشكاوى فى بعض الاحيان ضد عمال الضرائب فى مناطقهم ويرفعونها الى صاحب الخراج وطكم الكورة نفسه اللذين كانا من جانبهما يصرطان الى التحقق من مدى صحة الشكاوى او التظلمات . ويتضح لنا ذلك من بردية يرجع تاريخها الى الفترة بين سنتى ١٣٧-١٤٠ هـ (٧٥٤-٧٧٧ م) . وتتضمن هذه البردية اخطارات مدونة بثلاث لغات - اليونانية والقبطية والعربية وخاصة بظلمات من القمدي من قبل عمال الخراج . وهذه الاخطارات خاصة باهالى اخميم الذين رفعوا ظلاماتهم الى صاحب بيت المال والى يزيد بن عبدالله صاحب كورة اخميم وطيطا ضد عامل الضرائب عمرو بن عمار ومولديه . على اساس انهم ظلموا الاهالى ظلما واضحا . وفرضوا عليهم ضرائب لا تتفق مع المعدالة . فنشط يزيد بن عبدالله لفحص اسباب هذه الظلمة وتبين الحقيقة وطلبها تقريراً بشأن ذلك وقع عليه المسئولون المحليون الذين تبينوا ان عمرو بن عمار ومولديه لم يلحقوا اى ظلم ولا اجفاف باهالى اخميم فكتب لهم براءة بذلك اشهد عليها بعض القهود الحاضرين . (١)

ونلاحظ فى الاوراق البردية المتضمنة لقوائم دافعى الخراج والجزية وغيرهم من الضرائب ان هناك كثير من الافراد الذين يؤدون ضريبة الارض - اى الخراج - بينما لا يؤدون ضريبة الرأس (اى الجزية) . وعليه فاننا نشاءل لماذا لا يؤدى هؤلاء الافراد كثيرهم من الذين الجزية ؟

ومن المؤكد انه ليس بين هؤلاء الذين يدفعون الخراج ولا يدفعون الجزية ذميين تركوا دينهم اليهودى او المسيحى واعتنقوا الاسلام . لان مثل هؤلاء يشار اليهم فى اوراق البردى بكلمة مولى Mouléus . (٢) ونحن نرجح ان هؤلاء الذين لا يؤدون الجزية من الفئات التى اشارت احكام الاسلام بشأن الجزية الى اغنائها من ضريبة الرأس .

ونذكر من الاطلة على ذلك بردية تذكر سبعة وخمسين شخصا يؤدون الخراج ولا يؤدون الجزية . ومن بين هؤلاء اثنا عشر امرأة ، واربعة اطفال واربعة قمر وشماس واحد .

(١) جروهان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٢٧-٢٩

(٢) دانييل ديهيت : الجزية والاسلام ص ١٦٥

وليس في بردى افراد يتى كله جالة واحدة يؤدى فيها احد الكهنة ضريبة
الرأس ، وكذلك الشماسة وغيرهم من رجال الدين المسيحي ، لم يذكر احد منهم
كدافعى الجزية . (١)

وهناك مجالات كثيرة لاديرة وكنائس تؤدى ضريبة الارض وضريبة القمح بينما لا يأتى
فيها ذكر لضريبة الرأس الا فى بردية واحدة تتضمن حالات كثيرة لاديرة وكنائس تدفع
الضرائب الخاصة بها ثم تتضمن تفاصيل مبالغ تؤدى بها ستة اديرة خمسة منها خاصة
بضريبة الارض والقمح . اما الدير السادس وهو دير انبا هرموت Anba Hermaotos
فأما مبالغ تحت اسم ضريبة الرأس ومن المرجح ان هذا الدير كان يقوم بدور الوسيط
فى جمع الضرائب من سكان منطقته . ويؤيد ذلك ان انبا هرموت كان يؤدى عن هؤلاء
ضريبة قمح مقدارها سبعة وستين اردب . بينما يتضح من بردية اخرى ان ضريبة
القمح الخاصة بهذا الدير كانت ستة ارب فقط ، وخفض النظر عن هذه
الحالة ، لا يوجد دليل آخر ، على ان الرهبان والقسس كانوا يؤدون
ضريبة رأس .

ويتفق ما جاء فى هذه البرديات مع ما ذكره الفقهاء والملماء المسلمون من اغناء
الرهبان ورجال الدين الذميين من الجزية . يقول الشمرانى (٢) : " واتفقوا على
ان الجزية لا تضرب على نساء اهل الكتاب مطلقا ولا على صبيانهم حتى يبلغوا ولا على
عبيدهم ولا على مجنون واعى وشيخ فان هولا على اهل الصوامع " .

وهكذا وجد فى مصر منذ الفتح العربى طبقة ممتازة من اهل الذمة لا تؤدى ضريبة
الجزية وهم جماعة الرهبان وغيرهم من رجال الكنيسة . ولذلك لجأ كثير من القبط الى
الاديرة وحياة الرهبنة كى يتخلصوا من دفع الجزية وغيرها من الالتزامات المالية
التي فرضها العرب على المصريين الغير مسلمين واستمر الوضع على ذلك حتى كانت

(١) دانييل ديفيت : الجزية والاسلام ١٦٥-١٦٦

(٢) نفس المصدر ص ١٦٦-١٦٧

(٣) الميزان ج ٢ ص ١٢٥ - بينما يرى ابو يوسف ان الرهبان يؤخذ منهم الجزية اذا
كانوا اهل يمار . اما اذا كانوا مساكين يتصدق عليهم . فلا يلزمون بادائهم .
الخروج ص ١٢٢ .

امارة عبدالمزيز بن مروان . (١)

عهد الوالي الاموي عبدالمزيز بن مروان الى ابنه الاصبح بولاية الخراج وجميع وجوه المال في البلاد المصرية فامرا الاصبح باحصاء الرهبان في كل الكور ووادي هبيب وسائر الاماكن وجعل على كل واحد منهم جزية رأس دينار فكان ذلك اول جزية وزنوها الرهبان . كما امر الا يدخل احد في ملك الرهينة بمعد من احصاءه . ولم يتكسب الاصبغ بذلك بل ألزم الاساقفة بدفع مبلغ الف دينار سنويا الى جانب خراج املاك كنائسهم المقرر عليهم ادائه . (٢)

ويبدو ان الزام الرهبان باداء الجزية لم يستمر بعد اولاية عبدالمزيز بن مروان والدليل على ذلك ما تشير اليه المصادر التاريخية من ان اسامة بن زيد قد اعاد احصاء الرهبان ثانية اثنا ولايته لخراج مصر . ذلك انه امر بفتح القري في مصر ثم احصاء الرهبان في جميع ارجاء البلاد . وان يؤسم كل راهب منهم حلقة من حديد في يده اليسرى عليها اسم بيحتمود يره بغير صليب وعليها تاريخ ملكة الاسلام .

(١) ساعد على انتشار الرهينة في مصر قبل الفتح العربي ما قاماه المصريون من الم واضطهاد في ظل الحكم البيزنطي ففضل كثير منهم ان يعيش في عزله عن العالم حتى لا يلزمون باداء الضرائب المختلفة وكانت الاديرة تزداد كثرة على مر الايام وما لبث ان وقف عليها املاك كثيرة وزادت ثروتها . وكانت الحكومة البيزنطية تدفع لها المساعدات العالية . فلما فتح العرب مصر حافظوا على اعطاء هذه الطبقة من القبط من الضرائب . انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٢

(٢) ابن المقفع : سير الابرار البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٤٣ — ابن المقفع : تاريخ المسلمين ص ٢٨ — ٢٩ . الراهب البلاطوس : حصر الملوك في تاريخ البطاركة والملوك ج ١ ص ٢٣١ الانبا ايسيدورس : الخريدة النفيسة ج ٢ ص ١١١ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٢ — ٢٢٣ . والمصادر كلها فيها عدا ابن المقفع تنسب احصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم الى عبدالمزيز بن مروان ونحن نرى انه لا بد من ان يكون الاصبح قد حصل على موافقة ابيه على فرضه الجزية على الرهبان . ويقول بلاطوس ان الاصبح فعل ذلك لكراهيته الشديدة للقبط ولكننا نضيف الى ذلك هذه الحاجة انذاك للاموال لتغطية نفقات تعمير مدينة حلوان وما كانت تحتاجه البلاد من التعمير والاصلاحات وغيرها من وجوه الاتفاق وقد بلغ الامر بعبد المزيز بن مروان انه كان يجمع خراج مصر كل اسبوع وان كان البعض يرى انه فعل ذلك خوفا من فتنة تنزل به ويحتاج فيها للاموال . انظر ابن بطريق : التاريخ المجمع ص ١٠٤١ ابو صالح الارمني ص ٢٢

(١) اى التاريخ الهجرى وكان ذلك فى سنة ٩٦ هـ - كما انه ضيق على هؤلاء الموسومين
ويقول ابن المقفع (٢) : " واذا ظفروا بهارب او غير موسوم قدموه الى الامير فينقب
اعصابه يبقى اعرج * ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحصا
كثير وقتل جماعة وقلع اعين جماعة بغير رحمة *"

ولم يكتف اسامة بن زيد بما قام به من احصاء الرهبان ووسمهم وانما اراد التاكيد
من ان جميع الرهبان موسومين وانه لم يلحق بهم رهبان جدد بعد احصائهم * ففطجا
عماله الديارات المختلفة حيث وجدوا جماعة من الرهبان بدون وسم * فالحق اسامة بهم
هتافا شديدا فضمهم من قطعت رقبته ومنهم من ضرب بالسياط حتى مات * كما ألزم الرهبان
بدفع الف دينار وان يقدم كل واحد منهم دينارا كجزية * وهددهم بهدم الاديروا الكنائس
اذا لم يقوموا بذلك * (٣)

ولما ان تشاء ل لماذا كل هذا الحرص من جانب بعض الولاة المسلمين على
فرض الجزية على الرهبان وكانوا لا يؤدونها من قبل في مصر الاسلامية ؟ الواقع ان كثيرا
من الناس كانوا يهيجون قراهم * ويتركون اعمالهم وارضيتهم تخلصا من الضرائب المفروضة
عليهم وكانت اراضى الاديرة غير معفاة من الضرائب اذ كان عليها الخراج شأنها فى
ذلك شأن غيرها من الاراضى الزراعية * ولم يكن على الرهبان اعباء مالية اخرى * لذلك
كان دخول الاديرة والترهب من امير العبل امام هؤلاء الاشخاص الهاربين من الضرائب
فلما ولى الخراج الاصمغ بن عبد العزيز ثم اسامة بن زيد فطفا الى ذلك فعملا على
الحيلولة دونه بضع الترهيب وفرض الجزية على الرهبان وذلك قضى فى الوقت نفسه على
الدافع المادى الذى كان يشجع كثيرا من الذميين على الرهينة *

فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز المشهور بحزمه وشدته فى تطهير الحكم
الاسلام اهلل جميع اجوات اسامة بن زيد بالنسبة للرهبان بل بلغ به الامرانه اغشى
الاساقفة والكنائس من الجزية والخراج * (٤) ومن المسلم به ان الكنائس والاديرة

(١) ابن المقفع : سير الالباة الهاركة م ١ ج ٢ ص ١٥١ - ابن الحديد : تاريخ

المسلمين ص ٢٩ - الفريزى : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٢) سير الالباة الهاركة م ١ ج ٢ ص ١٥١

(٣) نفس المصدر ص ١٥٢

(٤) نفس المصدر ص ١٥٢

قبل خلافة عمر بن عبد العزيز كانت تؤدى الخراج • ويبدو ان الجزية قد اسقطت من على الرهبان ورجال الكنيسة منذ عصر هذا الخليفة الاموى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حينما اعيدت الجزية على الرهبان فى مصر العباسى فى ولاية احمد بن محمد بن مديبر على الخراج • فأرسل حاله الى الديارات فى مختلف الاقاليم وامرهم باحصاء الرهبان بها • وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى الكنائس وعن النخل والعجر المثمرة والمفروسة فى بيوتهم • (١)

ونحن نرجح ان الجزية على الرهبان قد اسقطها احمد بن طولون عندما ولى امره مصر من بين ما أسقطه من الضرائب من على المصريين التى اثقلت كواهلهم فى ولاية ابن مديبر لخروج مصر • والدليل على ذلك انه قد حدث فى بداية القرن الرابع الهجرى — اى الفترة ما بين سقوط الدولة الطولونية وقيل قيام الدولة الاخشيدية وهى الفترة التى عادت فيها مصر الى التبعية للخلافة العباسية فى بغداد وصار ولايتها يحينون من قبل الخليفة — فقد حدث فى سنة ٣١٣ هـ • ان الوزير عبد الله بن محمد بن خاقان • ارسل على بن موسى الى مصر ليتفقد احوالها فلما دخلها لزم جماعة الرهبان والاساقفة والضعفاء والساكين من اهل الذمة فى جميع انحاء البلاد المصرية بأداء الجزية • فما كان من هؤلاء الرهبان والاساقفة الا ان ارسلوا جماعة منهم الى بغداد للاستغاثة بالخليفة العباسى المقتدر الذى كتب لهم سجلا يتضمن اعفائهم من الجزية • وان تجرى امورهم على ما كانت عليه قديما • • • (٢) وكان هذا الحدث فى عهد والى ابن منصور تكين بن عبد الله المقتصد • (٣) وفيما عدا هذه الفترات التى تحدثنا عنها • كان الرهبان ورجال الكنيسة لا يسودون الجزية •

فذكرنا من قبل انه الى جانب الرهبان كان يحفى من الجزية النساء والاطفال والفقراء • فيقول ابن عاتى (٤) • ان الجزية واجبة على اهل الذمة الاحرار

-
- (١) ابن المقفع : سير الالباة البطارقة ٢ ج ٢ ص ٢٤
 (٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٨٢ • ابن الصمد : تاريخ المسلمين ص ٩٦-٩٧
 (٣) ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٧-٢١٠
 (٤) قوانين الدواوين ص ٣١٧-٣١٨

البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين . واما الشيخ الفانسي وغيره فقيها قولان والفقراء الذين لا كسب لهم ففقيهم ايضا . قولان الاول تجب عليهم . والثاني لا تجب عليهم وظالموا كذا اذا امسرو . وان كان منهم من وجن ويفيق يوما . فالضموح ان تؤخذ منه الجزية . ومن مات منهم او اسلم في اثناء الحول . قبل ان تؤخذ منه لما مضى بقسطه وقيل انه لا تجب عليه فليبر عليه شي .

وقد جاء في بعض اوراق البردي ما يؤكد ذلك . كما كان هناك ايضا بعض افراد مميزين من اهل الذمة محققين من اداء الجزية . ويدل على ذلك قول عمر بن عبد العزيز ان تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يمتنعوا الاسلام ولم تجر عادتهم على القيام بها . ويذكر دانييل ديبيت . (١) بعض الامثلة لهذه الحالات مستمدة على ما جاء في بعض الاوراق البردية سواء اكانوا من الفقراء او النساء او الاطفال او بعض العلماء والموظفين الذين كان لهم بعض المميزات .

وتساءل : هل كان من يمتنع الاسلام من اهل الذمة يلزم بأداء الجزية

والخراج ام ان هذه الضرائب كانت ترفع عن الذم الذي يمتنع الاسلام ؟

اما من ناحية الجزية فيبدو انه في بداية الحكم العربي في مصر لم يفكر احد من الولاة في فرض الجزية على من اسلم من اهل الذمة . وقد اراد عبد العزيز بن مروان ان يبدأ في فرضها بايضا من الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان الا ان ابن حنبل نهاه عن ذلك . وقال له : " اعينك بالله ايها الامير ان تكون اول من سن ذلك بمصر فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من اسلم منهم " فتركهم على ما كانوا عليه لا يؤدون الجزية عند اعتناقهم الاسلام . (٢)

(١) الجزية والاسلام ص ١٢٧-١٢٨

(٢) ابن عبد الحكم : فتح مصر والمغرب ص ٢١٠

وكان اول من اخذ الجزية من اسلم من اهل الذمة الحجاج بن يوسف

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، رغب في تشجيع الذميين على الاسلام وذلك عن طريق اغنائهم من بعض الاعباء المالية التي كانوا يلتزمون بأدائها للحكومة المصرية ، واهمها الجزية . فكتب الى عماله : " من شهد شهادتنا واستقبل قبيلتنا • واختسن فلا تأخذوا منه جزية • " (١) وطلبه أمر واليه على مصر بالعمل على ذلك وتسجيل اسماء من يعتنق الاسلام من اهل الذمة في الديوان وكتب الى حيان بن سريح يأمره برفع الجزية عن اسلم من الذميين واستشهد في ذلك بقوله تعالى (فان تابوا واقاموا الصلاة ، واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم • ان الله غفور رحيم) • (٢)

ويبدو انه قد نجح عن ذلك ان ضعفت إيرادات مصر فلما ادرك ذلك واليها حيان بن سريح كتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول له : " اما بعد فان الاسلام قد اضربا الجزية حتى سلفت من الطرث بن ثابتة عشرين الف دينار وتعت علاء اهل الديوان • فان وأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل • وهكذا رغب والى مصر فسي اخذ الجزية من اسلم من اهل الذمة — بينما رفض الخليفة ذلك وكتب اليه بقبول رأيه ويقول له : " فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولمعري • ليعر احقر من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه • " (٣)

ويعلق توماس ارنولد (٤) على ذلك فيقول : ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك اعرقوا ان حل هذه السياسة تضربا للدولة لاسباب تتعلق بمال الجباية والحقوا بان يؤدي الذين يدخلون في الاسلام الضرائب كما كانوا يؤديونها من قبل • على ان حل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار ، وعمل كل والى من هؤلاء الولاة برأيه بصورة تقوم على التعسف وعدم النظام •

(١) ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٦ ط ليون

المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٢٥

(٤) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٤ — ١٢٥

ونحن نشفق مع توماس رنولد فيما ذهب اليه من ان سياسة عرب بن عبد العزيز قد اتبعتها بعض الولاة والخلفاء الذين حكموا بعده ، ومنهم الوالى حفص بن الوليد الذى ولى مصر فى سنة ١٠٨ هـ (٧٤٤ م) فقد حدث انه لما وعد اهل الذمة بالاعفاء من الجزية اذا هم تركوا دينهم اليهودى او المسيحى واعتنقوا الاسلام اسلم من اهل الذمة حوالى اربعة وعشرون الفا . (١)

وتكرر حدوث ذلك ايضا فى عهد الخليفة ابي العباس عبد الله السفاح - فى مطلع الدولة العباسية - حينما اظن هذا الخليفة سياسته - فقال : " ان كل من يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بخير جزية . فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكثر كتمانهم من الفقراء والاعفاء دين المسيح وتبعوه " . (٢) وهكذا حرر اغلب ولاية مصر على اخذ الجزية من اسلم من اهل الذمة الا فى الفترات المحدودة التى اشرفنا اليها .

اما بالنسبة للخراج ، ووضعه عن ارض من يمتنع الاسلام من اهل الذمة فلم نجد اية اشارة اليه فى المصادر المختلفة . ونحن نرى انه لما كانت مصر قد عرفت معاملة البلاد المفتوحة صلحا ، ففرض على رؤس وطلها الجزية وعلى اواضيها الخراج فلا بد ان الخراج لم يرفع عن ارض الذمى حتى بعد تركه دينه واحتناقه الاسلام . وكان ذلك فى الواقع يتفق وما ذهب اليه الفقهاء المسلمون .

قال مالك بن انس : ان من اسلم من اهل الصلح فهو احق بأرضه وماله ، أما اهل العنوة فمن اسلم منهم تصير ارضه للمسلمين . لان اهل العنوة ظبوا على بلادهم ، وصارت فينا للمسلمين ولان اهل الصلح انما هم قوم اعتنقوا وضحو بلادهم حتى صالحوا عليها وليس عليهم الا ما صالحوا عليه . ولا أرى ان يزد عليهم ولا يؤخذ منهم الا ما فسررض عمن الخلاب لان عمر خطب الناس فقال : قد فرضت لكم الفرائض وسقنت لكم السنن وتسرركم على الواضحة . (٣)

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٥

(٢) ابن القفج : سهر الا بابه البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٣) كتاب الخراج ص ٢١

لما ورد
كلمة
نزل

(١) بينما يقول يحيى بن آدم القوشى : " من اسلم من اهل الصلح ، رفع الخراج عن رأسه وعن ارضه ، وتصير ارضه ارض عشر . الا ان يكون من اهل الصلح ، صولحوا على ان يوضع على رؤوسهم الجزية وعلى ارضهم الخراج ، فمن اسلم رفعت الجزية عن رأسه ، وكان الخراج على ارضه على حاله . "

ونلص من دراستنا ان كثيرا من الولاة كان يحرص اشد الحرص على تحصيل الجزية والخراج من الذمى الذى يترك دينه ويعتق الاسلام . بل بانغ بعض الولاة فى ذلك حتى انهم اصرروا على اخذ جزية الموتى الذميين من تركاتهم او من اقاربهم من اهل الذمة ، وتشير بعض الروايات التاريخية الى حدوث ذلك فى مصر على ايدى الولاة الامويين . بينما لم يحدث ذلك فى عصر الولاة العباسيين او عهد الدولة المستقلة — الطولونية والافطحية .

وكان اول حدوث ذلك فى عهد والى عبد الله بن عبد الملك — الذى ولى امرة مصر بعد عبد العزيز بن مروان — الذى اشتهر بتقده ، مع اهل الذمة وزيادته الخراج عليهم . فتشير الرواية القبطية الى تمسكه الشديد باخذ جزية موتى القبط . فتقول : " وامر ان لا يدفن ميت حتى يقوموا به بالجزية . " حتى ان المستورين الذين لا يقدرون على الخبر اذا ماتوا لا يدفنهم احد الا بأمره . . . (٢) والواضح لنا ان مثل هذا الاجراء كان لا يستمر طويلا ، اذ سوطان ما يظل الاخذ به بوقاة من منه او زوال امره .

اما المرة الثانية التى ألزم فيها الاحياء من اهل الذمة وخاصة القبط بهاد الجزية موتاهم فكانت فى عهد الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز وولاية حيان بن سريح وقد سبق ان ذكرنا ان اسلم الذميين المتوالى فى عصر هذا الخليفة ووضع الجزية عن اسلم قد اضر بايرادات مصر وانقص دخلها . ويبدو ان حيان بن سريح فكر فى ان يلزم الاحياء من اهل الذمة بدفع جزية موتاهم لهم موزع ذلك ما حدث فى دخل

(١) ابن المقفع : سيرة الائمة الهداية ج ١ ص ١٤٥

(٢) المرجع السابق .

مصر من نقص فكتب في هذا الامر الى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تردد فمضى
بادى الامر وسأل عراك بن مالك واستفتاه بشأن ذلك فقال له عراك : " ما سمعت
لهم بمقعد ولا عهد انما اخذوا غنوة بمنزلة العبيد " عند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز
يا امرؤ اليه على مصر ان يجعل جزية موثى القبط على احيائهم . (١)

ويقول ابن عبد الحكم (٢) في ذلك : " وذلك يدل على ان عمر بن عبد العزيز
كان يرى ان ارض مصر فتحت غنوة وان الجزية انما هي على القرى فمن مات من اهل
القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم " وان موت من مات منهم لا يوضع منهم من الجزية شيئاً
... ويحتمل ان تكون مصر فتحت بصلح ، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم " وان
موت من مات منهم لا يوضع منهم ما صالحوا عليه شيئاً " .

ولعل ذلك هو الذى دفع هذا الطرخ الى ان يقول ان الجزية فى مصر جزيتان :
جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على اهل القرية ويؤخذ بها اهل القوية . فمن
هلك من اهل القرية التى عليهم جزية مسماه على القرية وليست على رؤوس الرجال .
ومن لا ولد له ولا وارث ، ترجع ارضه الى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية . ومن هلك
من جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثاً ، فان ارضه للمسلمين . وقال عمرو بن عبد
المعز : ان الجزية على الرؤوس وليست على الارض " . (٣)

وقد اثقل كثير من الولاة فى مصر ، كاهل اهل الذمة وخاصة القبط بالاعباء
المالية وتشددوا فى جباية الضرائب فلجأ كثير من القبط الى المقاومة السلبية فى بادى
الامر ، فهرب كثير منهم من المناطق التى يقيمون فيها الى مناطق اخرى
وخاصة بعد ان ادركوا انه لا فائدة من الاحصام بالاديرة بعد ان فوض الاصبح بمن
عبد العزيز الجزية على الرهبان — وما لاشك فيه ان حركة الهروب هذه كان لها

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٨١ — وفتح مصر والمغرب ص ٢٠٨

ابن الجزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص ٦٠

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨

انتهى في مالية البلاد ، الى جانب ما كانت تشيره من القوضى والاضطراب

وقد اخذ الولاة المسلمون منذ ولاية عبداللہ بن عبدالملک — الذى زاد الخراج على القبط فجعل من عليه خراج دينار يؤدى ديناراً وثلاثين — يتشددون فى مراقبة الابقمين والحد من حركتهم . فأمر عبداللہ بن عبدالملک بوصم الفراء الذين وجدوا فى الاقاليم المختلفة على ايديهم وجباههم ثم امر بارسالهم الى مناطق مختلفة فيسر التى نزلوا فيها . (١)

استمرت حركة الهروب بعد ذلك فى ولاية قره بن شريك بل اتخذت فى عصر هذا الولاى شكلاً واسع النطاق — فكانت غارات باكلها من الرجال والنساء والاطفال تهرب من منطقة الى اخرى تخلصا من عب الضرائب مما اضطر قره بن شريك الى تعيين جماعة خاصة لمراقبة هذه الحركة وايقافها . ويقول ابن المقفع (٢) بشأن ذلك : " وكان الناس يهربون ونساءهم واولادهم من مكان الى مكان . ولا يأويهم موضع ممن اجل البلايا . ومطالبات الخراج وعظم ظلمه اكثر من تقدمه ثم انه ولى انسان اسمه عبدالعزیز من مدينة سخط وكان يجمع الذين هربوا من كل موضع ويرد هم ويوطئهم ، ويحاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه " .

ونحن نرى ان ذلك كان طبيعياً من جانب القبط فى مصر فى ذلك المصمر ، وخاصة اذا علمنا ان قره بن شريك قد طالب اهل الذمة بدفع الجزية الطاخرة عليهم ، منذ عهد سلفوتشدد فى ذلك . (٣) كما انه كان يفرض احياناً ضرائب غير عادية عليهم . (٤) ثم انه قسّر على البلاد مائة ألف دينار الى جانب ما هو مقرراً من الخراج . (٥)

(١) ابن المقفع : سيرة الالاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٥

(٢) نفس المصدر ص ١٤٦

(٣) جروهمان : اوراق البردى — السفر ٣ ص ٤٨ — ٤٩

(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodis Paptiri. (٤)

PP. 272, 281, 283.

(٥) ابن المقفع : سيرة الالاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٤٦

وهناك بردية ثلاثة يالـب فيها قرة بن شريك من صاحب كورة اشقوه ان يرسل اليه الهاربين واسرهم ومناهم . وان يعد له سجلا باسماء الاعضاء الذين ارسلوا ، ويحدد في اى موضع من كورته هموا ، واملاك كل شخص والوقت الذى امضاه فى كورته وكل معلومات لازمة عن الهاربين كذبة او مطبأة . وان يرسل الهاربين وهذه المعلومات عنهم مع المندوب الذى ارسله قرة لهذا الغرض ويهدده بأشد انواع العقاب الجسدى والمالى . اذا توانى فى تنفيذ ذلك ، او تفاقل عن احد الهاربين . كما نراه فى هذا الكتاب يهدد الذين يأوون الهاربين ، بدفع غرامة كبيرة تفوق قدراتهم وامكانياتهم المادية . (١)

Bell : Op. Cit., PP. 269 - 270

(١) =

دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧١ — سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ٢٢٨ — ونذكر جزءا من نص البردية المشار اليها وقد جاء فيه : " ابحثوا الى الابقين رجلا يتوفر فيهم العدل ويعرفون الكتابة بتعليمات ان ينقلوا معهم الى لجنة الابقين وان يسجلوا فى خضرهم اسم كل ابق ولقبه وكذلك المكان الذى فر منه والمكان الذى حل فيه وفى اى اقليم . وذلك فى الحالتين : حلة الذين ردوا الى بلادهم . وحالة الذين سمح لهم بالبقاء حيث نزلوا وبشرط ان يؤدوا ما عليهم من ضرائب انظر ، Bell: P. 270

Bell : Op. Cit. , PP. 274 - 275

(١)

دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧١ — ١٧٢ — سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ٢٨٨ وهذا بعض ما جاء فى هذه البردية — اقمم اتنا اذا وجدنا بعد عودة رسولنا ابقا واحدا لم يسجل اسمه فى القائمة التى تبعثون بها الينا لتعاقبكم اخف العقاب الامر الذى يسحقكم محقا . بغرامة فاحشة وقصا حريدى موقمين الغرامة ايضا على سكان المكان الذى يوجد فيه مثل هذا الابق غرامة فاحشة باهظة ومنجرد رؤساءه والقائمين على الادارة فيها وحراسها تجريدا ثم نوقع عليهم قصاصا بدينا لاهك يفوق اقصى ما يتصورونه من عذاب . فلن تتحرك بمون الله اقليما واحدا فى مصر دون ان نبعث اليه بمملائتنا الامناء القادرين مزودين بتعليمات ان ينقبوا ويفتشوا بحمية وغيرة ودقة عن اولئك الابقين وان يأمرؤا كذلك بمكافحة كل من يعطى معلومات عن اى ابق مخفى من اولئك الابقين الذين امرنا بارسالهم الينا ومكافحة تفوق كل مكافحة يتوقعها كل من يزود بمعلومات . انظر ، Bell: P. 275

ونستخلص من هذه الوثيقة أن بعض الأهالي كانوا يرجعون بالابقين إلى بلادهم ويخفونهم في منازلهم. ويؤكد لنا ذلك ما جاء في البردية رقم ١٣٨٤ من بردى أفندي حتى لكل من يثبت أنه يخفي أحداً من الابقين بمقد هولا* سنوق عليه غرامة وقد رها عشرة دنانير عن كل رجل وسنوق على الابق غرامة قد رها خمسة دنانير وعلى الإداريين والرؤساء والبوليس خمسة دنانير. وسيكافأ بدنانيرين عن كل آبق. كل من يزود بمعلومات بمقد اعداد القائمة* (١)

وهكذا استمر قوة بن شريك يراقب حركة الابقين بمزمن ونشاط مطولا وقفها بمختلف الوسائل حتى توفي وانتهت ولايته على مصر في سنة ٩٦ هـ. وولّى خراج مصر في هذه السنة أسامة بن زيد. وقد استمرت في عهده حركة الهروب. ذلك أنه تشدد في جباية الضرائب المقررة على أهل الذمة ولذلك نجده يأمر المصريين بالأيأوى أحد منهم غريباً في الكنائس والفنادق أو السواحل ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان يلون بهم من الغريباء الابقين. (٢)

ومن أجل وضع حد لهذه الحركة التي كانت تسمى إلى مائة البلاد بالاضافة إلى ما كانت تسببه من الفوضى والاضطراب أمر أسامة بن زيد بعمل سجلات للأهالي أشبه بجوازات السفر اليوم والزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى في البلاد المصرية أو يريد ركوب سفينة أو النزول فيها أن يحمل معه سجلاً. وأمر عال به بالقبض على أي شخص يوجد ماشياً أو عابراً من موضع إلى موضع وليس معه سجله. وإذا وجد شخص في سفينة بدون سجل ينهب ما في العركب وتشعل فيها النار.

(١) Bell: Op.Cit., PP. 379 - 380

دانييل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٧٢ - وأمر حاكم الكورة أن يجمع كبسار رجال كورته ورجال الشرطة. ويقروا عليهم هذا الكتاب. ويطلب منهم كتابة نسخة منقوذة منها على جميع الناس في كل مكان داخل الكورة.

(٢) ابن المقفع : سيرة الالباء البطارقة م ١ ج ١ ص ١٥١

اما من فقد سجله أو أصابه التلف لسبب من الاسباب فلا يمكنه الحصول على سجل آخر
الا بدفع غرامة قدرها خمسة دنانير. (١)

على المهر

وهكذا كان اهل الذمة — خاصة — والمصريون عامة ، يقاسون احيانا من التمدد
في جباية الضرائب المختلفة التي اشغلت كواهلهم في بعض الفترات ، وبالرغم من ان الخليفة
عمر بن عبد العزيز كان قد امر برفع الجزية والخراج — كما ذكرنا — عن الكتائب والاماقفة
والرهبان — الا ان خلفه يزيد بن عبد الملك ، أعاد الجزية والخراج الى ما كانت عليه ،
قبل عصر سلفه عمر بن عبد العزيز واخذ جميع المسيحيين بالصدقة في اداء الالتزامات
المالية . (٢)

-
- (١) نفس المصدر ص ١٥١ — ومسوق لنا قصة امرأة ارملة خرجت مع ولدها من الاسكندرية
ومعهما سجلهما فنزل ولدها يشرب من البحر ففترق ومعهما السجل — فمادت الى
الاسكندرية ، واخبرت المسؤولين عما حدث لها ولكن لم يرأف احد بطلبها . بل
امر حاكم الاسكندرية باعتقالها حتى تدفع عشرة دنانير نظير سجلا آخر مما اضطرها
الى بيع ثيابها وكأ . ما تملك بل اضطرت الى طلب الصدقة حتى تجمع المبلغ
المطلوب انظر نفس المصدر ص ١٥١ — ١٥٢ . ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٦٩
(٢) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٢

٧- ثورات المصريين وأثرها في التعريب

استمر ولاية مصر في تشدد هم في جباية الجزية والخراج وغيرها من الالتزامات المالية التي يلتزمها أهل الذمة ، بل زادوا في مقدارها أحيانا مادفع القبط وهم يمثلون جانباً كبيراً من أهالي مصر إلى المقاومة الايجابية وترك المقاومة السلبية وتلمس ذلك في العهد الذي تولى فيه عبيد الله بن الحبيب خراج مصر في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فقد أمر عبيد الله بإحصاء الناس والدواب وما ن تقاس الاراضي وتحصى الكروم حتى يمكن تحديد مساحة كل من الاراضي الزراعية والاراضي البور . ووضع علامات في الاراضي المصرية . على الحدود والطرق كما انه ضاعف الخراج . وأمر بختم رقاب الذميين من (١) سن العشرين إلى المائة . بختام من الرصاص ووسم أيدي المسيحيين منهم بوسم الاسد . وقد زاد عبيد الله في الخراج على كل دينار قيراطاً . (٢)

وأمام هذه الاعباء المالية المتزايدة ، بدأ المصريون القبط لأول مرة في تاريخ مصر الاسلامية يتكون المقاومة السلبية ويقاومون الحرب مقاومة ايجابية . فقاموا بأول ثورة في وجه الحكومة الاسلامية في سنة ١٠٧ هـ . وتركزت الثورة في الوجه البحري . وكان والي مصر آنذاك الحارث بن يوسف الذي بادى بارسال الجند اليهم فطربوهم وقتلوا من القبط نفراً كثيراً . (٣)

وقد تطابعت ثورات القبط بعد ذلك وشملت الوجه القبلي الى جانب الوجه البحري ففي سنة ١٢١ هـ . في ولاية حنظلة بن صفوان انتفض أهل الصعيد وحسارب القبط عاملهم فأصرح حنظلة بارسال الجند لمحاربتهم والقضاء على هذه الحركة . وتمكن الجند من قمع هذه الحركة وقتل كثير من القبط . (٤)

-
- (١) ابن المقفع : سيرالاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٤
 (٢) المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٤ - ويقول ابن المقفع انه زاد على الدينار ثمن دينار . انظر سيرالاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٩
 (٢) الكندي : الولاة والقضاء ص ٧٣-٧٤ - المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٤
 ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٩ - ولحل هذه الثورة وما كان من قمع الحكومة لها هي ما قصده ابن المقفع بصياغة التالية : " فلما عظم التمثب والقيام بالخراج الذي اضعفه عليهم ثار حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بارض مصر بين القبيلتين في اول مدينة بنى ومدينة صا ومدينة سمند وما يجاورهم ومواضع كثيرة في اسفل الارض . وكذلك كان في الطرق والجبال والبطر .
 انظر : سيرالاباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٥٤-١٥٥

وفي سنة ١٣٢ هـ خرج رجل من القبط بمحمود وكان يسمى يحنس وثار ضد حكومة العرب في ولاية عبد الملك بن موسى النصيري الذي بحث اليه بالجيش فهمزهم وقتل نفر من اصحابه. (١)

ثم ثار القبط في رشيد في نفس هذا العام فلما وصل مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين الى مصر قارا من وجه خصومه المباسيين ارسل اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم. (٢) كذلك ثار اهل البشرد في نفس السنة اي سنة ١٣٢ هـ وكان على رأسهم مينا ابن بقيقة وامتنعوا عن اداء الخراج وخرج عبد الملك بنفسه لقتالهم وقصع ثورتهم الا ان البشرديين تمكنوا من هزيمته. فأرسل اليهم عسكريا آخر. يساعده اسطول في البحر ولكنهم تغلبوا عليهم ايضا في البر والبحر. ورأى مروان بن محمد مصالحتهم ومصلحتهم نظرا لاقترب خصومه المباسيين منه. فكتب اليهم بالعهد والامان الا انهم رفضوا ذلك فارسل اليهم جيوشا كثيرة ولكنها لم تتمكن من الوصول اليهم. لانهم تحصنوا في مواضع الوحلات التي لا يقدر ان يصل اليها سوى رجل ٥ رجل ٥٠ فاذا ذلك قدمه في الطريق ٥ هلك ٥ وكان الصاكر يخرسونهم برا. فيخرجون لهم في الليل البشامة من طرق يعرفونها يتلصصوا عليهم ويقتلوا من قد روا على قتله ويسرقوا اموالهم وخيلهم فيطول عليهم الامر فيرحلوا عنهم. (٣)

وهكذا اخفق مروان وجنوده في القضاء على ثورة البشرديين والزامهم الهدوء وأرغمهم على اداء ما عليهم من الضرائب. وقد اتهم البطرك انبا خايل بانه حرضهم

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٨١ — المقرئ : الخطط : ج ٤ ص ٣٩٥
ابو المظن : النجوم الزاهرة. ج ١ ص ٢٨١

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٤
المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٢) الكندي الولاة والقضاة ص ٩٦ — المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٣) ابن المقفع : سيرة الالباء البطارقة م ١ ج ١ ص ١٩١

على الثورة والحصيان فقبض عليه وألحق به قواد مروان كثيرا من ألوان التعذيب، وأرادوا قتله ولكنهم في نهاية الامر فكروا في حيلة معهم الى البشامة ليهدي من روعهم، ورضطهم الى السكينة والهدوء، ويعلمهم ان كل ما أصابه يرجع الى تمردهم وعصيانهم، وعليه خرج الجند وصحبهم البطرك الى البشامة، الا انهم تمكنوا من هزيمتهم، هزيمة ساحقة، وقتلوا اكثر جند مروان، وطردوا الباقي، ومن ثم عجز مروان وجنده عن القضاء على انتفاخ هؤلاء القبط، ولما لبث ان تمكن العباسيون من دخول مصر والقضاء على الخلافة الاموية نهائيا، فتفاهل القبط خيرا في مصر، وخضعت ثورة البشامة. (١)

وبالرغم من ذلك فالمشكلة المالية بالنسبة للقبط لم تنته بقيام الدولة العباسية وزوال حكم الامويين، بل زادت الضرائب عما كانت عليه زمن الامويين، ان لم تكن ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية حتى ضعف الخراج على القبط، ولم يتحقق ما وعدهم العباسيون به من التخفيف عنهم في الاعباء المالية. (٢)

وسرطان ما عاد القبط الى الانتفاخ والثورة والامتناع عن أداء الخراج وغيره من الضرائب، فثار قبط ممنود في سنة ١٣٥ هـ في عهد والي أبي عون عبد الملك بن يزيد عندما ولي مصر في المرة الاولى (١٣٣-١٣٦ هـ) فبادر بارسال جيش لقتالهم فتمكن من هزيمتهم وقتل زعيمهم (أبو مينا). (٣)

وثار قبط سغا في سنة ١٥٠ هـ في عهد والي مصر يزيد بن حاتم بن قبيصة، وطردوا العمال المسلمين وانضم الى هذه الثورة جماعة البشوريين وحضرها هالي الوجه البحري فبعث اليهم يزيد بن حاتم بالحاكر لقتلهم والقضاء على ثورتهم الا ان القبط في هذه المرة تمكنوا من هزيمة المسلمين وقتل كثير من امرائهم وقوادهم. (٤)

(١) نفس المصدر ص ١٩١-١٩٢ و ١٩٤-٢٠٥

(٢) ابن المقفع: سير الالاء البطركام ١ ج ٢ ص ٢٠٥ - ابو المطاسن: النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٥-٣٢٦

(٣) المقرئ: الخط ج ٢ ص ٩١

(٤) الكندي: الولة والقضاء ص ١١٦-١١٧ - المقرئ: ج ٢ ص ٩٣ - ج ٤ ص ٣٩٦
ابو المطاسن: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣

وفي سنة ١٥٦ هـ انتفض القبط على العمال العرب وكان ذلك في عهد الوالي موسى بن علي رباح اللخمي فويلهيبه فأرسل موسى بن علي اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم والقضاء على تمردهم. (١) ويبدو انه قبض على نفر كبير من القبط . ويقسول ابو المطاسن (٢) انه قتل منهم جماعة وغنى عن جماعة اخرى .

واستمر الولاة المسلمون بالرغم من ذلك يضاعفون الخراج ويتشددون في جباية الضرائب وعليه استمر القبط من جانبهم في الانتفاض واعلان العصيان خاصة في بعض اقاليم الوجه البحري وقد شاركهم في الثورة والانتفاض العرب في مصر ففي سنة ١٧٨ هـ زاد اسحق ابن سليمان الخراج على المصريين فخرج عليه اهل الحوف فقاتلهم ولكنهم لم يتمكن من القضاء على عصيانهم نهائيا ، فبعث الخليفة هارون الرشيد اليه هرثة بن اعين في جيش عظيم ونزل اقليم الحوف ، فأدعن اهل له بالطاعة ودفنوا ما قرر عليهم من الخراج ثم خرج اهل الحوف مرة ثانية على الليث بن الفضل لانه بعث بمساحين لمسح الاراضي الزراعية فانقصوا من القصة اصابعها . فتظلم الناس الى الليث الا انه لم يستحب اليهم فصاروا الى الفسطاط في سنة ١٨٦ هـ لقتاله الا انه تمكن من هزيمتهم وامتنعوا عن اداء الخراج في السنة التالية مما اضطر لليث بن الفضل السي الخروج الى بغداد في المحرم سنة ١٨٧ هـ وطلب من الخليفة الرشيد ان يرسل برفقته جيشا يمكنه من جباية خراج اهل الحوف . فسأل مخوف بن سليم ، الخليفة ، ان يوليه خراج مصر ومن له الجباية بلا حوط ولا عشا . فعهد اليه الخليفة بذلك الا ان اهل الحوف كانوا كثيرا ما يمتنعون عن اداء الخراج المقرر. (٣) وبالرغم من اننا لانجد في هذه الاحداث تحديدا للقبط ، او سواهم ممن قاموا بالثورة فاننا نرجح انه قد شارك العرب المسلمون ، القبط في هذا العصيان والامتناع عن اداء الخراج ، وخاصة ان عددهم قد زاد في مصر وتوسع انتشارهم في المدن والقرى المصرية واشتغل الكثير منهم بالزراعة .

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١١٩ - المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٩٣ ج ٤ ص ٣٩٦

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥

(٣) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٢١ - ١٣٠

كانت آخر ثورة للقبط في مصر او بمعنى اخر ، آخر مطولة لهم في المطروحة الايجابية نتيجة تشدد بعض الولاة ومضاغة الخراج عليهم في سنة ٢١٦ هـ في عهد الخليفة العباسي المأمون ، وولاية عيسى بن منصور على مصر . وقد شارك المصري القبط في هذه الثورة وتقول الرواية المصرية : " انتقضت اسفل الارض كلها عرشها وقبطنها في جمادى الاول في سنة ٢١٦ هـ واخرجوا العمال وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم " . (١) بينما تشير الرواية القبطية الى ان الخراج ، كان يتولى امره في ذلك الحين شخصان هما : احمد بن الاسبط والثاني : ابراهيم بن تميم . وكانا يتصفان بالقسوة والمنف في جباية خراج مصر ، ما أزهق الناس وجمعهم في ضيق شديد ، أدى الى الثورة واعلان العصيان . (٢)

ويبدو ان هذه الثورة كانت من اشد ثورات القبط واعنفها خاصة وانهم قد تعاون كل من القبط والحرب المسلمين فيها فصاروا قوة لا يستهان بها لدرجة بلغت معها ان والى مصر عيسى بن منصور وجنوده لم يفجحوا في الصمود امام جموع الثائرين حتى قدم اليهم الافشين من بركة . (٣) وتمكن من التغلب على الثائرين وسدد جمعهم ثم توجه الى مذاقة الحوافل شرقى حيث تمكن من هزيمة الثائرين به ، وأرسل فى نفس الوقت عيسى بن منصور وبعض القواد الاخرين الى مختلف الجهات بالوجه البحرى . ثم سار الافشين الى الاسكندرية فهزم الثائرين فيها وسيطر على المدينة وتفرغ الافشين بعد ذلك للقضاء على تمرد البشمويين وعصيانهم (اهل البشمو) . (٤)

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠ .

المقريزى : الخطط ج١ ص ١٣٠

(٢) ابن العلقم : سير الالاء البطارقة م ١ ج٢ ص ٢٧٦

(٣) ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٥-٢١٦

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠-١٩١ . ابو الحسن : النجوم الزاهرة

ج٢ ص ٢١٦ .

ويقول ابن العلقم (م ١ ج٢ ص ٢٧٦) انه لما انتهى الى المأمون حل مصر وما فعله الثائرون بها بعث اليهم عسكريا بقيادة الافشين فقتل الذين نافقوا وال خارجين عليه فى شرقى مصر الى ان وصل الاسكندرية فأراد قتل اهلها لانهم مكثوا الثائرين من دخول المدينة .

ويبدو ان البشوريين كانوا قد قاسوا كثيرا من عذاب الخراج مما اضطرهم الى بيع اولادهم والعزل في الطواحين بدلا من الدواب فتقول الرواية القبطية : " واكثر النصارى البشوريين • كانوا يمتدحون بعذاب شديد مثل بنى اسرائيل الى ان باعوا اولادهم في الخراج من كثرة المذاب لانهم كانوا يرمطوهم في الطواحين ويضربوهم حتى يطحنوا مثل الدواب • وكان الذي يمتدحهم رجل يصرف (غيث) او (بغيت) وتمادت عليهم الايام وانتهوا الى الموت " . (١)

وما لاشك فيه ان الظلم يولد الانفجار • وكان من الطبيعي — نتيجة لذلك — ان ينتفض البشوريون ويمتنعوا عن اداء الخراج المقرر عليهم • وكان من اكبر المواصل المشجعة لهم على ذلك طبيعة ارضهم • فلما نظرا هل البشوريين ان لهم اهلهم موضع يخرجوا منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحوش فيه وما يصرف طريقهم الا هم فبدوا يناقشون ويمتنعوا ان يدفعوا الخراج • واتفقوا وتآمروا على ذلك • (٢)

ومع ان انتهى الافشين من امر الوجه البحرى واخضع مدينة الاسكندرية • فتفرغ للقضاء على ثورة البشامة ولكنه عجز عن التغلب عليهم فقد استصروا في حصانهم • وكتب الافشين بذلك الى الخليفة المأمون في بغداد • (٣) فلما علم المأمون بما وصلت

(١) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٦ • وقد حزن البطرك انها يوساب لتمرد هؤلاء القوم لانهم في النهاية سوف يمحزون عن المقاومة • فكتب اليهم كتابا كثيرة يخوفهم فيها • ويرد عليهم عما هم متعادون فيه • الا انهم لم يكونوا يعطون ذلك اى اهتمام • ومع ذلك استمر يقاتلهم ويستشهد لهم في كتبه ببعض الاقوال الماثورة مثل : " كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله • والذي يقاوم يدان ويذكر ابن المقفع انه لما وصلت كتب البطرك الى البشامة وثبوا على الاساقفة ونهبوا جميع ما معهم وأهانوهم كثيرا • انظر نفس المصدر ص ٢٢٧

(٣) ابن المقفع : سيرة الابطاء البطارقة م ١ ج ٢ ص ٢٢٧ — الكندي : السولة والقضاة ص ١٩١

اليه حال البشارة في مصر قدم اليها واصطاحت بطرك انطاكيا انبا ديونوسيوس . (١)
ودخل المأمون مصر في المحرم سنة ٢١٧ هـ وسخط على الوالي عيسى بن منصور
وصاله وقال له : " لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتهم
الناس ما لا يطيقون وكتبتوني الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد " . (٢)

ونحن نرجح ان المأمون اراد باصطحاب بطرك انطاكيا ان يعتمد على الاثر
الذي ينفذ على كل من بطرك انطاكيا وطررك مصر على الثائرين . فيستجيبوا له
لما له من مكانة وحية لدى المسيحيين ورئاسة دينية عليهم . ولذا طلب المأمون من
البطركين التوجه الى هولا الثائرين لتهدئة وعهم ورضائهم . وقال له : " ان تضي
الى هولا القوم وتردعوهم كما يجب في ناموسكم ليرجعوا عن خلافهم . ويطيعوا امرى
فان اجابوا فانا افضل منهم الخير في كل ما يطلبوه منى وان تمادى على الخلافه
فنحن برئين من دمائهم " . وتوجه البطرك ديونوسيوس والبطرك انبا يوساب الى
اهل البشور وحاولا ارشادهم ونصحهم حتى يتخلوا عن صيانتهم ويضعوا حدا لتمردهم
ولكن بدون جدوى فقد اصر البشوريون على موقفهم من الحكومة الاسلامية . (٣)

فلما ادرك المأمون اصرار البشوريين على الثورة ارسل الافشين على رأس الجيش
لقتالهم ولكنه اخفق لحصانة موضعهم . فخرج المأمون لقتالهم وحشد معه جميع من
يعرف طرقهم من اهل المدن والقرى المجاورة وترك كل قوته ضد هم حتى اضطروا
الى التسليم فاعل الجند فيهم الحيف وأخربوا صاكنهم ونهبوها . واشعلوا فيها
النار . وهدموا كنائسهم . (٤)

ويقول المقرئى : (٥) " فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية . فيبيعوا
وسبى اكرهم . . ومن حينئذ ذلت القبط في جميع ارض مصر ولم يقدر احد منهم بعد

(١) ابن المقفع : سيرة ابا البطرك م ١ ج ٢ ص ٢٧٨ . وميخائيل يسمى البشوريين

Biamayé أنظر Chronique de Michel le Syrien, T.3/, fasc.1, P.67

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٩٢

(٣) ابن المقفع : سيرة ابا البطرك م ١ ج ٢ ص ٢٧٩ Chronique de Michel le Syrien, T.3, fasc.1, PP.77-78

(٤) ابن المقفع : سيرة ابا البطرك م ١ ج ٢ ص ٢٧٩

(٥) الخطاط ج ٤ ص ٣٩٦

ذلك على الخروج على السلطان وظهيرهم المسلمون على عامة القسرى ، فرجموا
من المطاردة الى المكيدة ، واستعمال المكر والحيلة ، ومكيدة المسلمين ، وعملوا
كتاب الخراج

وقد لمنا هذه دراستنا لدور اهل الذمة في الحياة السياسية كيف كان الولاة
والخلفاء يتوصمون في استخدامهم في دواوين الخراج وما يتصل بها من الاعمال .
وخاصة في العصر الفاطمي . كما لاحظنا ان كثيرا من القبط كان عندما يصل
الى المناصب المرتفعة يعمد الى خدعة اخوانهم القبط واستخدامهم واحلالهم محل
الموظفين المسلمين .

ويمكننا ان نقول بعد ذلك ان الجزية والخراج وغيرهما من الضرائب المفروضة
على اهل الذمة كانت من اهم موارد الحكومة العربية في مصر . وكان اول من جبر
خراج مصر وجزيتها عمرو بن العاص وذلك في عهد الخليفة عشرين الخطاب . وبلغ مقدار
ما جباه عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار . (١) ويشير القريزي (٢) الى ان هذا
المبلغ جباه عمرو بن العاص من جزية الرؤس فقط دون الخراج . ولعل البلاذري (٣)
كان يقصد بصبارته " جبي عمرو خراج مصر وجزيتها الف الفى . ما جباه عمرو بن العاص
من الخراج وهو اثنا عشر مليون دينار .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والعرب ص ٢١٥
ابن زولاقي : فضائل عمرو ورقة ٢٩ . ابن حوقل : صورة الارض ص ١٢٩ .
بينما يذكر اليعقوبى (البلدان ص ٢٣٩) ان عمرا جباها في اول سنة اربعة عشر
مليون دينار ثم في السنة التالية اثنا عشر مليون دينار . وكان نصيب الاسكندرية
من هذا المبلغ ثمانية عشر الف دينار . انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٥
ويقول ابو صالح الارمني ص ٢٩٠ ان هذه الجزية التي جباها عمرو بن العاص
من مصر والتي حطت الى دار الخلافة كانت من القبط فقط دون اليهود بمصر
واعمالها . والواقع ان هذا المبلغ الذي بحث بن عمرو الى المدينة كان بمقدار
حين ما يحتاج اليه من النفقات المطية اذ كان يلزم مصر لخبر الخلدان واقامة
الجسور وبناء القناطر من المال حوالي مائة وعشرين رجلا وغير ذلك من وجوه
الاتفاق . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والعرب ص ٢٠٤

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٧

وكان الخلفاء يبدون اهتماما عظيما بجباية مصر وقد ظهر ذلك بوضوح منذ السنوات الاولى للمصر في مصر . ويدلنا على ذلك الكتابات المتبادلة بين الخليفة عرب بن الخطاب وواليه في مصر عمرو بن العاص . ويجدر بنا الاشارة الى نص ما جاء في بعض هذه المكاتبات والواضح منها ان عرب بن الخطاب استبطا عمرو بن العاص في ارسال الخراج فكسب يستمجه ويبيحه على تأخره . فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد ، فاني فكرت في امرك والذي انت عليه ، فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة قد اعطى الله اهلها عددا وجلدا وثقة في بر وبحر وانها قد طلجتها الفراغة علوا فيها عملا محكما مع شدة غوهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدى نصف ما كانت تؤدى من الخراج قبل ذلك على غير قحوط . ولا جدوب . ولقد اكرت في مكاتبتك فسي الذي على ارضك من الخراج . وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت ان تفيق فتفرج الى ذلك ، فاذا انت تأتيني بمعاريف فتفاتها ، لا توافق الذي في نفسي ولست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به قبل ذلك من الخراج ولست ادري بعد ذلك ، ما الذي انفرك من كتابي وقهضك فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا ان البراءة لنافعة من ان كنت مضيقا نطقا . (١) ان الامر لم يلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت ان ابتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفيق فتفرج لى ذلك . وقد علمت انه لم يملك من ذلك الا مالك عال السوء . وما توالى عليه . وطفف اتخذوك كهفا وضدى باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق فتمطاه فان النهر (٢) يخرج الدر ، والحق ابلج ودعنى وما عنه تلجلج فانه قد ببح الخفاء والسلام . (٣)

(١) نطف الرجل - اذا اتهم بريئة .

(٢) نهر الناقة : اى ضرب ضررتها لتدر .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٣ - ٢١٤ . وقد تأثر عمرو بن العاص

بما جاء في هذا الكتاب وكتب الى الخليفة عمر يلوهم " بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله عمرا امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلم عليك فاني احمد الله الذي لا اله

الا هو ، اما بعد ، فقد بلغنى كتاب امير المؤمنين في الذي استبطانى فيه

من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى واعجبك من غراجهما على

ايديهن ونقص ذلك منها منذ كان الاسلام . ولمصرى للخراج يومئذ اوفر . واكثر .

والارواح مصر لانهم كانوا على كفرهم وغوهم ارض في عارة ارضهم منا منذ كان

الاسلام وذكرت ان النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درهما واكثر

في كتابك وانبت وعرضت وشرحت وعلمت ان ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر .

فجئت لمصرى المقدمات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين

صارم بليغ صادق وقد علمنا لرسول الله ولعن بعده قبلنا بحمد الله مؤدبين لا مانعنا

ثم كتب عمرو بن الخطاب الى عمرو بن العاص ثانية وقد جاء في كتابه هذا :
 " من عمرو بن الخطاب سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو . اما بعد ،
 فقد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطالك بالخراج وكتابك الى بيتات الطريق . وقد علمت
 اني لست ارضى فعلا الا بالحق العيين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك
 ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وضمن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا
 فأحمل الخراج فانما هو في المسلمين وعندى من تعلم ، قوم محصورون والسلام . (١)

وبعد عهد عمرو بن العاص زادت جباية مصر فقد بلغ خراج مصر في ولاية عبد الله
 ابن محمد بن ابي سرح اربعة عشر مليون دينار فاستحسن الخليفة عثمان بن عفان ذلك
 منه واستحضر الوالي السابق ، عمرو بن العاص ، واعلمه مقدار ما جبا ، عبد الله بن سعد ،
 وقال له : " يا ابا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الاول . فاجابه عمرو : أضرتهم
 بولدها " . (٢) ونفهم من هذا الحديث كيف كان الخليفة شديد الاهتمام بجباية مصر ،

== وصدق فيه قائلنا محاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والجزاء على كل ما ثم
 فاقبض علك فان الله قد نزهني من تلك الطاعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك
 الذي لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه اخا ، والله بابن الخطاب لانا حين يراد
 ذلك مني اشد لنفسي غصبا . ولها انزاها واكوا ما . وما علمت من عمل ارى على فيه
 متملقا ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يفر الله لك
 ولنا وسكت عن اشياء كنت بها طالما وكان اللسان بها مني ذلولا ولكن الله عظم
 من حقك ما لا يجمل . والسلام " . انظر نفس المصدر ص ٢١٤ - ٢١٥

(١) نفس المصدر ص ٢١٥ - وقد رد عمرو بن العاص على هذا الكتاب موضحا سبب
 تأخره فسمى ارسال الخراج . فكتب " بسم الله الرحمن الرحيم لعمرو بن الخطاب
 من عمرو بن العاص . سلام عليك . فاني احمد الله اليك لا اله الا هو ، اما
 بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطنني في الخراج ويؤزم اني اعند على الحق
 وانكبت على الطريق وانى والله ما ارجب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني
 الى ان تدرك ظنتهم فنظرت للمسلمين فكان الفرق بينهم خيرا من ان يحرق فيصيروا
 الى بيع ما لا غنى بهم عنه . ويضيف هذا المؤرخ الى ذلك ان عمرو بن الخطاب
 قد سأل بعض القبط عن خروج مصر وشأنه قبل الاسلام فأجابه بما جعل الخليفة
 يقبل اعتذار عمرو بن العاص عن تأخره في ارسال خروج مصر . انظر نفس المصدر
 ص ٢١٥ - ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ - البلادى : فتوح البلدان ص ٢١٧
 ابن زولاخ : فضائل مصر ورقة ٢٩ - وصغير ابن زولاخ الى ان هذه الزيادة
 في ولاية عبد الله ومصدرها انه زاد في الخراج المرسل الى الخليفة بينما انقص
 المؤن والنفقات المحلية .

ويحرص من جانبه على زيادته • ولكن الواقع ان خراج مصر قد نقص بعد ذلك ولم يصل طوال هذا العصر الذي ندرسه الى ما كان عليه في ايامه كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن ابي سرح •

تشير بعض المصادر التاريخية الى ان نجابية مصر في عهد الوالي مسلمة بن مخلد كانت خمسة مليون دينار (١) • وانه ارسل منها الى الخليفة معاوية بن ابي سفيان • ستائة الف بعد ان ادى الى اهل الديوان اعطياتهم وازاقهم وأداء رواتب الكتاب وغير ذلك من المصروفات كما ارسل ايضا القمح الى المدينة (٢)

ويرجع هذا النقص في خراج مصر الى عدة اسباب • اولها : تحول كثير من اهل الذمة الى الاسلام — بتماقب السنين — وبالتالي اغاثهم من كثير من الالتزامات العادية التي كان يؤديها الذي وخاصة الجزية • مما كان يؤثر في خراج مصر ويراوداتها المالية • اما العامل الثاني فهو ان ولاية مصر في العصرين الاموي والعباسي كانت كل ههمهم جمع ما يمكن جمعه من الاموال لارضاء الخليفة من ناحية وادخار ما يمكن ادخاره لانفسهم من ناحية اخرى • لقصر فترات توليهم الحكم فلم يحسنوا بمعاونة الاراضى • وما تتطلبه من اصلاح الجسور وخفر الترع والقنوات واقامة السدود • وغير ذلك من وجوه الاصلاح والتعمير • اما العامل الثالث فهو ما كانت تتعرض له البلاد من فتن وثورات داخلية • او حروب خارجية • تتطلب كثيرا من النفقات كما انها كانت تشغل الناس عن الاهتمام بأراضيهم واعمالهم • ومن ثم ينقص الدخل ويتمذر على المصريين أداء ما عليهم من الاعباء المالية •

ويقول المقرئى (٣) بشأن تناقص خراج مصر ويراودها " وانحط خراج مصر • بعد هذا — أى بعد عهد كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد — لنمو الفساد مع الزمان وسريان الخواب في اكثر الاراضى ووقوع الحروب فلم يجبها بنى امية وخلفاء بنى العباس الا دون الثلاث ألف وما خلا ايام هشام بن عبد الملك فانه وصى عبيد الله بن الجحاب عامل مصر بالمعاونة • ذلك ان عبيد الله امر عامله بمسح الاراضى المصرية لتحديد مساحة الاراضى الصالحة للزراعة من الاراضى الفارسة او بمعنى آخر البور • وما ترويه مياه النيل من هذه الاراضى • كما انه اصلى كثير من الاراضى وعمل على تقويمها وتمكن

(١) اليمقوى : البلدان ص ٢٢٩ ويشير الى ان هذا المبلغ كان من خراج الارض والجزية •

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٢٧

(٣) الخطوط ج ١ ص ١٥٩

نتيجة لهذه الحماة من جباية خراج مصر اربعة ملايين دينار. (١)

ونلاحظ نقص خراج مصر كثيرا في نهاية العصر الاموي ، فقد بلغ ما أرسله والى مصر الى دمشق في عهد الخليفة الاموي مروان بن محمد بمقد خصم النفقات والمطالبات الداخلية ما تقي ألف دينار. (٢)

وبلغ خراج مصر في خلافة المهدي الجباسي في سنة ١٦٢ هـ حوالي مليون وثمانمائة وثمان وعشرين ألف وخمسمائة دينار. (٣) ثم زاد في خلافة هارون الرشيد وولاية موسى ابن عيسى فبلغ مليونين ومائة وثمانين ألف دينار. (٤) وما لاشك فيه ان هذه المبالغ كانت تحمل الى بغداد بمقد استقطاع ما تتطلبه النفقات المحلية فكان مجموع ما جباها موسى بن عيسى من الجزية والخراج اربعة مليون دينار. وقد استمر خراج مصر بمقد ذلك ثلاثة ملايين دينار. (٥) وان كانت بعض المصادر تشير الى ان خراج مصر بلغ في عهد الخليفة المأمون اربعة مليون ومائتين وسبعة وخمسون ألف دينار. (٦)

(١) المقرئى : الخطاط ج١ ص ١٥٩ وتشير بعض المصادر الاخرى الى ان جباية مصر في ولاية ابن الجبّاط كانت مليونين وسبعمائة ألف وثمان مائة وسبعة وثلاثين دينار (٢٧٠٠٨٣٧) دينار. وما لاشك فيه ان هذه المصادر تقصد بهذا المبلغ ما أرسله ابن الجبّاط الى دمشق بمقد اعطاء الرواتب والنفقات المختلفة على المرافق والحماة. انظر : ابن رسته : الاطلاق النفيسة ص ١١٨.
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٣-٨٤. ويشير البلاذري الى ان نصيب الاسكندرية من هذا المبلغ كان حوالي ٦٣٠ ألف دينار. انظر فتوح البلدان ص ٢٥٥.

(٢) تاريخ ابو صالح الارمني ص ٢٥

(٣) نفس المصدر ص ٣١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٧٦. ابن رسته : الاطلاق النفيسة ص ١١٨

(٥) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩

(٦) المقرئى : الخطاط ج١ ص ١٣٠. وفي مصر المأمون كان اهل تنيس يلزم كل واحد من اهل الذمة بدفع خمسة دنانير جزية دون فرق بين غنى وفقير. فجعل امير مصر عبد الله بن طاهر الجزية مستويات ثلاث تتناسب وحالة كل ذمى من الفنى والفقير.

انظر : Chronique de Michel, T.3, Fasc.1, P.64 et Quatremere: Memoires Geographiques et Historiques..., T.T., P. 221.

وفي عهد الامراء الطولونيين ، زاد خراج مصر عما كان عليه قبل ذلك العصر ، وترجع هذه الزيادة الى اهتمام الامراء بمسألة الارض وتحسين المحصول . فقد تعلم احمد ابن طولون اراضى مصر من احمد بن محمد بن مبروق اصحابها الخراب ونقص خراجها كثيرا . فاهتم ابن طولون بتعميرها حتى بلغ خراج مصر اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار ونقصت جباية مصر عن هذا القدر قليلا في امانة ابنه خمارويه فجبى اربعة ملايين دينار^(١)

اما في عهد الامراء الاخشيديين فقد نقص خراج مصر عن ذلك كثيرا وبلغ فى عهد كافور الاخشيدى ثلاثة ملايين ومائتين وسبعين الف دينار . وكان هذا المبلغ أقل كثيرا من الاموال المطلوبة للنفقات المحلية .^(٢) وقد ساهمت الفيوم وحدها فى جملة هذا الخراج بستمائة وعشرين الف دينار .^(٣) وساهمت فيه الاديرة وحدها (فى كورة الفيوم) بحوالى خمسمائة دينار . وكان عدد الاديرة المؤدية لهذا الخراج عن اراضيها خمسة وثلاثون ديورا .^(٤) بينما زاد الخراج عن ذلك قليلا عندما تم للفاطميين فتح مصر ، فجباها اقل من جواهر السقل فى سنة ٣٥٨ هـ ثلاثة ملايين واربعمائة الف دينار . وربما كانت هذه الزيادة راجعة الى زيادتهم الضريبة النقدية على الفدان اذ انه فى هذا العام جباها جواهر مائة دنانير عن الفدان الواحد . بينما كان المصريون يؤدون قبل ذلك عن الفدان ثلاثة دنانير ونصف وربما زاد او نقص عن ذلك قليلا .^(٥)

- (١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٥٩
(٢) ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ٢ ج ٣ ص ٢٢٤ - تاريخ ابو صالح ص ٣١-٣٢
(٣) تاريخ ابو صالح ص ٢٤
(٤) نفس المصدر ص ٢٤ - والواضح من الروايات التاريخية ان خراج هذا الاديرة لم يتغير فى ذلك العصر عما كان عليه فى عصر الولاة الامويين . اذ كان خراج هذه الاديرة فى خلافة هشام بن عبد الملك ولاية ابو القاسم بن عبد الله نفس المبلغ (خمسمائة دينار) - انظر : ابن المقفع : سير الالباء البطارقة م ١ ج ٢ ص ١٦٣ .

- (٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٥٢ - المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٢ . بينما كانت الجزية اربعة دنانير وسدس للموسرين بينما يدفع المتوسط الحال . دينارين وقيراطين ومن دون ذلك دينار وثلث وربع وجنتين ويضاف الى كل طبقة درهمين وربع للموظفين القائمين بالتحصيل وهذه المستويات الثلاثة منذ خلافة الحافظ ووزارة رضوان بن ولخشى ويبدو انها استمرت كذلك حتى عهد الايوبيين . انظر ابن المقفع : سير الالباء م ٣ ج ١ ص ٣١ . ابن مائى : قوانين الدواوين ص ٣١٨ - ٣١٩ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٤٩ .

نستخلص من دراستنا هذه وجود عديد من الضرائب التى يلتزم بها الذين فسى
مصر الاسلامية فنجد الى جانب الجزية والخراج ضرائب لتغطية الاحتياجات الرسمية والاعباء
الغير اعتياد بقضية المسلمين وازواجهم وكسوتهم وضرائب لتغطية نفقات الموظفين المحليين
وضرائب على التجارة الداخلية والخارجية وتسمى المكوس . وكان يقوم بتقدير هذه الضرائب
اشخاص معينون من القبة نفسها او الكورة . ويكتبون بذلك سجلات ، ترسل الى ديوان
الخارج الرئيسى فى العاصمة المصرية بناء على تعليمات واردة منه قبل القيام بهـ
التقدير . ثم يمد ذلك يرسل الى الخارج امر طلب بجباية الضرائب المقررة لكـ
قرية او قسم من الكورة ، فيقوم موظفوا ديوان الخارج المحلى بجبايتها وعمل قوائم
باسماء الافراد ومقدار ما دفعه كل منهم .

ونلاحظ انه لم يكن هناك حصة معينة من الضرائب النقدية او العينية تلتزم بها
كل قرية أو كورة وانما كان اساس الضرائب فى مصر آنذاك القرو . وعليه كان مقدار الضرائب
يختلف من مكان الى آخر حسب عدد السكان وحالتهم وصاحبة الاراضى المزروعة ، وكان
يمضى من الجزية بعض الفئات من اهل الذمة وهم : النساء والاطفال والشيخوخ والفقراء
والماجرين والرهبان وان كان هؤلاء الرهبان قد ألزموا فى بعض الفترات المحدودة
بأداء الجزية كما انه كان يمضى من الجزية دون الخراج كل من يمتنع الاسلام
من اهل الذمة وان كان كثير من الولاة قد حرصوا ان يدفعها الذين الذى اسلم
حتى لا يضر ذلك ديوان الخراج ومالية البلاد .

وقد افادت كثيرا من أوراق البردى اليونانية والعربية فى توضيح نظام الضرائب
المفروضة على اهل الذمة ومقدارها . وكيفية جبايتها . وان كان اكثر هذه البرديات
خاص بالقرن الاول الهجرى . أو بعضى آخر بمصر الى قره بن شريك بصفة خاصة .
كما نلاحظ ان ما جاء فى أوراق البردى من معلومات يتفق كثيرا مع ما جاء فى المصادر
الفقهية والتاريخية .

ونستخلص ايضا من دراستنا للضرائب المفروضة على اهل الذمة فى مصر
واثرها فى المواقف المالية للبلاد وان اهم هذه الضرائب كانت الجزية والخراج كما
ان اهل الذمة قد قبلوا ادائها فى بداية الامر وسلموا بها دون مقاومة او مطالبة

للاقتناع من ادائها • ولكنهم امام زيادة الاعباء المالية المتوالية عليهم عمدوا الى المقاومة المسلحة في بداية الامر والهروب من منطقة الى اخرى مستغلين من دفع الضرائب المقررة • الا ان ولاية مصر فطنت لذلك • وطولوا جاهدوا ووضع حد لحركة الاقباط والقضاء عليهم • ثم بدأ القبط منذ سنة ١٠٧ هـ المقاومة المسلحة الدامية ضد عمال الخراج وجباة الضرائب • الا ان ثورات القبط التي استمرت اكثر من قرون من الزمن كانت سرعان ما يقضى عليها • وكان بعد آخر ثورة لهم في سنة ٢١٦ هـ • وبعد القضاء عليها سنة ٢١٧ هـ لم يمد القبط يقومون بلوى مطولة للانقضاء والثورة واصبح الذميون اقلية في مصر فعمدوا الى وسائل المكر والدهاء • ولجأ امراء مصر وخلفائها الى استخدام الذميين في دسوان الخراج وغيره من الاعمال • فصاروا يهودون ما عليهم من الجزية والخراج وغيرها من الضرائب كما تتطلب منهم طوال تاريخ مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الممناطلي •

الباب الثاني

مظاهر التمريب

وأثاره في الحياة الفكرية

- ١- تمريب الدواوين وأثره في انتشار اللغة العربية في مصر
 - ٢- أثر التمريب في قيام المدرسة العلمية الإسلامية
 - ٣- دور الذميين المصريين في الحياة الفكرية العربية
 - ٤- دور الصطبة والتابعين والقضاة في التمريب وفي النهضة الفكرية
 - هـ دور الموالى في النهضة العلمية
 - ٦- أثر التمريب في ظهور الفكر الصوفي ودوره في الحياتين السياسية والاجتماعية في مصر
 - ٧- دور التمريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية
 - ٨- ديوان الرسائل ودوره في تدعيم التمريب في مصر الإسلامية
-

١- تمريب الدواوين وأثره في انتشار اللغة العربية

ففى مصر

كانت مصر إحدى الأمم القليلة التي تخلت نهائياً عن ماضيها الوطني ، وعن لغتها القديمة ، ومرت بنفسها في أحضان الإسلام والمدينة الإسلامية * . وأخذت تندمج في مجموعة الشعوب العربية . (١)

يقول اسرافيل ولفنسون * " ان أول عهد المصرية باللغة العربية يبدأ من ذلك اليوم الذي تم فيه لمعروا بن العاص فتحها . فلما تم للمعرب فتح مصر ، بدأت اللغة العربية تنتشر ولكن بصعوبة وخطأ * . (٢) " إذ لم يكن من الطبيعي ان تظل لغة العرب وثقافتهم بنأى عن أهل البلاد ، بعد ان ساد العرب البلاد حريباً وسياسياً . وبعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الامر في حيز محدود في مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار ان يختلطوا بالفاتحين وان يمعروا لغتهم وكان لهذا الاختلاط بين الطرفين طرقاً متعددة ، ومن ذلك انه بالرغم من اختلاط الجند العربي بالقبط الا ان هؤلاء لم يقيموا بصفة دائمة فيه ، فكانوا يتحركون في البلاد ويخرجون الى الرسف في كل ربيع . تقول الرواية التاريخية (. . .) كان عمرو بن العاص يقول للناس اذا قفلوا من غزوه : انه قد حضر الربيع فمن احب منكم ان يخرج بفرويه بريمة فليفعل . وفي موضع اخر كان عمرو بن العاص يخطب في الناس قائلاً : يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزا * . واذكت الشمري وأقلعت السماء وأرفع الوباء . وقل الندى وطاب المرعى . فحس لكم على بركة الله الى ربكم فبالوا من خيريه ولينه وخرافه * . واستوصوا بمسا جاورتموه من القبط خيراً * . (٣) " ولم يقف الامر عند هذا فتحة عامل آخر ادى الى تقارب العرب بالمصريين وهو ما فرضته شروط الصلح بين عمرو بن العاص وخطكم

(١) زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٢٤٠ د . سيدة كاشف :

مصر في فجو الاسلام ص ٢٣٢

(٢) اسرافيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) - ابو الحسن :

النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٣

مصر • فقد اشتط واجب الضيافة على اهل البلاد للجند المسلمين الذين يـمرون في البلاد (وهو ان للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا • ومن نـزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم) (١) ولا شك ان هذا الاختلاط قد اتاح للطرفين تبادل الافكار واللغات ويبدو ان بعض المصريين كانوا قد اتقنوا اللغة العربية وتشير بعض المصادر الى ان " اول نقل في الاسلام من لغة الى لغة هو نقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي لخالد بن يزيد بن معاوية على يد جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وثقفه بالعربية " (٢) • على ان ارضاعات حركة التعرف بمصر بدأت في عهد الوالي الاموي عبدالعزيز بن مروان (٦٥ : ٨٦ هـ) ذلك " انه اراد ان يتعرف حقيقة العلاقات التي كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على اثر ما كتبه البطرك الى ملكي الحبشة والنوبة لينزيل سوء التفاهم الذي كان بينهم لان قوما من اهل السمايات وشروا بالبطرك لدى عبدالعزيز حتى ساء ظنه به " (٣) ويذكر ساويرس ابن المقفع " ان الاصحاح بن عبدالعزيز بن مروان كان يولي كثيرا من ادور مصري ولاية ابيه وكان يعجب شماسا اسمه بنيامين كثيرا لما كان يطلعه على اسرار التنصاري حتى انه تزوج له الانجيل باللفظة العربية " (٤) وعدة كتب بنية اخرى • وذلك ليـعرف المسلمون اذا كان في هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامي بسوء " (٥)

-
- (١) ابن عبد الحكم : السابق ص ٢٠ — المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٩٢ — السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٥١
- (٢) ابن القديم : الفهرست ص ٥١١ — ٥١٢
- (٣) ساويرس : سير الابرار البطارك م ١ ج ٢ ص ١٤٣ — سيدة كاشف : مصري فجر الاسلام ص ١٢٨
- (٤) ساويرس : السابق م ١ ج ٢ ص ١٤٣ — مزي تشو : تاريخ الامم القبطية ج ٢ ص ١٦٧ — سيدة كاشف : السابق ص ١٢٨
- (٥) ساويرس : السابق ج ٢ ص ١٤٣

ولكن الترجمة ملين القبطية الى العربية كانت تهدف الى التعرف على ثقافة المصريين وحضارتهم وطرق تفكيرهم * (١) كما ان ما قام به الاصبح من ترجمة هذه الكتب مقدمة لسيادة اللغة العربية وجعلها لغة رسمية في البلاد ومبدأ في خلافة عبد الملك بن موان حركة التنظيم والتعديل * وعلى حد تعبير المؤرخين العرب ، فعند عبد الملك الى صبح الدولة بصبغة عربية * الى الاعتماد على الموظفين من العرب او الذين يتقنون العربية من اهل البلاد المفتوحة وكما امر عبد الملك في سنة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التي كان يتداولها الناس حتى زمنه نراه يتجه الى تمريب لخط الادارة والحسابات وكانت الدواوين تكتب بلغات البلاد المحلية * وكان كل اعتماد العرب على اهل البلاد المفتوحة * او على المبروم الذين بقوا في مصر والشام فكانت الدواوين بعصر تكتب باليونانية والقبطية * (٢) فقد كانت الحكومة تستخدم اللغة اليونانية بينما كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا بالقبطية * (٣) وهكذا لم تكن الدواوين تكتب بالقبطية فقط كما يذكر بعض المؤرخون القدامى * (٤) فهناك اوراق بردي ذات صبغة رسمية ويرجع تاريخها الى عهد الوليد نفسه ، دونت باللغتين اليونانية والعربية معا ، منها بردية يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ ق تتضمن مرسوما صادرا من والي مصر عبد الله بن عبد الملك * (٥) وكانت عملية تمريب الدواوين عملية طويلة بدأها عبد الملك بن مروان وسار الوليد بن عبد الملك على سياسة ابيه * ففي عهد الوليد نقلت دواوين المواق الى العربية * (٦) كما

(١) سيدة كاشف : تمريف مجتمع الاسكندرية — مقال بمجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ م ص ١٩٧ • سيدة كاشف : عبد العزيز بن مسروان ص ١٤٣

(٢) سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٨٤ — ١٨٨
(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٠٥ وما ذكرته من الوثائق البردية •
(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٨ — ٥٩ — القرينى : الخطط ج ١ ص ٩٨
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠

(٥) جوهان : اوراق البردي العربية ج ١ ص ٢٥ — ٢٦
(٦) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٨ — القرينى : الخطط ج ١ ص ٩٨

استعطت العربية في دواوين الشام سنة ٨١ هـ (١) وفي مصر نرى الوليد بن عبد الملك يأمر والده على مصر عبد الله بن عبد الملك (٨٧ هـ / ٧٠٦ م) بتدوين الدواوين باللغة العربية. (٢)

وقد كان الدافع القوي وراء تعمير الدواوين وهو توسع خبرة العرب واستقرار الدولة وتطورها ، وازدياد خبرة العرب بفنون الكتابة وتأكيد سياسة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية التي سار عليها بنو أمية . يقول ابن خلدون (٠٠٠٠) لما كانت خلافة عبد الملك بن مروان استحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة فسي الكتابة والحساب فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهد ان ينقل دواوين الشام الى العربية فأكمله لسنة ٠٠٠٠٠ ووقف عليه لما سرجويه كاتب عبد الملك فقال لكاتب الروم أطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم (٠٠٠٠) . (٣)

وقد أدت عملية تعمير الدواوين في مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقباطية الى العربية ومن ثم صار للعرب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية . وبدأت تنتشر اللغة العربية في جميع المدن والقرى المصرية وأصبحت لغة الادارة والحكم وبالتدريج صارت بمقدار ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب ، فضلا عن انها لغة السياسة والدين . (٤) والملاحظ ان تعمير الدواوين لم يقض

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠١ - ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع والثلاثون ص ٢٤٤

(٢) الكندي : الولاة والقضاء ص ٥٨-٥٩ - المقرئ : الخطط ج ١ ص ٩٨
أبو المطسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ - سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع والثلاثون ص ٢٤٣-٢٤٤

(٤) سيدة كاشف : عبد العزيز بن موان ص ١٤٥ - الوليد بن عبد الملك ص ١٨٤

نهايا على استخدام اليونانية فى كتابة الوثائق الرسمية . فكان من الضرورى ان يكون هناك فترة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية فى الاعمال الرسمية . فقد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب العربية ويوجد ذلك بمسـمـى الوثائق المكتوبة بين سنتى ٨٦ هـ - ٩٦٠ هـ * (١) . وهناك بردية مؤرخة سنة ١٣٧ هـ - ١٤٠ هـ (٢٥٤/٢٥٧ م) تتضمن تظلم بعضا لقرى العصرة من عمال الضرائب - كتبت باللغات الثلاث : القبطية واليونانية والعربية * (٢) وتشير اوراق البردى العربية الى ان اللغة القبطية كانت تستخدم فى كتابة بعض الوثائق فى مصر الاسلامية وكانت تأتى فى المرتبة الثالثة بعد اللغتين العربية واليونانية * (٣)

على ان اهم عوامل تمزيب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانب الشريط الخصيب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى الى اختلاطهم بالاقباط اختلاطا كبيرا ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تمزيب البلاد * (٤) ذلك لان الريف المصرى جامع الشعب كله .

وكان أغلب النواة الذين حكموا مصر يصحرون مصر بميراثا عربية حتى نهايتها مصر الاموى او عربية ومن شعوب اخرى غير العرب كالخراسانيين والأتراك فى العصر المباسى . او ييمث بهم الخلفاء لتميز الجند واستيطان البلاد * (٥) وكانت نتيجة ذلك ازدياد اعداد القبائل العربية فى مصر وما يدل على ذلك اعادة تدوين الديوان ثلاث مرات فى فترات متقاربة " منذ ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ٤٣ هـ حتى

(١) جوهان : اوراق البردى العربية ج١ طراز ٦ ص ١١ - طراز ٦١ ص ١٣ هـ طراز ٦٢ ص ١٤ هـ طراز ٦١ ص ٢٠

(٢) جوهان : اوراق البردى العربية ج٣ ص ٦٢ : ٧٠

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام المباسى ج١ ص ٤٥١ - ٤٥٢
جوهان : اوراق البردى العربية ج١ الطراز رقم ٤ ص ٤١ - الطراز رقم ٦١ ص ١٣ - الطراز رقم ٦ ص ١١

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢

(٥) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢

عهد بشر بن صفوان سنة ١٠٢ هـ . (١)

وفي خلافة هشام بن عبد الله بن عبد الملك حدث تطور في تاريخ القبائل العربية في مصر " ذلك ان عبيد الله بن الجبظ عامل خراج مصر وفد على الخليفة " في سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م . وسأله ان ينقل الى مريوطا من قيس أو عرب الشمال وكانسوا أقلية بها فأذن له الخليفة بترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم بالقسطاط . فقدم بهم ابن الجبظ وانزلهم الحوف الشرقي وقرىهم فيسه وحين توفي هشام بن عبد الملك ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م كان ببلييس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس . (٢)

وقد تخلى العرب عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالاهالي وعن الاشتغال بالزراعة في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك . وقد ساعد وجود العرب في القسرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالاهالي وكان لهذا الاختلاط اثره في انتشار الاسلام بمصر نتيجة للتزاوج او للموالاة بينهم وبين اهالي البلاد . (٣) ويشير القرظي الى تحول العرب الى سكنى الريف ويوضح الاثر الكبير الذي أحدثه هذا التحول في انتشار الاسلام . فيقول مانعه (. . . .) فانظر ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف . ومع ذلك فكانت القرى كلها في جميع الاقليم أعلاه وأسفله ملوّه . بالقبط والروم . ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما انزل عبيد الله بن الجبظ وسلولى سلول قيسا بالحوف الشرقي فلما كان في المائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتح مصر ص ١٠٢

(٢) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٢٦-٢٧ - القرظي : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٤

(٤) القرظي : الخطط ج ٢ ص ٢٦١

وقد كان نتيجة الاختلاط امتزاج الفاتحين العرب بالمصريين الاقباط في المدن والقرى ، ولعل في اباحة الاسلام لمثل هذا الزواج كان المشجع الاول للعرب على الاقدام عليه ما كان له اثر في الامتزاج الجنسي ، قال تعالى : (اليوم احل لكم الطهات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمصنعات من الموضات والمصنعات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتوهم اجورهم مصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين) (١) وبذلك احل زواج المسلم المصري بالكتابية المسيحية المصرية ، ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) بزواجه من مارية القبطية وما اثر عنه من احاديث في هذا الصدد منها : " اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " (٢) ونفس خلافة الممتصم بالله العباسي ثم اندماج العرب بالمصريين ، فقد حدثت تفييحات جوهرية في اجناس الجند واجناس الولاة ايضا فقد ظهر منذ بداية عهد الدولة العباسية المنصر الفارسي والمنصر التركي الذي استكثر منه الخليفة العباسي الممتصم قلما بوسع بالخلافة (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) — ارسل الى واليه على مصر كيد رنصير ابن عبدالله يأمره باسقاط من في ديوان مصر من المبروقطع المطا ، عنهم ، ففعل ذلك " (٣) وكان من اثر هذا ان انتشر العرب في أرجاء مصر من اقاصها الى اقاصها يلتصمون الزنق ويسعون وراء القوت عن طريق اخر غير الجندية والحرب " فنزل منهم الكثيرون بأرياف مصر واستوطنوها واتخذوا الزرع محاشا وكسبا ، وانقاد جميعهم القبط الى اظهار الاسلاموا اختلطت انسابهم بانساب المسلمين لنكاحهم المصلمات " كصا احترف منهم من احترف التجارة والصناعة وغير ذلك من الاعمال التي كانت

(١) سورة المائدة الآية ٥

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٨ — ابن عبد الجكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٨٦

(٣) الكندي : الولاة والقضاء ص ١٩٢ — المقرئ : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٨٢ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩

كانت وقفا على أهل البلاد المصريين . ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول في تاريخ مصر الاسلامية . ويمكن اعتباره بداية لظهور المجتمع المصري المصري الاسلامي . فبعد ان كان العرب يمهشون في نطاق ضيق وكان تأثيرهم ضعيف ، أصبحوا منذ ذلك الوقت يخططون بالمصريين اختلاطا كاملا ويمتزجون بهم ما كان له اثره في خلق مصر العربية الاسلامية من الفواحي السياسية والاجتماعية واللغوية والادبية ومرار الوقت ترك العرب الانتساب الى قبائلهم ولافتخار بأصولها والانتساب الى الجهة أو الاقليم الذي عاش فيه الشخص منهم . ففي شواهد القبور التي اكتشفت في مقابر اسوان والفسطاط كان اسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الاولين للهجرة ولكن في خلال القرن الثالث الهجري نجد ان اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذي ينسب اليه المتوفى . (١) فترى ان شاهد قبر ابن لهيعة المحدث الشهير كان مكتوبا عليه (بسمه هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة الحضرمي المتوفى ١٧٤ هـ) (٢) وكذلك (عبد الرحمن بن يحيى المعافري المتوفى ١٩٠ هـ) (٣) وفي القرنين الثالث والرابع نجد الانتساب الى الجهة أو الاقليم واضحا فهناك شاهد قبر (يوسف بن مسراد الحضرمي المتوفى سنة ٣١٠ هـ) (٤) وشاهد قبر (زينب ابنة عيسى المدني المتوفى ٣١٦ هـ) (٥) كما صار يكتب فلان المصري أو الاسواني أو الادفوي وهذا يدل على انه في القرن الثالث الهجري أصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد ، ولم يكن هناك بعد قرار الممتص ما يحدد عليه العرب من نسل الفاتحين والقبائل العربية الوافدة الى مصر فأختلطوا بالمصريين وكان هذا الاختلاط ما قسوى عروبة مصر فتمرب المصريون وتمصر العرب . (٦)

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩ - وما ذكرته من مصادر

(٢) Wiet (G.): Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. Steles Funéraires. Vol. I, P. 2. (٣)

Wiet (G.): Op. Cit. Vol. I, P. 13. (٤)

Wiet (G.): Op. Cit. Vol. V. P. 5. (٥)

Wiet (G.): Op. Cit. Vol. V. P. 2. (٦)

(٦) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٢٩ - ٢٣٠

ومن العوامل البارزة في تحريب مصر أيضا انتشار الدين الاسلامي ، فقد كان

يجب على من يعتنق الدين الاسلامي ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن
واداء الصلاة وانما كان انتشار اللغة العربية ابطأ من انتشار الدين الاسلامي . (١)
وكان التسامح في الدعوة اليه واضط كما تشير الآية (لا اكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي) . (٢) " ولذلك لم يكره أحد عليه بالسيف واللسان " . (٣) وقد
اخذ الدين الاسلامي ينتشر تدريجيا كلما تقدم العهد بالمصر فيها على انه وجدت
هناك فترات معينة كان التحول فيها الى الاسلام بكثرة . وكان هذا تحت ظروف وعوامل
نشأت من جراء سياسة الخلفاء وولاتهم المنفذين لتلك السياسة . ومن أبرز هذه
العوامل (الرغبة في التخلص من الجزية التي كان يدفعها الذميون نتيجة بقائهم على
دينهم ، وكانت الجزية سببا في اسلام كثير من الاقباط الذين أرادوا التخلص منها) (٤)
وكانت موجات الدخول في الاسلام من القبط تتابع وشهد النصف الاول من القرون
الثالث الهجري (التاسع الميلادي) انتشارا واسما للاسلام في مصر . حتى اذا كانت
امارة احمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤ هـ . كان اكثر مسيحي مصر قد تحولوا الى
الاسلام . وصار المسلمون يكونون الاغلبية المظن بين سكان مصر وصار أهل الذمة
اقلية قليلة . ومن ثم اخذت الصبغة الاسلامية نتيجة لذلك تشكل المجتمع المصري
وتطبعه بطابعها في العادات والتقاليد ، وفي الحياة الاجتماعية بصفة
عامة . (٥)

(١) سيدة كاشف : السابق ص ٢٣٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٣) دى كاسترى : الاسلام خواتم وسوانح ص ٤٩ ، سيدة كاشف : مصر قس
فجر الاسلام ص ١٩٢ .

(٤) سيدة كاشف / مصر في فجر الاسلام ص ١٩٣ - بقلر : فتح الحرب للمصر
ص ٣٤١

(٥) D. Zaki Hassan: Les Tulunides. P. 216.

حسن محمود : حضارة مصر في العصر الطولوني ص ٥٤

وقد أشاد بعض المستشرقين بأهمية المسجد كمركز لنشر اللغة العربية والفكر العربي الاسلامي ، فيقول اسرائيل ولفنسون (انه يرجع تثبيت قدم العربية فسي مصر الى توطيد دعائم الملك والجاه الاسلامي في عهد الدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية وساعد المعهد الديني الاكبر (الازهر) على نشر الفصحى بين طبقات رجال الدين) . (١)

وهكذا تضافرت العوامل السابقة من اعتناق الدين الاسلامي - وتعميم سبب الدواوين ٨٧ هـ / ٧٠٥ م ، فضلا عن هجرة القبائل العربية واستقرارها بمصر ونزولها بالريف واختلاطها بالاهالي - تضافرت جميعها في نشأة مصر العربية الاسلامية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلى جعل اللغة العربية لغة التخاطب بين اهل البلاد وتشير اوراق البردي الى انتشار اللغة العربية في القرن الثالث الهجري بين الاقباط حتى صارت أغليتهم تجيدها قراءة وفهما فقد جاء في بردية موروخة سنة ٢٧٤ هـ وفيها ادلاء لاحد القبط يشهادته فكتب مانعه " اقرار دانيال بجميع ما في هذا الكتاب بعد ان قرى عليه حرفا حرفا ، فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه " . (٢) وهناك بردية أخرى تتضمن عقد زواج " تم في الاشمونين بين يحنس بن شنوده وبين زوجته القبطية " . (٣) كما ان هناك بعض عقود البيع والشراء التي كتبت باللغة العربية . (٤)

وبالرغم من اننا لانعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين الا ان آثار القرن الرابع الهجري المدونة من الكتب تدل على سيادة اللغة العربية وانتشارها بين الاقباط " فقد ألف سعيد بن بطريق البطريرك الملقب كتابا في التاريخ باللغة العربية في النصف الاول من القرن الرابع الهجري " . (٥)

-
- (١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢٣
 - (٢) جروهمان : اوراق البردي العربية ج ٢ ص ١١٦ - ١٧٠
 - (٣) جروهمان : السابق ج ٢ ص ٨٦ - ٨٥
 - (٤) جروهمان : السابق ج ٢ ص ١١ - ١٧
 - (٥) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٣١

وهو كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق — ثم تلاه ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونيين في اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى ارن للبطاركة باللغة العربية • فكان يقوم بجمع ما وجد بدير نهيا (عند الجيزة) ويديراى مقار • وما وجد به بأيدى النصارى بالقلمين اليونانى والقبطى ويترجمه الى اللغة العربية ويشير فى مقدمة كتابه الى سيادة اللغة العربية وانتشارها بين المصريين • فيقول ما نصه: (• • •) فاستمتعت بمن أعلم بما متحققهم من الاخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها بديار مصر بالقلم القبطى واليونانى الى القام العربى الذى هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديار مصر • لعدم اللسان القبطى اليونانى من اكثرهم) (١)

ويقول المستشرق الالمانى متر • • • ان القبط لم يبدأوا فى ترك لغتهم القبطية الا حوالى آواخر القرن الرابع الهجرى • (٢)

وسيادة اللغة العربية " اخذت اللغة القبطية فى الاضلال • بسبب وفقدت اهميتها تدريجيا لان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمونها فى حديثهم وفى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية • (٣) واستمرت هور القبطية شيئا فشيئا حتى حصرت فى الاديرة والكتائى ثم اضمحت بضى الزمن حتى صار الكهنة الذين يستعملونها للصلوات فى بعض الكنائس لا يفهمونها جيدا ويستعملون الى جانبها الترجمة العربية • (٤) وقد ترتب على التقاء اللغات المختلفة التى كانت متداولة فى مصر فى فترات زمنية معينة مثل اليونانية والسريانية ثم القبطية على اللغة العربية ان تأثرت اللغة العامية بمصر ببعض الالفاظ والمعارات من

(١) ساويرس : سير الاباء البطاركة م ١ ج ١ ص ٦

(٢) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٨٩ •
سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢

(٣) Quatremère: Recherches Critique et Historique sur la Langue. P. 37.

(٤) اسرائيل ولفسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢١

تلك اللغات إلى العامية المصرية ، كما أننا نستعمل في الوقت الحالى بعض اللفاظ والكلمات التى ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى القبطية التى اشتقت منها ومن هذه الكلمات (طوب) ومعناها بالقبطية حجر ، و " ميت " ومعناها ريف وهى اسم لكثير من قرى مصر مثل " ميت رهينة " و " ميت أبو الكوم " وشونة : ومعناها مخزن ، وبولاق ومعناها شاطئ النهر ، الخ . (١) ولكن اللغة العامية المصرية حافظت على اللسان العربى الفصحى أكثر من أخواتها فى بلاد العراق والشام والمغرب حيث كثرت العناصر الأجنبية . (٢)

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للمغرب على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التى توالى على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين . (٣) ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل كانت هذه اللغة محورا وأساسا لجوانب النشاط الفكرى فى مصر ، وقد تأمت بمصر نهضة ثقافية عظيمة كانت دعاماتها الدين الإسلامى واللغة العربية .

وفى القرن الثانى الهجرى نشأ جيل من العلماء من أصل مصرى قبطى صاروا أئمة فى المقامات والأدب واللغة مثل عثمان بن سعيد المصروف بورش القصرى المتوفى سنة ١٧٩ هـ . (٤) وسج الفول طلم مصر باللغة . (٥)

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢٢

(٢) إسرائيل ولفنسون : السابق ص ٢٢٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣٤

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

(٥) السيوطى : بغية الوفاء ص ٢٥٢ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣٢

٢ - أثر التعمير في قيام المدرسة العلمية الإسلامية

بعد هدوء موجة الفتح العربي لمصر ، واستقرار العرب واختطاط مدينة القسطنطينية واستقرارهم بها . واتخاذ العرب المسلمين من هذه المدينة عاصمة لمصر الإسلامية . صارت مدينة القسطنطينية إحدى المراكز العلمية في الدولة العربية الإسلامية وكان مسجد عمرو بن العاص الجامع بالقسطنطينية يهدى مدرسة علمية ومنازل تفتح بنورها على البلاد المجاورة . وكانت العلوم والمعارف السائدة تلقى باللغة العربية " لسان الأمة والجيل الفالihin عليها والمختصين لها " . (١)

وكانت العلوم السائدة ضوian :

(أ) العلوم العقلية :

وهي العلوم أو الآداب الإسلامية .

وهي العلوم الدينية الإسلامية (الحديث والتفسير والقراءات والفقه) والعلوم اللسانية (النحو واللغة والبيان والآداب) (٢) والتاريخ .

(ب) العلوم العقلية :

وهي العلوم الفلسفية أو علوم الأوائل التي نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى " كالطب والعلوم الطبيعية والرياضيات " . (٣) وكانت العلوم العقلية

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الثاني والمشرحين ص ٣٧٩

(٢) ابن خلدون : السابق - الفصل الرابع ص ٤٣٥ - ٤٣٦ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥

(٣) ابن خلدون : السابق - الفصل الثالث عشر (في العلوم العقلية وأصنافها ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥ - جورجى زبدان تاريخ المدن الإسلامية ج ٣ ص ٤٢

محدودة ، ضئيلة الانتشار اذا ما قورنت بالعلوم الثقيلة وخاصة في بداية النشاط العقلي .

" كانت العلوم الثقيلة - التي اساسها الشرفيات من الكتاب والسنة هي اساس العلوم في العلة الاسلامية " (١) ولقد نعت العلوم العربية في مدينة القسطنطينية في ظل الدين الاسلامي نموا مضطربا كما نعت في غيرها من الامصار الاسلامية الاخرى فالقرآن الكريم به آيات كثيرة تحث على العلم وتدعو الناس الى التزود منه " قال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات " (٢) " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٣) ، وقال جل شأنه : " وقيل رب زدني علما " (٤) وقال تعالى : " فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون " (٥)

وهناك احاديث مأثورة عن الرسول (صلعم) تحقق من معنى هذه الآيات وتفسرها . قال عليه الصلاة والسلام " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ، " اطلبوا العلم ولو في الصين " (٦)

وكانت الحركة العلمية في مدينة القسطنطينية في بدايتها مثل سائر مراكز الثقافة الاسلامية في العالم الاسلامي في بداية عهدها بالاسلام - فقد بدأت هذه النهضة الدينية - لان القرآن الكريم كان هو محور الحياة الدينية والدنيوية

(١) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٢) سورة المجادلة : الآية رقم ١١

(٣) سورة الزمر : الآية رقم ٩

(٤) سورة طه : الآية رقم ١١٤

(٥) سورة النحل : الآية رقم ٤٣

(٦) الفرائي : احياء علوم الدين ج ١ ص ٨ - ابن عبد البر : جامع بيان

العلم ج ١ ص ١٠ و ٣٨

فكان لابد من فهم هذا القرآن وكشف جوانب محتواه . ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) الذي عزى اليه تبليغ الرسالة ، فقد جاء في الآية الكريمة (ربنا وأبمست فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم) . (١) وقد أجمع العلماء على فرض تعليم القرآن — قال صاحب مفتاح المعادة (أعلم ان حفظ القرآن فرض كفاية على الامة لكلا ينقطع عدد التواتر فيه فلا يتطرق اليه التبديل ولا التحريف) . (٢) وقد جاءت الآثار عن الرسول (صلعم) تحث على الاخذ بهذا الدين الجديد وتعليمه — فقد جاء الاثر (خياركم من تعلم القرآن وعلمه) . (٣) وفي قول آخر (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) (٤)

ولذلك بدأت النهضة العلمية الدينية في بدايتها تتمثل في علوم القرآن الكريم بمبناها الواسع مثل القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته الذي كان صادة غيرة للعلوم الدينية . وقد صار أوسع مادة وأكثر تداولاً حتى الفقه أو " استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة النبوية ثم علم قراءات القرآن الكريم . . . (٥) . . . وكانت مدينة القسطنطينية الإسلامية هي مركز الاشعاع العلمي . كما كان " جامع عمرو بن العاص بهذه المدينة هي ملتقى العلماء والفقهاء والائمة واليه يلجأ الناس للاستفتاء واليه ينفذ الطلاب لتلقى العلوم التي كانت في ذلك الحين ومنه يتخرج خليفة العلماء والفقهاء " فلذلك كان قلب هذه المدينة النابض . . . (٦) على ان هذا لم يكن غريباً على البيئة المصرية — فقد كان رجال الدين هم الذين يقومون بمهمة التعليم . . . (٧)

-
- (١) سورة البقرة : الآية ١٢٩
 (٢) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص ٢٥٩
 (٣) صحيح البخاري ج١ ص ٢٧ — من ابن ماجه ج١ ص ٨٠ — طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص ٢٥٩
 (٤) من ابن ماجه ج١ ص ٧٧
 (٥) الاستاذ : احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٣
 (٦) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٨٨
 (٧) Marron (H.) : Histoire de L'education dan L'antiquité. PP. 133 - 413.

وقد كان نواة الحركة العلمية في مدينة القسطنطينية الصلابة الذين جاءوا مع جيش الفتح وبعده واستقروا بمدينة القسطنطينية بعد ان اخطوا مساكنهم وحسبوا المسجد الجامع ...

وقد كان لهؤلاء الصلابة تلاميذ ينقلون عنهم العلم ، فتخرج عليهم التابعون ، ثم تابعوهم ... (١) وقد كان منهم العلماء والزهاد والشعراء والادباء وكان معظم ما قاموا به من جهود علمية تتمثل في العلوم الدينية . يقول جب Gibb * لم يكن جيش المسلمين مجرد معسكر حربي وانما كان مع ذلك مركزا تنبعت منه الدعوة للدين الجديد . (٢) ولعل هذا بعد ابلغ جواب على الكونت دي كاستري الذي قال (ان الاسلام لم يكن له دعاية مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه . كما في الديانة المسيحية ، ولو كان للاسلام اناس قوامون لتسهيل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع) . (٣) وقد حرص الحكام المسلمون على العناية بنشر الدين الجديد فقد بحثوا عن الموضين عربين والخطاب بعض كبار الصلابة والمتفقيين فمسي الدين الى الامصار الاسلامية ليقيموا بتعليم اهالي تلك الامصار القرآن الكريم وأصوله (عن سالم بن عبد الله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت ، فقلت : ما مات الناس اليوم . فقال ابن عمر رحمه الله : فقد كان ظلم الناس وجبرها . فرتهم عصر في البلدان) . (٤) وكان امير الموضين عربين والخطاب يحث الصلابة والعلميين على نشر العلم ويحث الناس ايضا على الاخذ عنهم .

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٦

(٢) Gibb : Mohammedanism. P. 404.

(٣) دي كاستري : الاسلام خواطر وسنوانح ص ٣٩ - سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٦٧

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٦١

فكتب الى اهل الكوفة (٠٠٠) انى بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا
واثرتكم على نفسى . فخذوا عنه . فقدم ابن مسعود الكوفة ونزلها وابتنى بها دارا الى جانب
المسجد (١) .

وتشير الرواية التاريخية الى ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص (٢)
امير مصر يأمره ان يقرب دار ابن ملح من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقهاء ففعل عمر .
وقد اختار امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (٩٩-٢٠١ هـ) عشرة من كبار العلماء
المصريين وعشهم الى القيروان ليعلموا أهلها السنن ويفقهوهم فى الدين ، وكان
نقيب هذه البعثة من أشهر ناهى مصر وهو ابو عبد الرحمن الطيب الذى توفي هناك
سنة مائة بعد ان نشر فيها علما كثيرا (٣) .

وقد حظيت مدينة القسطنطينية بعدد كبير من الصحابة (٤) الذين نزلوا مصر
معلمين أو فاتحين أو ولاية حاكمين - وقد أثر عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله :
" ألا انى انما أبعت عمالى ليعلموكم دينكم ويعلموكم سننكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم " .
ولا يأخذوا أموالكم " (٥) . ولكن كان قدر هؤلاء الصحابة أكبر من غيرهم فى تعليم
القرآن الكريم وعلومه فى تلك الفترة المبكرة . فكان هذا العمل من جانبهم (اقتداء)
بالرسول (صلعم) الذى بعث اصحابه من قبل فى الناس ليفقهوهم فى الدين . ويعلموهم
ما كتب عليهم . وكان اصحاب الرسول قد اخذوا عنه الامور وعلموا اسباب النزول والاوامر
والنواهي . وعما هدا قرائن الامور وثاقبوا فى أكثرها النبى (صلعم) واستفسروه عنها .
مع ما كانوا عليه من صفة العلم ومحرفة معانى الكلام وتنوير القلوب ، فكانوا أعلم الامم
وأولاهم بالتقليد (٦) .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٤ ص ٦١

(٢) ابنه قماق : الانتصار ج٤ ص ٦

(٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج١ ص ٤٨٣ - ج٤ ص ٢٩

(٤) افراد السيوطى أسماء هؤلاء الصحابة فى فصل خاص اسماء (دار الصحابة)
فيم نزل مصر من الصحابة (نقل محظوه من كتاب محمد بن الربيع الجيزى وزاد
عليه) السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٩٩-١٤٠

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ج٢ ص ١٣١ - الماوردى : الاحكام
السلطانية ص ٣٠

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢

كانت العلوم المائدة اذن لدينيه (نواتها القرآن الكريم) ومنذ بداية الحركة العلمية في مدينة القسطنطين وغيرها من الامصار الاسلامية كانت مسائل العلم تقريبا تدور حول علوم القرآن من تفسير وقراءات وحديث وفقه (فكان لا بد من النظر بالكتاب ببيان الفاظه أولا . وهذا هو علم التفسير . ثم باسناد نقله روايته الى النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات . ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام في الرواه الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الموثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو علم الفقه وأصوله) . (١)

ويلحق بالتصوف بالعلوم الدينية الاسلامية لانه كان لا يزال خاليا من النواحي الفلسفية المحققة . وكان يستمد اصوله من مصادر اسلامية .

وقد كانت البحوث حول القرآن الكريم تتخذ شكلا آخر فكانت ذو طابع ديني . (٢) فقد كان النظر في القرآن الكريم والحديث لا بد وان يتقدمه علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والآداب) الذي هو لسان الله وبه تنزل القرآن) . (٣)

كما نشأت الدراسات التاريخية في كنف الدراسات الدينية فكانت متأثرة بعلوم القرآن الكريم مثل الحديث . (٤)

(١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣

(٢) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥

(٣) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٦ — الخوارزمي : مفاتيح

العلوم ص ٥ — جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

(٤) سيدة كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ص ١٣

كانت العلوم العقلية " علوم المعجم من اليونانيين وغيرهم من الامم مشتمل العلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبية " . (١) قليلة ولم تشعب بـ العلوم العرب شروطا تاما بنسبة واحدة ، وقد شجع عليها وجود الخلفاء ببغداد ورغبتهم في نقل علوم الامم الى العربية ، ليجمعوا في مدبنتهم اسباب مدنيت الامم التي سبقتهم ، وفي مصر وجدت نواه تجمعت حولها العلوم الدنيوية وهي نواة الطب " . (٢)

(٣) وكانت الناحية العلمية الطبيعية بمصر امتداد المدرسة الاسكندرية قبل الفتح ثم تكونت دراسة الكيمياء والهيئة والالهييات .

وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ومزجها يسهل كل هــــــــــــ الاشياء ويلاحظ هذا حتى في فلاسفة العلوم المسلمين ، أمثال الفارابي وابن سينا ، فكلاهما طبيب وفيلسوف " . (٤) وقد تطورت دراسة الطب في مصر فيما بعد تطورا ظاهرا " فكان على ابن رضوان الطبيب المصري الدتوفى سنة ٤٦٠ هـ كثير الرد على معاصريه من الاطباء في غير مصر كحنين بن اسحاق وابن بطلان البغدادي " . (٥)

(١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الثالث عشر ص ٤٧٨ — ٤٧٩

(٢) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١١

(٣) احمد امين : السابق ص ٩٥

(٤) احمد امين : السابق ص ١١ — القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء

ص ٢٧٧ — ٢١٣

(٥) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٩٤ — ٤٤٣ — يوسف شخت

وماكن مايرهوف : خمس رسائل ص ٧

كان الصطبة هم المهملون الأول في مدينة القسطنطينية وغيرها من الامصار الاسلامية ثم تلاهم التابعين وتابعيهم ، حتى صار الطام الى الموالى — وكانت المدرسة العلمية بالقسطنطينية يشتد آزرها كلما أقبل الناس على هذه الثقافة الجديدة ومن نسب من ابناء الموالى في القرن الاول الهجرى (عبيد بن جبر القبطى — مولى ابي بصره للفغاري — وكان أحد ثقات التابعين من اهل مصر — قال سعيد بن خفيص : ان القبط كانوا يفخرون به — وقد روى عن مولاة ابي بصره وغيره من شيوخ ذلك العصر ، وروى عنه كليب ابن ذهل الحضرمي . وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ٧٤ هـ) . (١)

وكذلك (عبد الرحمن بن معاوية بن حديج من ابناء السلطيسيات) (٢) الذي كان قاضى مصر لعهد العزيز بن مروان سنة ٨٦ هـ وصاحب شرطته ونائبه على مصر (انظر ٣) .

الرحلات العلمية :

وباتساع رقعة الدولة الاسلامية ودخول امم كثيرة في الاسلام ازدادت الحركة العلمية نشاطا وشهد العالم الاسلامى مولد مدارس اسلامية كثيرة تختلف في ميدان الثقافة من حيث العمق وغزارة الانتاج العلمى — فأخذ المصريون اساتذة وطلابا يرحلون الى تلك الامصار مثل المدينة المنورة أو دمشق أو الكوفة أو البصرة بالعراق موطن ائمة النحو واللغة) — ومن أبرز علماء الدين الذين رحلوا الى المدينة المنورة حيث موطن الامام مالك — الليث بن سعد وعبد الله بن وهب . (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٨٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٦١ — السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ٢٦٠

(٢) سلطيس — قرية مصرية استولى عليها المسلمون غزو وسبوا أهلها ، فسردهم عمر بن الخطاب وخبرهم بين الاسلام والبقاء على ما كانوا عليه (على بهجت : قاموس الامكنة والبقاع الواردة في كتاب فتوح البلدان ص ٨٣/٨٤) .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٢٦ — الكندى : الولا والقضاة ص ٣٢٤ — ٣٤٩ — الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٦

(٤) ابن فرحون : الدياج المذهب ص ١٥ و ١٩ و ١٣٢

ولاشك انهم كانوا يهودون من هذه الرحلات بزاد جديد من العلم وينكبون لمطابقة حياة البحث والدراسة . لذلك كانت الرحلات تحظى بمكانة بارزة . كأسلوب من أساليب التعليم وخاصة في القرنين الاول والثاني للهجرة . (١) وما زاد من أهمية هذه الرحلات ان العلوم والمعارف المائدة في تلك الفترة وهي العلوم الدينية — كانت تتناقل شفاهاً (ويرجع ذلك الى ان طبيعة هذه العلوم من تفسير واحاديث — كانت تمتاز بقلّة الاختلاف والسهولة والمراجعة والاستقصاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهدهم من صاحب الشريعة . فكانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم . (٢)

ولذلك ظل هؤلاء العلماء يحفظون ما أخذوه من الرسول (صلعم) دون تدوين وكانوا يسمون المختصين بحمل العلم ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا اميين . لان الامية يومئذ صفة عامة في الصلابة بما كانوا عرباً اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنّة المشهورة عن الله . . (٣)

وقد جاء في القرآن الكريم (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) . (٤) ولذلك صار هناك بعض التمييز بين هؤلاء القراء من الصلابة وبين نصريق آخر منهم انتشرت بينهم الامية وانما كانت صفتهم العلمية المسبقة عليهم نتيجة ملازمهم للرسول (صلعم) واحتكاكهم به فأخذوا عنه الكثير من الاحكام مشافهة . وان كانوا يشتركون مع القراء في افتقارهم الى تدوين ما تلقوه من النبي (صلعم) ويحلل العلامة ابن خلدون تلك الظاهرة بشيوع الامية وعدم الدراية بأمر التأليف فيقول (. . .) انما احكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصطبه والقوم يومئذ عرب لم يحرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين

-
- (١) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٤٣ — ٤٥
 (٢) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٥٩
 (٣) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الخامس والثلاثون ص ٤٣٥
 (٤) سورة العنكبوت الاية ٤٨

(١) ولا دفعوا اليه ولا دفعهم الحاجة اليه * وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين
كما ارجع البعض قلة التدوين او كره كتاب العلم الى وجهين : احدهما الا يتخذ
مع القرآن كتاب يضاهاى به * ولثلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الخط (٢)
وقد روى ابو سعيد الخدرى : " انه استأذن النبی (صلعم) فى كتابا العلم هـ فلسم
ياذن له " وروى عن ابن عباس انه نهى عن الكتابة لانهم ان تركوا الحفظ فيعرض للكتاب
عارض فيقولون عليهم * (٣)

بين الحفظ والتدوين :

كانت نتيجة لذلك ان ازداد الاعتماد على الحفظ والذاكرة التى صارت
أهم وسائل التحصيل فى تلك الفترة — وكان المحدثون واللغويون اكثر المشتغلين
بالعلم اعتمادا على الحفظ وكان الحافظ (اسى درجات العالم بالحدیث أو
المشتغل باللفظ *) (٤) وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة
مصر الدينية * (٥) والذى أخذ عنه المصريون اكثر من مائة حديث * (٦) قد
حفظ عن النبی (صلعم) ألف مثل * (٧)

وينضل هذا العالم الجليل انشردت مدينة القسطنطينية التى اتخذ فيها
عبد الله بن عمرو بن العاص دارا له * (٨) بأول صحيفة مدونة فى التفسير فى
عصر كان فيه التدوين مهيما بالاثير من الخوض بل كانت له اوجه كثيرة من الرضا
والنقد هـ وكانت مثل هذه الامور تجد بحذر شديد * قال مجاهد : اتيت عبد
الله بن عمرو هـ فتناولت صحيفة تحت مفرشه * فسمعت هـ قلت : ما كنت تمننى شيئا هـ

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الخامس والثلاثون ص ٥٤٣
 - (٢) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ — ٣٥
 - (٣) طحى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٢٥
 - (٤) السيوطى : الزهر فى علوم اللغة ج ٢ ص ١٩٩
 - (٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٧
 - (٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٥٤ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٩
 - (٧) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٣ ص ٩٥٧ — ابن الاثير : اعد الغاية ج ١ ص ٣٤٩
 - الذهبى : سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٧
 - (٨) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٢٣٨ — ابن دقاق : الانتصار جامع
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٣

(١) قال هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه أحد^{*} وربما كانت هذه الصحيفة هي التي دار عليها الحديث بين حيوة بن شريح وحسين بن شفي (٥٥) قال أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر أن حيوة بن شريح قال : دخلت على حسين بن شفي بن مانع الأصمحي وهو يقول : فعل الله بفلان ٥٥ فقلت ماله فقال عمد إلى كتابين كان شفي سهرهما من عبد الله بن عمرو بن الماص - ترضى الله عنهما - أحدهما قضى رسول الله (صلعم) في كذا ٥ وقال رسول الله (صلعم) كذا ٥ والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة فأخذهما فقرأ بهما بين الخولة والرباب - فقال أبو سعيد بن يونس : يعني بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر يكونان عند رأس الجسر مما يلي الفسطاط يجوز تحتهما لكبرهما المراكب ٥ (٢) وربما تزايد هذه الحادثة خوف هؤلاء العلماء من الاحتفاظ بهذه المدونات معولين ذلك إلى ضرورة الالتزام ولاخذ بأقوال السلف السابقة عليهم^{*} الذين كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ٥ (٣)

ولذلك حرصوا أشد الحرص على عدم التقيد بالكتابة ٥ التزاما بالسوابق - مكانة العقلية الحافظة لأنه على حد قول العلامة ابن خلدون (٥٥) إذا تلونت النفس بالملكة لاخرى (الكتابة) وخرجت عن القطر ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة بعد ذلك أضعف ٥ (٤) ولذلك صارت للرحلة أهمية كبرى في فترة افتقرت إلى المدونات - (وكان التلقين بالباشرة

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ج٢ ص ٣٥٠ - الذهبي : سير أعلام النبلاء

ج٣ ص ٥٨ - المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٣٣

(٢) المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٣٣

(٣) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ص ٣٥

(٤) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الثاني والمشهور ص ٤٠٥

١٥ لقاء الشيخ الكبار* هو الممول الاساسى لحصول الملكات * وكان اشهد استحكاما وأقوى رسوخا . (١) ولذلك كانت الرحلة معمولا هاما لتصحيح المعارف وتميزها عن سواها مع تقوية الملكة بالمباشرة والتلقين — وكان لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء الشيخ . . . (٢)

وظلت الرحلة زمنا طويلا معمولا اساسيا للدروس والبحث . (٣) وان لم يقلل من اهميتها شيوع المؤلفات الملخصة فيها . قال نيكلسون (وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ثم يعودون الى بلادهم . كما يعود النحل محملا بالعسل . ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم . ليسرخوا شنف الناس التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم . فينالون من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عميقا . كما كان هؤلاء الباحثون يمكنون احيانا على تدوين ما جوعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبنا اشبه بدوائر المعارف مع نظام رائع بلاغة عذبة . وهذه الكتب هى المصادر الاولى للمعلوم الحديثة بأوسع ما تحمله كلمة العلوم من معنى . وهما مرجع العلماء والباحثين ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعق بكثير مما يظن الناقدون .) (٤)

وكان تقييد العلم بالكتابة قد صار امرا لازما فيها بعد فترات الزمن وانتهاء عهد الصلابة بعد الطائفة من تاريخ الهجرة تضاءلت النزعة العربية الى حظر التدوين وصار تقييد العلم أمرا ضروريا وخاصة تدوين السنن (الاحاديث) وذلك لشيوع (٥) رواية الحديث وقلة الثقة ببعض الرواة وظهور الكذب فى الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

(١) و (٢) ابن خلدون — المقدمة — الفصل الثالث والثلاثون ص ٥٤١

(٣) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٣٦

(٤) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٤٥

Nickolson : Literary History of the Arabs. P.281.

(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ١٦٦ — طحى خليفة كشف الظنون ج ١ ص ٨٠

وكان السبب المباشر للتدوين هو الخوف من ذهاب العلم بوفاة الرواء وكان
 اول من تنبه الى ذلك هو أمير المؤمنين (الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ
 فقد أمر واليه المدينة ابي بكر بن عمر بن حزم : بالانظر الى ما كان من حديث رسول
 الله (صلعم) ليكتبه لخوفه من دوس العلم وذهاب العلماء . . . وأمر ولاته ان يفتشوا
 العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم . فان العلم ليهلك حتى يكون سرا . . . (١) وقد
 اشار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في كتابه صريح بنشر العلم المدون قائلا لماله
 على الامصار الاسلامية (. . .) اما بعد ، فمراهل العلم والفقهاء من جندك ، فليفتشوا
 ما علمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به في مساجدهم . . . (٢) على ان التدوين بالمعنى
 الحقيقي ابتداء بتدوين الحديث (فكان اول من دون العلم محمد بن شهاب
 الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ . (٣) ثم شاع امر التدوين في الامصار الاسلامية قبيل
 منتصف المائة الثانية من الهجرة ، وقد اشترك بعض اعلام المدرسة الدينية بعد انتقالهم
 في تلك الحركة التي كان لها اثر بعيد في حفظ العلم وشيوع المؤلفات العلمية في
 الامصار الاسلامية بعد ان كان العلماء يقتصرون على الخط ويتناولون العلم بطرق
 اخرى مثل التلقين (. . .) فكان اول من صنف وروى سعيد بن عروة المتوفى سنة ١٥٥ هـ
 والربيع بن صبيح المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠ هـ . ومصر بن راشد الصنعائي المتوفى
 سنة ١٤٥ هـ باليمن . (٤) ثم من بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وعبد الله بن
 لهيعة ثم ابن المبارك وابن وهيب وكثر تدوين العلم وتبويبه . وقبل هذا المصركان
 سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة . فسهل
 تناول العلم . (٥) وكان لجهود علماء مدينة القسطنطينية مثل ابن وهب والليث بن

(١) البخاري : الصحيح - كتاب العلم ج١ ص ٣٦

(٢) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمرو بن عبد العزيز ص ٨

ابن عبد البر : جامع بيان العلم ص ١٢٤

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٤٨٨ - الفزالي : احياء علوم الدين ج١ ص ٢٩

(بولاقي) - ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ص ٣٧ - القرطبي :

الخط ج٤ ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الفزالي : احياء علوم الدين ج١ ص ٣٩ - القرطبي : الخط ج٤ ص ١٤

طحي خليفة : كشف الظنون ج١ ص ٨٠

(٥) القرطبي . الخط ج٤ ص ١٤٤ - ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج١

ص ٣٢٠ - ٣٥١ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١

سمد وابن لهيعة أثر بعيد في المساهمة ببعض مدوناتهم " فقد كان ابن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين " وله من تصنيفه نحو مائة جزء " (١) قال ابن أبي المطم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ما نصه : " قيل لى بمصران احمد بن عيسى المصرى المعروف بالتستري المتوفى ٢٤٣ هـ قدم مصر واشترى كتب ابن وهب وكتاب الفضل بن فضاله " (٢)

وكان لشيوع هذه المدونات أثر في ظهور طريقة اخرى للتصنيف والدراسة (وهى طريقة الاملاء التى كانت أعلى مراتب التعليم وكثيرا ما كان المتكلمون واللفزيون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الاملاء " وكانت مجموعة المحاضرات التى تلقى بطريقة الاملاء تسمى الامالى " (٣) فكان الربيع بن سليمان أول من ألقى الحديث بجمع احمد بن طولون " فكان الاولاد يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع ابن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان " (٤) وقد اضطرت الحركة العلمية فى القرن الرابع الهجرى نتيجة لشيوع الورق واقتصار الامر على تدريس كتاب يقرأ فيه احد الطلبة والمدرس يشرح " (٥)

-
- (١) عرب بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٤٠
 - (٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٥٩ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٦٥
 - (٣) السيوطى : الزهر فى علوم اللغة ج ٢ ص ١٩٩ - مقر : الحاضرة
 - الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣١٦
 - (٤) القرزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٠
 - (٥) آدم مقر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٧

ولم يقتصر الامر على ذلك ، وإنما كان لشيوخ هذه المؤلفات ان كان بعضها
يؤلف بتكليف خاص من الامراء (٠٠) فقد أمر ابو المصك كافور الاخشيدى : عمر بن
محمد ابن يوسف الكندى بجمع وتأليف كتاب يذكر فيه أخبار مصر وما خصها الله
تعالى به من الفضل والبركات والخيرات (٠٠) . (١)

التخصص العلمى :

وكان للمعلوم التى سادت فى الفترة المبكرة من تاريخ الحياة العلمية طابع
مميز . انعدم فيه التخصص . فكان العالم الواحد يجمع بين انواع مختلفة من صنوف
الملم (لانه لم يكن هناك تخصصا دقيقا بين العلماء كالذى نعلمه اليوم . فلم
يكن هناك من تخصص فى الفقه فحسب أو الحديث أو التاريخ أو ما يشبه ذلك بل
كان العالم يلم بفروع مختلفة من الملم) . (٢) (٠٠) فقد كانت حلقة الامام الشافعى
المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - بالمسجد الجامع بمدينة الفسطاط - تدور على كثير من
الملم العربية . فكان يبدأ حلقة بدروس القرآن ثم يأتى اليه طلاب الحديث
وفى الضحى تدور حلقة حول علوم اللغة والمعرض والشعر والنحو . (٣) (وكان
عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى المتوفى سنة ١٩٧ هـ فقيها ، محدثا . وكان
احد اعلام المدرسة المالكية البارزين) . (٤) (قال عطاء بن رباح : ما رأيت
قط اكرم من مجلس ابن عباس اكرم فقيها واعظم خشية ، ان اصحاب الفقه غسده
 واصحاب القرآن غسده واصحاب الحديث غسده يصدرهم كلهم من واد واسع . (٥)

(١) عمر بن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص ١

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Art Masdjid, Vol.3. (٣)

ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٩٩ - ٣٠١ - ابن حجر : توالى
P.365

التأسيص ص ٦٢ - النووى : تهذيب الاسماء ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ - ابن

خلكان : وفیات الاعيان ج ٣ ص ٣٠٥

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٢

(٥) ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ٩٤

" وكان الليث بن سعد (٩٤ هـ / ١٧٥ هـ) امام اهل مصر فى الفقه والحديث مما " (١) قال يحيى بن بكير : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث بن سعد ، وما رأيت اكمل منه ، كان فقيه البلد ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو والشعر والحديث — حسن المذاكرة " (٢)

خضعت العلوم والمعارف الاسلامية فيما بعد لعامل التطور الزمنى وشهدت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ما يمكن ان نسميه بقدر من التجاوز التخصصى العلمى بين صفوف العلماء . وقد بدأت الدعوة نحو التخصص تأخذ طابعا خاصا ويمثل هذا فى دعوة العلماء اليه (فكان العلماء يفرقون بين انفسهم وبين الادباء ، حتى قال ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٨٦ هـ) : " من أراد ان يكون عالما فليطلب سبب فنا واحدا ، ومن أراد ان يكون ادبيا فليتبع فى العلوم وان يأخذ من كل شىء أحسنه) " (٣) ورغم ان مثل هذه الدعوة لم تتحقق الا فى وقت متأخر الا انفسه صار لابد من تمايز العلماء انفسهم بالتركيز على مجال واحد او مجالين تبرز فيهما الملكة الحقيقية التى يتتبع بها هذا العالم أو ذاك (قال يوسف بن عدى (المتوفى سنة ٢٣٢ هـ) ادركت الناس فقيها غير محدث ومحدثا غير فقيه ، خلا عبد الله ابن وهب ، فأثنى رأيت فقيها محدثا زاهدا ، صاحب سنة واثارا) " (٤) وهكذا نجد ان بعض العلماء امتازوا فى بعض الميادين دون غيرها ، وما يذكر ان الدعوة الى التخصص النسبى كانت مقدمة نحو تمييز بعض العلوم " فقد خرجت من بين فنون الاداب القديمة مجموعة من العلوم الدينية ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمى وأسلوب علمى ، سوى الفلسفة وعلم الكلام ، ثم صار لكل من التاريخ

(١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨١

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٨٣٦ + ٨٣٧ — ابن حجر : الرخصة الفيشية ص ٦

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٧٥ — ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج١ ص ١٣٩ — ابن جماعة : تذكرة الصامع والمتكلم ص ٩٣ — ١٤

(٤) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج١ ص ٦٢٧ — ابن فرحون : الديب — اج العذهب ص ١٣٣

والجغرافيا واللغة منهجه الخاص * (١) وترك العلماء ما كانوا قد ألقوا قبل مسن اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها بل أقبلوا على الدراسة العلمية وعلى تنظيم المعارف وشرحوا بما يجب عليهم من غاية ومحاسبة في تدوينها * (٢) جاء في مقدمة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ (هذا كتاب نذكر فيه المقصور والمدود ، ما كان مقبىا وغير مقبى ما ولغا على حروف المصم ، ليقرّب وجوه الحرف على طالبه ويسهل استخراجه من موضعه) * (٣)

وقد كان لحركة الترجمة ونقل العلوم والمعارف القديمة أثر كبير في ظهور بعض المؤلفات التى لا شك انها أفادت من تلك الحركة . وكان ذلك بعد مرحلة الاستقرار وضمف المقول الى معرفة ما تحويه الثقافات القديمة (الاغريقية ، واليونانية) من علوم ومعارف * (٤)

* فكان سيويه المصرى يتمثل بأقوال فلاسفة الاغريق * (٥)

وقد ألف ابن الداية كتاب (السياسة لافلاطون وشرح كتاب الثمرة * وهو كتاب بطليموس) * (٦) وقد صار للمعلوم الدنيوية كالتب والفلسفة أثر مذكور ففى القرنين الثالث والرابع من الهجرة .

(١) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٣٠١

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٣٠١

(٣) ابن ولاد : المقصور والمدود ص ٣

(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١٣

(٥) ابن زولاى : اخبار سيويه المصرى ص ٣٥

(٦) ابن ابى اصيعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج١ ص ١٢١ - باقوت

الحوى : معجم الادباء ج٥ ص ١٥٤

وكان هناك تشييرات أخرى خاصة بعلوم الدين (فقد تميز علم الفقه عن غيره من علوم الدين • وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء والعلماء على الحقيقة) . (١)

وكانت هناك طريقتان منهجيتان لدراسة العلوم السائدة (العقلية والمقلية) :
 " فالعلوم العقلية مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل
 الا في الطق الفروع من مسائلها بالاصول " . (٢) ولذلك اعتمدوا منذ البداية على
 الرواية وصحة السند • فهم يجمعون ما قاله السابقون وقد يرجحون قولاً على
 قول ويكاد يقتصر عليهم على التحقق من صحة النقل " . (٣)

" لأن اصل هذه العلوم هي الشرعيات من الكتاب والسنة " . (٤) فـ قال
 تعالى : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) . (٥) وجاء في سورة القمر :
 (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) . (٦) ومن هذا نجد ان الآثار
 قد جاءت بالقرآن الكريم الكتاب المنزل على عباد الله ، تؤكد احتوائه على جماع
 الحقائق ، وطمية المعارف ، ولذلك لم يكن هم المسلمون الوصول الى الحقيقة والبحث
 عنها • ومن أراد الوصول الى الحق ، فليحفظ القرآن ، وسع ما فيه " . (٧)

(١) منز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص ٣٠٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١٦

(٤) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٥) سورة فصلت آية ٣

(٦) سورة القمر آية ١٧ •

(٧) احمد فؤاد الهواني : التعليم في رأى القاضى ص ١٩٢ •

وقد اختلف منهج أصحاب العلوم العقلية من دأري الطرب وخلافه عمن
المنهج النقلى فقد ركن أصحاب العلوم العقلية الى معقولية الحقائق وامتحنها •
متخذين اما سبيل المنطق واما التجريب العلمى • (١) فهم يحكمون بالصواب والخطأ
بعد تمحيص للوصول الى الحقيقة • قال ابن خلدون : " ان العلوم العقلية هتسى
العلوم التى يقف عليها الانسان بطبيعة فكره وسهتدى بمداركه البشرية العلمى موضوعاتها
ومسائلها وانطأ براهينها ووجوه تعليمها • حتى يقف نظره ويبحثه على الصواب
من الخطأ فيها • " (٢) وكانت هذه العلوم قد رسخت فى دولها من قبل فاستقرت
منهجها •

فبما يتعلق بنظم تعليم العلوم النقلية مثل الحديث والفقه — فلم يكن هناك
اجازة يشترط ان يحصل عليها المعلم ليكون صالحا للتعليم • حتى يرخى لـه
بمزاولة المهنة وانما كان رسم ذلك كما يقول السيوطى : " ان من علم من نفسه
الاهلية جاز له ذلك وان لم يجزه أحد • وعلى ذلك السلف الاولون والصدرا الصالح
وكان هذا الرسم سائدا فى أفرع العلوم النقلية — مثل الاقراء والافتاء • " (٣)

ويبدو ان الرسم الذى استجد بعد ذلك بمنح الاجازات للقائمين بأمر
تدريس العلوم الدينية كان لارشاد طلاب العلوم الآخذين من هؤلاء العلماء •
قال السيوطى فى الاتقان (وانما اصطلح الناس على الاجازة لان أهلية الشخص
لا يعلمها غالبا من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم) • (٤)

(١) احمد امين : فحى الاسلام ص ١٦

(٢) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٣) السيوطى : الاتقان ج ١ ص ١٢٨

(٤) السيوطى : السابق ج ١ ص ١٢٨

وقد اشار الفقهاء الى " انه لا يجوز أخذ المال في مقابل هذه الاجازات ولا الاجرة عليها " (١) وكان هناك بعض الاجازات التي منحها ائمة الفقه لبعض اعلام المدرسة الدينية بالفسطاط " فقد رحل ابن القاسم الفقيه المالكي المتوفى سنة ١٩١ هـ للاخذ عن الامام مالك بالمدينة - وقد أجاز له مالك الرواية عنه وقال له : اتق اللسنة وعليك بنشر هذا العلم " (٢)

وفي الفترة المبكرة ظهرت بعض البوادر التي ربما توحى بادرار ائمة الفقه لمعنى التخصص العبدى " فكان الامام مالك يقول : " ابن وهب عالم ، وابن القاسم فقيه " (٣)

أجور التعليم :

ومنذ البداية كان تعلم العلوم الدينية " يدرس بدون مقابل وقد ذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وابن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم الى انه لا يجوز ان يأخذ المعلم اجرا على تعليم القرآن والحديث " (٤) ذلك لان اقامة سنة رسول الله (صلعم) وتشديد قواعد الاسلام وارشاد عباد الله الى الحق - قد استوجبت على القائمين بأمر التدريس (ان يكون تعليمهم العلوم الدينية - ابتغاء وجه الله تعالى والقيام بتعليم تلك العلوم تطوعا) (٥) وفي عصر الصحابة والتابعين ازداد التشدد في عدم اخذ الاجر عن العلوم الدينية " فحين فرض سعد بن ابى وقاص بايان ولايته على العراق (١٤ - ٢٠ هـ) عن يقرأ القرآن في الفين الفين كعب اليه عمر بن الخطاب ان لا يحط على القرآن احدا " (٦) ولمل هذا يوضح

-
- (١) السيوطي : الاتقان ج١ ص ١٢٨
 - (٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج١ ص ٦٥٢ - ابن فرحون : الديباج الذهب ص ١٤٦
 - (٣) ابن فرحون : الديباج الذهب ص ١٤٧
 - (٤) السمرقندي : بمستان العارفين ص ٤ - مئذ : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى
 - (٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ٥٢ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٤١ - طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج١ ص ٣٣
 - (٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٨

ما أشار إليه ابن خلدون * من أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والآذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب * (١) وقد فسرنا الاجر فقط على القصص * فقد كان رزق القاضي عبد الرحمن بن حجية الذي ولي القضاء والقصص من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ — ألف دينار — مائتي دينار — من القضاء — وكان عطاؤه مائتي دينار — وكانت جائزته مائتي دينار * (٢) ومن المعلوم انه * قد فرض للمرب المستقرين بمصر المطاء الذي كان يعطى لهم من بيت المال * (٣) وكان هذا المطاء يمثل الدخل الرئيسي لكثير من طلاب العلم في تلك الفترة * ولم يكن طلب العلم عملاً يدر دخلاً * وكان هذا المطاء قائماً * ويقدر من ثلاثة أوجه :
 احدهما عند ما يموله الشخص من الذراري والماليك * والثاني : عدد ما يرتبط به من الخيل والظهور ثم الموضع الذي يحله من الفلا * والرخس * فيقدر كفايته في نفقته وكسوته لعامة كله * فيكون هذا المقدار في عطاء * ثم تمرض حالة كل علم * فاذا زادت رواتبه الماسة زيد * وان نقصت نقص * (٤) وظل الامر على هذا الامر الى ان أمر الخليفة العباسي المعتصم باسقاط العرب من الديوان سنة ٢١٨ هـ * (٥) فأتخذ العرب من الزرع معاشاً وكسباً * ونزلوا القرى واختلطوا بالمصريين * (٦) وزاولوا بصغرى الاعمال الاخرى الى جانب الزراعة مثل التجارات وغيرها *

ولاشك ان مسألة الاجر كانت قد نشأت عن غلة دينية — ولكن عندما صارت علوم القرآن الكريم علومًا تدرس — أجاز بعض الائمة أخذ الاجر عن تعليم القرآن — مثل مالك بن انس * (٧) وان كانوا قد اجازوا الاجر على تعليم القرآن فلا ريب

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل السابع ص ٣٩٢
 (٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٣٥ — الكندي : الولاة والقضاء ص ٣١٤ — ٣١٧ — الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢
 (٣) ابن عبد الحكم : السابق ص ١٠٢
 (٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٠٥
 (٥) الكندي : الولاة والقضاء ص ٢١٧ — المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣١١
 (٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٨٢
 (٧) القايي : الرسالة المفصلة لحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين * ملحقه بكتاب * عبد العزيز الالهواني : التعليم عند القايي ٢٢٩ — ٢٧٠

انهم لم يحرموه على بقية المواضع المدرسية. (١) وفي مصر " كان أول من عسرف
اقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جاز لطائفة من الناس يد يار مصر في خلافة العزيز
بالله — نزار بن الممزر — في وزارة يعقوب بن كلس — فعمل ذلك بالجامع الازهر " (٢)
ولاشك ان الفترة التي حرم فيها أخذ الاجر على تدريس المعلوم الدينية كانت تتطلب
من دارس المعلوم الدينية شيئا من اليسر المادي الذي يتيح لاصحابه فرصة للتنقسل
والترحال للاخذ عن الائمة والمعلماء ولذلك كانت القدرة المادية عاملا هاما في اذكاء
قرايح اصحاب الطلقات العلمية لانها كانت لا تشغلهم بطلب المعاش — وقد ذهب
البعض الى ان العلم لا يصلح الا لاصحاب الحسب والدين والسلطان (قال ابو بكر بن
عبد الرحمن : ان العلم لواحد من ثلاثة ، لذي حسب يزينه — او لذي دين يسوس به
دينه — او لمن يغلط بالسلطان ويدخل اليه بتحفة تعلمه وينفعه به) (٣) واذا القينا
نظرة فاحصة على اعلام المدرسة الدينية بمدينة القسطاط نجد ان معظم هؤلاء
الاعلام كانوا ذوي جاه ونفوذ وكان لبعضهم أملاك واسعة " فقد كان الـليـسـت
بن سعد المتوفى سنة ١٢٥ هـ كبير الديار المصرية وطلبها الانبل حتى ان نائب
مصر وقاضيهما من تحت اوامره — واذا ربه من أحد منهم امر كاتب فيه الخليفة في عزله —
وقد طلب منه المنصور ان يحمل نيابة الملك فامتنع " (٤) كما كانت له ضياع واملاك
واسعة كانت تدخ عليه في كل عام خمسة آلاف دينار — وكان قد وصل بالملك بن انس
وعبد الله بن لهيعة كلا منهم بألف دينار " (٥) وكانت اسرة بني عبد الحكم
من ذوي الجاه والنفوذ فكان عبد الله بن عبد الحكم عميد هذه الاسرة والمتوفى
٢١٤ هـ — قد استقبل الامام الشافعي حين قدمه الى مدينة القسطاط ووصله

(١) د . عبد العزيز الاخواني : التعليم عند القايص ص ١٩٢ — وما ذكره من
مراجع

(٢) القوي : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٦
(٤) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٥١٢ — ابن خلكان : وفيات الاعيان
ج ٣ ص ٢٨٠ — ٢٨١ — ابن حجر : الرحمة النبوية بالترجمة اللبثية ص ١٢٥
ابو الصمصم : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٢ — السيوطي : حسن المحاضرة
ج ١ ص ٣٠١

بالفد يناره وأخذ له من ابنه صامه التاجر ألفا أخرى كي يستعين بها على أمره (١) . وكان يحضر اعلام المدرسة الدينية ينفذون على غيرهم من العلماء الواقفين . قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : " لما وردت مصر سنة ٢٥٦ هـ نزلت على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ لى دارا قريبة منه ، وجاءنى أصحابه فقالوا : نحتاج الى . . . (٢) "

وكان عبد الرحمن بن القاسم — الذى كان رئيسا للملكية بمصر — قد ورث عن والده القاسم بن خالد المتولى الذى كان يعمل فى الديوان ما يقرب من ألف مثقال . وقد رحل للاخذ عن الامام مالك بالمدينة " (٣) "

وأعطى محمد بن عبد الله الحافى المالكي — المتوفى سنة ١٧٣ هـ — حسين دينارا " (٤) "

وتذكر الرواية التاريخية " ان صالح بن طى المباسى لما خرج من مصر الى الشام سنة ١٢٢ هـ — خرج بنفر من وجوه أهل مصر منهم غوث بن سليمان الحضرمي وعمرو بن الطرط الفقيه " (٥) "

(١) الكندى : الولاء والقضاء ص ٤٣٦ — ٤٤٠ — ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ٢ ص ٢٣٩ — ابن فرحون : الديهاج المذهب ص ١٣٤ — ابن الممساك الحنبلى : شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٤ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨٠

(٢) باقوت الحموى : معجم الادباء ج ١ ص ٦٥٩

(٣) القاضى عباس : ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٥٤ — ٦٥٩

(٤) القاضى عباس : السابق ج ١ ص ٣١١ — ٣١٢ — ٦٥٩

(٥) الكندى : الولاء والقضاء ص ١٠٥

وصها يكن من الامر . فقد استقطب القرآن الكريم وعظمه الدراسات العلمية
بالفصاط . وقد تهيأت السبل أمام دارس القرآن والتفسير .

فبالإضافة الى تشجيع الولاة وأولى الامر . كانت هذه الدروس تلقى على
الطلبة والراغبين فيه دون مقابل لان العلماء الدينيين كانوا يكرهون ان يأخذوا
المعلم على القرآن أجرا . (١) وقد كان الكثير من أفراد الشعب يتطوعون
للتعليم والدروس ونشر المعارف . (٢)

-
- (١) ابن قتيبة : المعارف ص ١٢٥ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣ او ١٤
طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٣٣١
- (٢) طي حنى الخربوطلى : العرب والحضارة ص ١٨٤ .

٣- دور الـذميين المصريين فى الحياة الفكرية

المريـسة

يمكننا ان نعز بين نوعين من الدراسات الادبية فى مصر قديم الفتح العربى وهما : الادب القبطى الذى كان يكتب باللغة القبطية ، و الادب الرومانى الذى كان يكتب باللغة اليونانية . وكل منهما - فى الواقع - كان يختلف عن الاخر فى الاهمية ونوعية الدراسة . والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها ان اقلية المصريين آنذاك كانوا يعملون فى الزراعة ويتحدثون باللغة القبطية بينما يجهلون اللغة اليونانية لغة الحكام الرومان . ومن ثم كان النشاط الفكرى للقبط ودراستهم الاهمية يتركز فى الدير حيث توجد المكتبات الفنية ، وأتى فى مقدمة هذه الدير الدير الابيض بسوهاج . (١) ودير سانت ميخائيل ودير سانت قار فى وادى النطرون .

وكان كل دير من هذه الدير وغيرها يضم عددا من الرهبان المثقفين الذين يقومون بترجمة الكتب اليونانية الى اللغة القبطية وايضا يقومون بنسخ الكتب القديمة .

(١) ويعرف ايضا بدير بوشنود - ويوجد بأخميم على جبل يسمى جبل اديب غيسى النيل . ويمتاز هذا الدير بحسن البناء وباللون الابيض الذى اشتهر به . ولتحق به امنية واسعة . ويشرف الدير على حقول واسعة مزروعة يحيط بها اشجار النخيل . وتصفه بعض الروايات : " ويجرى من النيل خليج طويل المدى كأنه السيف النقى من الصدأ ، وينتهى الى قلمة مشعة ومركبة فيها اعداد المياه مجتمعة شرقى الدير يفصل بينهما الطريق لا يرى مثل نراهته فى زمن الشتاء والربيع . يتضاحك فى جنباته النوار ، وتخضوفه شقائق الزروع وتكثر فيه معايد الطير ويكون من الحسن فى غابة تلال الهصر . انظر : المعمرى : مسالك الابصار ج١ ص ٣٧٤-٣٧٥

(٢) دير سانت قار من أشهر الدير بواى النطرون بل من أشهر الدير المصرية جميعها . وقد جرت المادة بين القبط انه لا تتم بطركية البطرك حتى يقوم القداس فى هذا الدير بعد تقديمه فى كنيسة الاسكندرية عقب اختياره بطركا ويقول القريزى ان المقارات ثلاثة اكبرهم صاحب هذا الدير ثم ابو مقسار الاسكندرانى ثم ابو قار الاسقف . ووضعت هذه الجث فى توابيت خشبية . ويوزرها القبط دائما . ويوجد بهذا الدير كتاب عربى العاص لرهبان وادى النطرون .

انظر القريزى : المخطوط ج٤ ص ٤٢٩-٤٣٠

وقد اشتهر بعض الرهبان بجودة الخط . ومن الاصله على ذلك رهبان بيروت وان جنوب
القيروم ويعتبرون من امهر النساخ القبط وأخذتهم . (١)

ويؤكد لنا اهمية الدبر في النشاط الفكري والثقافة القبطية ما تشير اليه بعض
الروايات التاريخية من انه عند غزو القوس لمصر في عهد الرومان — اوائل القرن السابع
الميلادى أخذوا من بين الغنائم كنوزا علمية كانت تملأ مكتبات الاديرة . وتقول بعض
المصادر : " واكبر ما حدث ان الدبر الكبير دبر الهانطون لم يصل اليه اذى لبعده
عن الاسكندرية . وأغلب الظن ان ما كان فيه من الكتب والمنسوخات لم يمسسه سوء " . (٢)
كما ان القديس يريميزنيوس اسقف فقط — قد أوصى وهو على فراش الموت بكل ما عنده من
الكتب الى صديقه موسى الذى خلفه مطرانا على الابوشية وكتب ترجمة حياته . (٣)

وهذه المكتبات الدبرية كان اهم محتوياتها الكتب الدينية المسيحية التى كان
لزما على الرهبان قراءتها يوميا الى جانب ما يقوم الرهبان بتأليفه من كتب تتضمن اعمال
العهداء . وأخبار القديسين وترجمة المؤلفات اللاهوتية وتراجم ملوك المذاهب الدينية .
وايضا تصنف كتب فى الحياة الدبرية وقواعدها . ولم يمتن هؤلاء الرهبان بدراستهم
التاريخ الا بتاريخ بطاركة الكنيسة القبطية وخاصة رهبان وادى النطرون ولم يمتن
القبط بالملموم الاخرى اللهم الا غنايتهم بالطب وبعض تركيبات الادوية القديمة التى
ترجم الى المصر الفرعونى . (٤)

ونلاحظ ان مؤلفات القبط مصفة عامة كانت كثيرا ما تتضمن اشارات الى اسماء
الهلاله ودقلد يانوس وزينون . وبعض الاشارات الجغرافية لارنيا والفرس والحشة . (٥)

(١) Munier : L'Egypte Byzantine. P. 87.

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٧

(٣) نفس المصدر ص ١٦

(٤) Munier : Op. Cit. PP. 87 - 88.

(٥) Ibid. PP. 88 - 89.

وفي الحقيقة لم يكن الادب القبطى أدبا دينيا فحسبه فقد كانت الاثار الدنيوية في الادب القبطى لا تقل روعة عن الاثار الدينية اذ حفظت لنا بعضا لايرة بعض الادب الدنيوية بالرغم من انصراف القبط في المصور الاولى عن تدوينها لارتفاع ثمن البردى والرق وقصرهم التدوين على الادب الدينى وهناك كثير من الوثائق والرسائل التى توضع الحياة الدنية ونشاط الرهبان في الاديرة . وقد ازدهر الادب القبطى في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . ثم خمد هذا النشاط نتيجة لاضطهاد الاباطرة الرومان وحكامهم ومانعرت له البلاد من الغزو الفارسى . (١)

والى جانب الدراسات الادبية للقبط ، آنذاك ، نجد الدراسات الادبية الرومانية الفنية . فقد ورثت الثقافة الرومانية الدراسات البطلمية الى جانب الثقافة الهيلينية . والواقع ان ازدهار الثقافة اليونانية الرومانية في مصر جعلها من اهم مراكز الثقافة والنشاط الفكرى في الشرق حتى الفتح العربى . وكان اهم المراكز العلمية في مصر في ذلك الوقت مدينة الاسكندرية . وظهر من بين الرومان الكتاب البارعون والفلاسفة والمعلماء وكانت لغة هؤلاء هى اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية في مصر في الحكومة والكنيسة والمعاملات والتجارة . (٢) واستمرت هذه اللغة محفوظة بمكانتها بعد الفتح العربى لمصر .

ونلاحظ وجود دراسات ادبية سريانية في القرنين السادس والسابع الميلاديين . ورجع وجود هذا الادب السريانى الى نتائج غزو الفرس لبلاد الشام وهجرة كثير من العلماء السريان والادبان الى مصر خوفا من اضطهاد الفرس ونقل هؤلاء العلماء والادباء معهم كتبهم وأعمالهم الادبية وقيل هجرة هؤلاء العلماء ، كان في الاسكندرية بعض العلماء السريان الذين قد صالوا اليها بخبر داسة علوم الطب . وهكذا ظهرت اللغة والادب السريانية في مصر . ولا سيما في الاديرة التى نزلها هؤلاء السريان . وقد قام بعض هؤلاء السريان بترجمة بعض اجزاء الكتاب المقدس وكتب الطب الى اللغة السريانية وقد حفظت

(١) مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطى ص ١١٥-١١٦

Munier : L'Egypte Byzantine. P. 89.

(٢)

لنا مكنت بعض الاديرة . (١)

وهكذا استمرت حركة النشاط الفكرى التى بدأتها المدارس الوثنية ثم واصلها المسيحيون على مواطنى النهل . فظهرت دراسات فى الفلك والادب والعلوم اللاهوتية والفلسفة والطب وقواعد اللغة وغيرها من مختلف العلوم والاداب التى كانت مهدرا للنشاط الفكرى بعد الفتح العربى لعصره . (٢)

كان الفتح العربى ضربة قوية للادب القبطى ولكنه بالبحث ان سطت صخرة عظيمة وخلصت الفتح العربى ساعد على انتعاش اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية ، فقد شهد النصف الثانى من القرن السابع والقرن الثامن الميلاديين (القرنين الاول والثانى الهجريين) نهضة ادبية قبطية عظيمة تجمع بين الطابعين الدينى والدنيوى ولعل اكبر المواهب التى ساعدت على هذه النهضة ان نظام الاديرة قد اصبح نفسى ذلك الوقت اقل صرامة مما كان عليه من قبل وانه انتهى للرهبان فرصة القيام بشئى الحرف والاعمال كما سمح لهم بقراءة الكتب الدنيوية فى الاديرة ومن ثم بدأ هؤلاء الرهبان الكتابة والتأليف فى الشئون الدنيوية . وشجعهم على ذلك ايضا ظهور الورق الذى حل محل البردى ورخص ثمنه حتى صار فى متناول الجميع . (٣)

وكان الادب القبطى يكتب باللغة الصعيدية . ونجد فى هذا الادب الروايات القصصية والاشعار الدينية . واشتهر من بين القصص الدنيوية فى الادب القبطى

(١) Ibid., P. 89 ومحمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص ٥

(٢) Munier : Op. Cit. P. 90.

(٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى و William, H. Worrell: Short account of the Copts. P. 31.

وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب ص ١٢٣ (ترجمة مراد كامل)

قصة ثيودوسيوس * وديونيسيوس * وترجع الى اوائل القرن الثامن الميلادى *
 الثانى الهجرى - وطل هذه القصة صانع مصرى خدمه الحظ وبلغ منصب امبراطور
 اليونان * ثم حدث بمحض الصدفة ان التقى بصدىق قبطى له * فمعينه رثيما لاساقفة
 العاصمة اليونانية * كذلك نجد من بين الاناثار الادبية للقبط بعض اجزاء * من قصة
 الاسكندر مترجمة الى اللهجة الصعيدية * وقد اوجع هذه القصة الى بعض الكتاب
 القبط بكتابة رواية قصير والقبطية الاصل * وهذه القصة والواقع كانت تاريخا خاليا
 لغزو قبيز ملك الفرس لمصر * وتدل هذه القصة على وطنية عظيمة ومدى ما كان يعانسه
 القبط من كبت وضغط الحكام الاجانب * وقد عبره الكاتب فى اسلوب روايته
 ادهى رائع * (١)

وفى القرن الخامس الهجرى (الطادى عشر الميلادى) عنى احد الاساقفة
 القبط وهو الاسقف انبا اثناسيوس اسقف قوص فى مصر العليا بداسة اللغسة
 القبطية وقواعد ها وخاصة اللهجتين الصعيدية والبحيرية على نمط دراسة نحو
 اللغة العربية وقواعد ها * وقد أخذت اللهجة البحرية آنذاك تحل محل اللهجة
 الصعيدية فى الاهمية وفى الدراسات الادبية * وخاصة انها اصبحت لغة الكنيسة
 الرسمية منذ عهد البطرك انبا خريستودولس فى القرن الخامس الهجرى (الطادى
 عشر الميلادى) * (٢) وكان ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله *

وبالرغم من ذلك كان معظم اهتمام القبط فى عصر الاسلامية - كما دلتهم
 دائما بالعلوم الدينية والكتابة عن اعمال القديسين ومن اشتهر بالورع والتقوى وتركزت
 هذه الداسة بصفة خاصة فى دور العبادة ولاسيما فى الاديرة * وكان من مميزات

(١) مواد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١١٦ - ١٢٠
 William, H. Worrell : Op. Cit., PP. 31-32, 35-36

وفى الترجمة العربية ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) William, H. Worrell : Op. Cit. P. 46

والترجمة العربى ص ١٨١

الادب القبطى القصصى القصيرة لحياة الرهبان فى الاديوة . وكان هذا النوع من الادب يرمى فى الواقع الى التهذيب والاصلاح بين طامة القبط . (١) وكذلك كان القبط كثيرا ما يلقون كتبها فى آداب الكنيسة وطقوس العبادة وما يشابه ذلك من الدراسات الدينية التى كانت تجذب اهتمامهم دائما . (٢)

وانا كان هو شأن النشر فى الادب القبطى فى مصر الاسلامية ، فالتنا نجسد ان نظم الشعر كان مقتصرًا على مدح الملائكة والانبيا والقدسيين والشهداء ، السى جانب الاشعار الكنسية التى تتضمن الصلوات وبعض العزائم من الانجيل وهذه الاشعار تسمى (الابصاليات) وهذه التسمية مأخوذة من الكلمة القبطية (بصالموس) ومعناها مزمور . اما الاشعار الاخرى فتسمى (الهومات) وأصلها من الكلمة القبطية (هوس) ومعناها التسبيح . وتتركز هذه الاشعار فى كتابين هما الابصلموديسة السنوية والابصلمودية الكيهكية . (٣)

وما يذكر ان الادب الصميدى فى العهد المتأخر قد كتب فى اسلوب شمعى وبالرغم من ذلك لم يصلنا من اشعار القبط سوى ما قد كتب بالفهم . وكانت تمتاز بالصيغة الدينية . ونذكر من الامثلة على ذلك قصة آلام المسيح . وكانت الاشعار الصميدية المتأخرة والاشعار القيصية تكتب فى اسلوب وطنى يحن ولم تلتزم نهج الاشعار الاغريقية . ولم يكن ذلك مصروفًا من قبل فى الوثائق المصرية الاولى . وكانت هذه الاشعار لا تقرا بل تلحن . وتتضمن معانى هذه الاشعار ، الكثير من المعانى الادبية والحكم ، وأولعوا بصفة خاصة بأمثال سليمان وقصة ملكة سبأ ، كذلك كانت قصة قسطنطين وظهور الصليب رواية غيالية ، ولكنها دينية . وأما تصورهم لتاريخ الكنيسة فكان اخلاقيا دينيا معًا . (٤)

(١) The Encyclopaedia of Islam. Vol.2, Art Kibt. P.1002

(٢) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١٢

(٣) نفس المصدر ص ١٢١-١٢٢

(٤) وليم ويل : موجز تاريخ القبط ص ١٦٥-١٦٦

وتذكر بعض المراجع الحديثة انه " لا تستطيع اللغة القبطية ان تفخر بشمسها •
مجيد من أو مؤرخين متازين أو فلاسفة • أو أحد من رجال العلم الفحول • فجل
الاداب القبطية دينية لقله ما كان لدى القبط من طم وفصاحة ما سبب أهمال
لغتهم وعدم انتشارها في العالم مع انه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب
منها أو ذات تاريخ مجيد كالتاريخها • (١)

واستمرت دور العبادة القبطية — أي الكنائس والاديرة — طوال تاريخ مصر
الاسلامية مركزا للدراسة والعلم • وكان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية عن حياة
الآباء يقرأه القسيس صباح كل يوم • ولا يسمح لأحد منهم ان يقتنيه • وترجمت كثير من
هذه الكتب الى اللغة العربية • (٢)

وقد أهتم جل البطارقة بصفة خاصة بدراسة العلوم الكنسية فتحدثت النوايسة
القبطية عن اهتمام البطرك شنودة بالمعلم الديني في عهد الأمير أحمد بن طولون —
فتقول " وكان هذا الأب كثير الاهتمام بالكتب البيعية حتى انه كان له عدة من النساخ
ينسخون له كتباً • وكان لا يكتب له الا قوم علماء جيدين مخبرين بقراءة الكتب ما خلا
خطوطهم • وكان اذا فرغ له كتاب يفرج به • كما يفرج بينا • بيته • فيما ران يمسح
عليه ذهباً وفضة • • • (٣)

(١) Butler: The Ancient Coptic Churches, T. 2, P. 247.

كان الاهتمام بالدين وما يتعلق به من صفات قدماء المصريين المميزة • والواقع
ان آثار قدماء المصريين ما هي الا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة •
وان كل ما ظهر في مصر القديمة من فن وعلم كان من اجل خدمة الدين •
ومدنية قدماء المصريين مدنية فنية • ولكنها في الحقيقة دينية قبل كل شيء •
وذلك على عكس المدنية اليونانية التي كانت فلسفية اديبية ومن المعروف ان
الحضارة اليونانية قد التقت بالحضارة المصرية القديمة وامتزجتا ومع ذلك ظلت
المصريون يميلون الى الدين وما يتعلق به ولم يتناولوا العلوم الفلاسفية بشئ •
من الاهتمام • انظر : محمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص ٧

(٢) Butler : Op. Cit., T. 1, P. 96.

(٣) ابن المقفع : سيرة الآباء البطارقة م ٢ ج ١ ص ٦٣

وتتحدث الرواية القبطية أيضا عن اهتمام البطرك غبريال بن تريك الذى
عاصر الخليفتين الامر والحاظظ الفاطميين بالعلوم والكتب المختلفة . فتذكر انه كان عالما
خبيرا وانه كان مجتهدا فى قراءة الكتب وتفسير معانيها والبحث عنها ، ناسخ جيسد
قبطى وعربى ينسخ لنفسه كتب كثيرة ومجلدات اشتراها من كتب الحقيقة والحديث ،
ما يصلح للبيعة المقدسة والدين المسيحى . . . (١)

ومن بين الموضوعات التى كانت الاديرة مراكز لادراستها والتصنيف فيها تاريخ
بطاركة الكنيسة القبطية ، وما قاموا به من الاعمال ، وما تم فى حياتهم من كرامات
وعجائب . وكانت هذه السير مكتوبة باللغتين القبطية واليونانية . ويؤكد ذلك
ما ذكره ساويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه : " سير الالباء البطاركة " حيث انه
لما عزم على تصنيف هذا الكتاب جمع تراجم البطاركة السابقين لعصره من الاديرة
وخاصة دير القديس ابي مقارودير السيدة بنسبها رد يارات الصمود الى عجائب
ما كان بكنيسة الاسكندرية . وهذه السير والتراجم كانت باللغتين القبطية واليونانية .
وانه عمل بمساعدة بعض اخوانه القبط على ترجمتها الى اللغة العربية لنفسه
المصر الذى كان يعيش فيه (اى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) (العاشر
الميلادى) ثم اضاف اليها تراجم البطاركة الذين عاصروهم وشاهد اعمالهم وما تعرضوا
له من الصعاب وما تم على ايديهم من معجزات . (٢)

فلما عزم الشماس موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى على تكملة هذا العمل
الملئى العظام الذى بدأه ساويرس قال : " انه لما كان من تقدم من السلف الاخبار
رزقا الله بركاتهم ، قد اهتم وكتب سير البيعة ورتبها وشرح أمور البطاركة على كرسى
البشير مارى مرقس الانجيلى بالاسكندرية وما جرى لهم وما أظهره الله سبحانه على
ايديهم من العجائب وايدهم به من الصبر والجهاد وقوة الامانة وارشادهم لبرعتهم ،
وهدايتهم اياهم الى الامانة المستقيمة وتعليمهم الوصايا الانجيلية كما أمرهم السرب

(١) المصدر السابق م ٣ ص ٢٥-٢٦

(٢) ابن المقفع : سير الالباء البطاركة م ١ ج ١ ص ٨٤

جل اسمه " انا الخطي " البائس ان اجمع سيرهم واكتبها ليكون ذلك رجا لــــى
ولمن يقرأها بعدى . . . (١)

وكان مركز نشاط هذا الراهب الاديرة ايضا كمن سبقه وساعده في هذا العمل
الاسقف الذي ساعد ساويرس من قبل في الترجمة الى العربية وهو ابو حبيب ميخائيل
ابن بدير الدمشوري . ويصف موهوب ما وجدته من هذا السير في الاديرة قائلا : " فوجدنا
بدير السيدة بنمينا منها سيره اثنين واربعين بطركا من طارى مرقس الانجيلي السى
سيمون . ووجدنا في دير الشهيد تادرس سيرة اربعة بطاركة من الاكسندروس السى
ظيال وهو تمام ستة واربعين بطركا . ووجدنا في دير نهيا ايضا سيرة تسعة بطاركة
من انبا مينا الى شنودة وهو تمام خمسة وخمسون بطركا . ووجدنا في دير ابي مقار سيرة
عشرة بطاركة من ظيال السادس والخمسون الى سانوتيسوس الظمير الستون كتبها انبا ميخائيل
اسقف تنيس وهى بخط لقوط الراهب " فلما جمع هذه السير وبدأ فى تكملة الكتاب
بكتابة تراجم من عاصره من البطاركة وما قاموا به من اعمال . (٢)

وبعد ذلك اكمل هذا العمل العظيم يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينا
المصري بابن القلزمى الكاتب . اذ جمع سير البطاركة التى انتهى موهوب من
كتابتها . ثم زاد عليها سير من عاصره من البطاركة وشاهد اعمالهم وحضر قداساتهم
وتحدث معهم . (٣)

ونلاحظ اهمية هذا الكتاب فى تاريخ مصر الاسلامية اذ لم يقتصر على ذكر
تراجم البطاركة القبط واعمالهم فحسب بل انه يضم كثيرا من الاحداث السياسية

(١) ابن المقفع : سير الابهاء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ١٥٩

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩-١٦١

(٣) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٢٢٢-٢٢٣

والاقتصادية والاجتماعية . فزاه كثيرا ما يشير الى صلات مصر بالخلافة الاموية ثم
بالخلافة العباسية . ويذكر اساطير ولاة مصر وموظفيها الاداريين والماليين . ويتحدث
عن استقلال مصر عن الخلافة العباسية في عهد الامير احمد بن طولون . كذلك تشرى
فيه ما يشير الى خروج مصر وبراياتها وما تتعرض له البلاد من سنوات القحط والفناء
ذلك الى جانب روايات كثيرة عن الاعياد والصور الاجتماعية المختلفة ومـ
جوانب الحياة الثقافية .

ومستطوع القول بان القرن الرابع الهجري (الماشر الميلادي) قد تميز
بكثوة ما ظهر فيه من المخطوطات باللهجة الصعيدية في الادبيرة المختلفة . وكان
القبط آنذاك يكتبون على الرق . وكانت الصفحات كبيرة ، كما كانت الكتابة
تتميز بالرف والكبيرة . وكانت تختلف كل الاختلاف عن المخطوطات التي ترجع
الى القرن السادس الميلادي مثلاً . وكانت هذه المخطوطات تتضمن فـ
الواقع ، الآداب الصعيدية القديمة مثل الكتاب المقدس وسير القديسين والمظا
وما الى ذلك . (١)

شهد العصر الفاطمي بصفة خاصة نهضة عظيمة للادب القبطي ، وهذه النهضة
تتمثل في ترجمة الكتب القبطية الى اللغة العربية وتصنيف الكتب الجديدة باللغة
العربية ايضاً . ومن هذه الكتب ادب تاريخ القديسين وحياة الابرشنة والاب باخوم
والأب باخون والأب بيزنيتوس وغيرهم . وهذه القوارين تتضمن اطراء وتقويلاً لهؤلاء
القديسين اكثر منه تاريخاً أو تراجماً لحياتهم . (٢)

وكان من بين العلوم التي يهتم بها القبط ، السحر والطب . وكانوا فـ
الشالب ينظرون الى الطب على انه نوع من السحر . ولم يواجه القبط اى اهتمام

(١) ولهم ويل : موجز تاريخ القبط ص ١٨ .

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1002.

على الصل في هذه الجادين ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ومع ذلك لم يصل
اليها من كتابات القبط في هذا الشأن الا قد وقليل . ولم يكن هناك فاصل
بين النصوص الطبية وبين النصوص السحرية . وكانت هذه الكتابات في الغالب تتكون من
فقرات يختص كل منها بمرض أو ألم معين مع الاشارة الى نوع العقاقير المناسبة لمعالجة
ثم تحوى هذه الكتابات على بعض الكلمات البسيطة بعضها اسما ملائكتها لبعض الاخر
ليتم الاخطوط على هيئة حروف بفرض الابهام وكان القبط يتخذون العقاقير من كل
مصدر ممكن . (١)

ويذهب بعض الكتاب المحدثين الى ان الثقافة القبطية ، مرت بمراحل ثلاثة :
أما الاولى فكانت قبل الفتح العربي لمصر . وفيها كان الادب القبطى يقف جنباً الى
جنب مع الادب اليونانى وكان مكتوباً على ورق البردى ويرجع تاريخه الى القرن السادس
الميلادى او ما قبله . وفي بعض الاحيان كانت الكتب تجمع بين اللغتين اليونانية
والقبطية . أما المرحلة الثانية فهي مرحلة ضعف شأن اللغة اليونانية وآدابها ، وانتماس
اللغة القبطية وآدابها تحت الفتح العربى لمصر واستقرار العرب في البلاد المصرية .
وقد ارتفع شأن القبط اليماقية آنذاك وكانت الادب القبطية تدون باللغة القبطية
وحدها دون اللغة اليونانية . اما المرحلة الثالثة فكان التبط خلالها يؤلفون كتبهم
في مختلف المجالات باللغة العربية . وقد بدأ تقريبا في أواخر القرن الرابع الهجرى
(الماخر الميلادى) بعد ان اصبحت اللغة العربية هي اللغة الدارجة في مصر
الاسلامية . وصارت جميع الكتب في الدراسات الادبية والدينية تؤلف باللغة العربية
منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو قبل ذلك
بقليل . (٢)

وتؤكد لنا البعثات العلمية الاوربية والامريكية الى دير سنت كاترين بقبة
جزيرة سيناء في المصور الحديثة (اى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين)

(١) وليم ورنل : موجز تاريخ القبط من ١٢٨

(٢) Butler: The Ancient Coptic Churches, T.2. PP.254-255

ان الدير كان دائما المركز الحلى لمسيحي مصر، وأنه كان يضم مكتبة يوجد بها الكتب الدينية والدنيوية، وحدث في القرن التاسع عشر ان وصلت بحثات علمية روسية وألمانية الى هذا الدير للاطلاع على ما تضمه مكتبة هذا الدير. ثم جاءت بعثة امريكية في القرن العشرين (سنة ١٩٥٠ م) - بعثة طور سيناء لتطوير المخطوطات بالميكروفيلم واشترك في هذه البعثة احد علماء كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، وهو الدكتور عزيز سوريال عطية، الذي وضع فيها رس علمية تحليلية للمخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة هذا الدير والتي ترجع الى أقدم العصور. (١)

وفي آخر ايام سنة ١٩٦٢ م اشترك أحد علماء كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ايضا وهو الدكتور جوزيف نسيم مع بعثتي متشيجان وروستون بأمريكا في القيام ببعض الدراسات الفنية والآثار والتاريخية في دير سانت كاترين المذكور آنفا. (٢) وقد اسفرت نتائج هذه البعثات العلمية عن مدى ثراء مكتبة الدير الحلى وما تضمه من المخطوطات والوثائق التي ترجع الى عصور تاريخية مختلفة، والتي تدلنا على مدى ما كان عليه الدير من أهمية بالغة من النشاط الفكري للقبط في مصر الإسلامية.

وقد اسفرت نتائج هذه الدراسات على ان مكتبة هذا الدير تحتوى على اكثر من خمسة آلاف مخطوط ووثيقة. ويرجع تاريخ هذه المخطوطات والوثائق الى الفترة ما بين القرنين السادس والثامن عشر الميلاديين، وان هذه المخطوطات والوثائق مكتوبة بلغات متعددة هي العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافية والجورجانية واللاتينية والارمنية والبولونية. واكثر هذه المخطوطات في اللاهوت، والكتب الكنسية والدينية. ومنها ما هو في الفلك، والموسيقى والرياضة والفلسفة والتاريخ والجغرافية والطب والقانون. أما الوثائق فأغلبها مكتوب باللفظة العربية والقليل منها باللغة التركية وهذه الوثائق في الغالب تتضمن عقودا ومراسيم ومنشورات ومعااهدات وحجج وأوامر إدارية، وأقدمها يرجع الى العصر الفاطمي. (٣)

(١) عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية

ص ١٦١-١٦٢

(٢) جوزيف نسيم : دراسة وثائق المصريين الفاطمي والايوبي بمكتبة سانت كاترين ص ١٧٩.

(٣) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج ١ ص ١٢-١٧. جوزيف نسيم : دراسة وثائق المصريين الفاطمي والايوبي ص ١٨١-١٨٢

ومن بين مخطوطات الدير ، مخطوطات لا قدم التراجم العربية لبعض أسفار
المعهد بن القديم والجديد بالخطين الكوفي والنسخ . ومن بين هذه المخطوطات
أيضا التراجم العربية لمؤلفات القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير في عهد
بني أمية . وكتاب طب العيون لمولى بن عيسى أو كتب الصلوات والتفاسير وتأريخ
حياة آباء الكنيسة وقوانين الرهبان وغير ذلك من الكتب المسيحية البحتة فان مكتبة
الدير تزخر بها . ومن الملاحظ ان هذه المخطوطات تنتهى بما يسمى القلوفونات
(Colophons) ويتضمن بعضها معلومات تاريخية ذات أهمية بالغة
لفهم حوادث العصر الذى يسجل فيه الكاتب ما يتضمنه هذا الجزء الأخير من
المخطوطات . (١)

وما تجدر الاشارة اليه غاية القبط وخاصة الرهبان منهم فى الاديرة بتجليد
الكتب والمخطوطات ، وزخرفتها . والواقع ان تجليد الكتب وزخرفتها فن مصرى
قديم ثم ازدهر هذا الفن فى مصر القبطية وخاصة بين الرهبان ، وكسبان
اهتمامهم بتجليد الكتب ، شأنها شأن عنايتهم بنسخ الانجيل والكتب
الدينية . (٢)

ولاك قد قام الرهبان فى الاديرة بهذا الفن ط تعاز به مخطوطات دير سنت
كاترين من التجليد والزخرفة . ونذكر من الامثلة على ذلك مخطوطات ترجع الى
القرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلاديه (الثالث والرابع
والخامس والسادس الهجرى) وموضوع هذه المخطوطات المعهد القديم او مجموعة
قوامير وسابيح ورسائل بولس والانجيل الاربعه وغير ذلك من الموضوعات الدينية
البحتة . وقد جاء فى وصف بعض هذه المخطوطات انها مغلفة بغلاف خشبى يكسوه
جلد بنى داكن ، مكتوب عليه بالخط الكوفى ، وأحيانا اخرى يكون مكتوب بالخط
النسخ . (٣)

-
- (١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج ١ ص ١٤
(٢) زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٧
(٣) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج ١ ص ١٧ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢٧

وجاء في وصف بعض المخطوطات الاخرى ان غلافها خشبي يكسوه جلد
بنى وزين بأشكال هندسية على الطراز العربى ومحشو بقماش كتابى غليظ ومكتوب
بالخطين الكوفى والنسخ . (١) ومغشها مغلف بغلاف خشبي مكسو بجلد بنى مزين
بنقوش بارزة ومكتومة بالخط الكوفى . (٢)

وجاء أيضا في وصف بعض هذه المخطوطات ان غلافها من الخشب المكسو
بالجلد البنى الفامق وانه من الواضح انه كان مرصعا بخليات معدنية لم ييسق
منها سوى حلية واحدة وصلب نطس في منتصف الغلاف الايسر . وكان ذلك فى
القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . (٣)

ويبدو ان فن تجليد الكتب والمخطوطات فى مصر الاسلامية قد بلغ صداه
فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وان مصر صارت تصدر الى
بلاد الشرق الادنى كثيرا من المخطوطات الذهبية والمصورة الرائعة الجمال . وهناك
انجيل يرجع تاريخ نسخه الى سنة ١٠١٠ م وهو فى جدا بزخارفه وألوانه الزرقاء
والحمراء والذهبية . (٤)

وقد نقل المسلمون عن القبط اهتمامهم بتجليد الكتب والعناية بزخرفتها
ويمكن القول ان المسلمين مد ينون للقبط بمعرفة المصنف اى ما جمع من الصحف بين
دفتى كتاب مقدود . (٥) ونتج عن ذلك عناية المسلمين بتجليد القرآن الكريم ،
شأنهم فى ذلك شأن عناية القبط بتجليد الانجيل والكتب الدينية . وما ورثه
المسلمون عن الفن القبطى فى صناعة التجليد اللسان الذى عرفه المجلدون فى

(١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية ج ١ ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ص ١٤٥

(٣) نفس المصدر ص ١٩٤

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٠١

(٥) نفس المصدر ص ١٠٦

فى الاديرة القبطية . والواقع ان جلود بعض المطاحف المحفوظة فى دار الكتب
المصرية تدل على الاثر القبطى الواضح . كما ان بعض هذه الجلود مزين بزخارف
نباتية قبطية الطراز . (١) ولعل ذلك ناتجا عن اعتماد المسلمين على
القبط فى تجليده كتبهم . فى كثير من الاحيان ، أو تأثرهم بالفن القبطى فى
ذلك الحين .

اذا كان ذلك هو شأن الثقافة والادب القبطان فى مصر الاسلامية فى ذلك
العصر (من سنة ٢٠ هـ الى سنة ٥٢٧ هـ = ٢٤١ - ١٢٧١ م) نجد ان اليهود ايضا
كان لهم ثقافتهم وآدابهم الخاصة بهم .

وكما تميزت الثقافة القبطية وآدابها بالاهتمام بالدراسات والمعلم الدينية
فقد اهتم اليهود بالدراسات الدينية والمعلوم المبرية . والحقيقة التى لا يمكن
تجاهلها اننا نكاد لا نسمع شيئا عن اليهود ودورهم فى المجتمع المصرى قبل
النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وعليه نجد ان ازدهار
الدراسات المبرية والادب اليهودى فى مصر كان حوالى أواخر القرن الثالث وأوائل
القرن الرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلاديين) . ونلاحظ بصفة
عامة عدم اهتمام مؤرخى مصر الاسلامية ، المسلمين منهم والقبط بالاشارة فسمى
كتبهم الى اليهود ، ودورهم فى الحياة المصرية . ومن ثم كان جل اعتمادنا يكاد
يقصر على المصادر الاجنبية الحديثة التى تعتمد على بعض الوثائق والمصادر
اليهودية (وخاصة الـ Cairo Geniza) التى نقلت الى اوروبا وأمريكا فى
القرن التاسع عشر الميلادى .

كان جل اهتمام اليهود كما ذكرنا من قبل بالدراسات الدينية المبرية
ودراسة اللغة المبرية وقواعدها . ودراصة الفلسفة وأدخالها فى الدراسات المبرية .

(١) زكى محمد حسن : بعض التآثيرات القبطية ص ١٧١

وقد زاد فى نشاط الدراسات الدينية والادبية ما كان بين الريانيين والقراءيين من جدال ومناظرات . وهذا النشاط الفكرى الواضح يتمثل فى جهود أحد اليهود الريانيين ويسمى سعيد الفيومى (وقد تحدثنا عنه فى الفصل الاول من هذا الباب) وقد نشأ بالفيوم ووجد بيئة مناسبة لتوسيع مداركه ومعارفه عن المعلوم والكتب اليهودية . (١)

وقد ألف سعيد الفيومى عددا من الكتب اليهودية باللغة العربية . فكان له مؤلفات فى العقائد والمذاهب ، كما أنه قام بأول ترجمة عربية للتوراه (أى كتاب اليهود المقدس) مع اضافة بعض التعليقات والتفسيرات والشرح لبعض محتوياته ، حتى يسهل على طائفة اليهود فهمه واستيعاب ما جاء فيه . كما قام بدراسة علمية لقواعد اللغة العبرية وصنف معجما لها مع ما يقابلها باللغة العربية أى انه صنف قاموسا عبريا عربيا . (٢)

وكان هذا اليهودى أول من اهتم بدراسة الفلسفة وأدخالها بين الدراسات اليهودية . ومن ثم يعتبر مبتدع الفلسفة الدينية فى العصور الوسطى . كما تبحر (٣) فى دراسة التلمود الذى يتضمن شرائع وسنن اليهود كما اهتم بدراسة أدب القراءيين .

Mann : The Jews. T.1. P.15.

(١)

The Itinerary Benjamin: T.2? P.244 et,
Maurice Fargon: Les Juifs, P.115.

(٢)

(٣) القراءون أحد طوائف اليهود الثلاثة - الريانيون والقراءون والسامريون وكانت لهم مدارسهم الخاصة فى الدراسات العبرية والادب اليهودى . ونبغ منهم فى اوائل القرن الحاشر الميلادى عدد كبير منهم سلطان بن جروهمام

دع

Soloman b. Jeremiah - الذى كان أول من صنف

كتابا فى تفسير التوراه وناقش ايضا الكتب التى تدور حول المعتقدات ومنهم ايضا ميناهم غزنى Menahom Gizni فى مدينة الاسكندرية واشتهر بنظم الشعر . وازدهرت مدارس القراءيين فى الاسكندرية فى القرن

١٢ م . انظر The Jewish Encyclopaedia, Vol.V., P.70

وصنف كتابا فى صلوات اليهود وما تجب ان تكون عليه صلاة اليهودى الورع. (١) وقد زاد اهتمام اليهود بدراسة الكتب المقدسة والكتب الدينية فى آواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكان على رأس اليهود المهتمين بذلك شطاريا بن الحاشان Shamarya b. Elhanan وكان واعظا مشهورا ، امتاز بمواعظه وخطاباته وشرحه وتفاسيره لكثير من الامور الدينية حتى انه اشتهر بتأسييس مدرسة لدراسة التوراه انضم اليها اليهود المتحمسون لتعاليمه وآرائه. (٢) كما اهتم بعضهم بتصنيف الكتب فى الطقوس الدينية. (٣)

وهكذا مارس كل من القبط واليهود نشاطهم الفكرى فى مختلف الميادين من بحرية كاملة دون محاولة من جانب الحكام المسلمين فى مختلف المصور لايقاف هذا النشاط أو اضعافه ولعل ذلك يؤكد مانراه من انه من الحسير قبول الروايات التاريخية المتأخرة القائلة بان العرب قد أحرقوا مكتبة الاسكندرية عقب استقرارهم فى مصر. وموضوع حريق العرب لمكتبة الاسكندرية قد أفاض بعض المؤرخين المحدثين البحث فيه (٤) ورأوا جميعا عدم التسليم بهذا الاتهام الباطل. وفندوه بأراه وحجج مختلفة.

وما لاشك فيه ان التأثير والتأثر كان متبادلا بين المسلمين والقبط طوال تاريخ مصر الاسلامية. فالعرب كما ذكرنا — انما — لم يتعرضوا للنشاط العلمى لاهل الذمة فى مصر ، وشركوهم يبحثون فى الميادين الفكرية المختلفة الادبية والمقلية التى عمل العرب على الاستفادة منها. وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره ابن النديم (٥)

Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115. (١)

Mann : The Jews, T. 1, PP. 27 - 28. (٢)

Ibid. P. 28. (٣)

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٣-٣٢٦ — بقلر : فتح العرب

لمصر ص ٣٤٨ — ٣٢٠ ابريس جيب العصى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب

الثانى ص ٢١٥-٢٢٠

(٥) الفهرست ص ٣٥٢ — مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

من ان خالد بن يزيد بن معاوية لما رغب في دراسة علم الكيمياء والاحاطة بكسبل جوانبه استعان ببعض المصريين المشهورين في هذا الميدان . وكان هؤلاء المصريين في الغالب من الفلاسفة اليونان الذين فضلوا البقاء في مصر في ظل الحكم الاسلامي وألم الكثير منهم باللغة العربية . فعهد اليهم خالد بن يزيد بترجمة الكتب اليونانية والقبطية التي صفت في هذا الميدان (ائميدان الكيمياء او الصنعة كما يسميها العرب) الى اللغة العربية وذلك حتى يمكنه دراستها والاستفادة بما جاء فيها . كما كان ذلك اول ترجمة من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية .

لم يقف الامر عند هذا الحد بل نجد ان القبط الذين تحولوا الى الاسلام أو الذين ينحدرون من أصل قبطي ، وأسلم اجدادهم ، قد شاركوا في الحياة الادبية العربية مشاركة واضحة فعالة . وأقبلوا على دراسة العلوم الاسلامية وظهر هذا واضط منذ آخر القرن الثاني الهجري فقد تفوق مثلاً في قراءة القرآن ، أحد المصريين المنحدرين من أصل قبطي وهو عثمان بن سعيد الملقب بورش . وقد انتهت اليه رئاسة الاقواء بالديار المصرية . وكان الى جانب ذلك متميزاً في علوم اللغة العربية وآدابها وتوفي ورش في سنة ١٩٧ هـ . (١)

وظهر ايضاً من بين المصريين من له شأن في اللغة العربية وآدابها
وتفسير المصادر الى ما يوضح ذلك . فحين قدم الامام الشافعي مصر (وهو الامام الحجة في اللغة العربية وعلوم الدين) التقى باحد المصريين ويعرف باسم سرج القول وكان حجة في فقه اللغة ، وقد اشتهر ان الامام الشافعي به وكان يذاكره وينظره ويبدى اعجابه بخزارة علمه . (٢)

(١) ابو المظن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ - السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٤٨٥ - احمد امين : ظهرا الاسلام ج١ ص ١٦٣ - ويقال انه لقب بورش لشدة بياضه وقيل انه لقب ايضاً بالورشان وهو ملائم معروف ثم خفف الى ورش . انظر السيوطي : حسن المطهرة ج١ ص ٤٨٥ .
ابو المظن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ١٥٥

(٢) السيوطي : بنية الوطة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢

وممن نبغ من المصريين وشارك في الحياة الادبية العربية في القسطنطينية
الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ابو عبد الله احمد بن يحيى التجيبي
ولاء البصري الحافظ النحوي احد الائمة . وكان اكثر اهل زمانه النما بالشعر والادب
والتاريخ والعلوم الدينية . وفي هذا يشهد باشتراك مصر في الحركة الادبية العربية
اشتراكا قويا منذ ذلك العهد . (١)

كذلك شهد عصر الولاة العباسيين نبوغ بعض العلماء المسلمين الذين
ينحدرون من اصل قبلي . ومن أمثلة هؤلاء ابن الفطاس سعيد بن زياد . و كسان
من اهل الديانة والفلسفة . كما كان له حلقه في المسجد يلقي فيها دروس الفقه . وايضا
سعيد بن تليسد . كاتب القضاء في عهد ليهية بن عيسى ويحيى بن بكر القيسية
المؤرخ وأحد تلامذة الليث بن سعد . ومن أساتذة المؤرخ المصري عبد الرحمن بن
عبد الله بن عبد الحكم . هؤلاء جميعا أحسنوا دراسة اللغة العربية والمعلوم
الاسلامية . (٢)

ولا غرو فان انتشار اللغة العربية تدريجيا كان طاملا مساعدا على وجود
بعض فقهاء في اللغة القبطية من القبط وأصبحوا في المقدمة بين فقهاء النحس
واللغة . وقد تشبع هؤلاء بالثقافة العربية . وأخذوا علماء النحو العرب نموذجاً
لهم يميلون على نمط اعمالهم في دراسة نحو اللغة وقواعدها . واول من نبغ
في ذلك اثناسيوس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وألف
اثناسيوس كتاباً في نحو اللغة القبطية وقواعدها كما يفعل العلماء المسلمون في دراسة
قواعد اللغة العربية ونحوها . (٣)

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٦١

(٢) محمد كامل حسنين : أدب مصر الاسلامية ص ١٤٥

(٣) Worrell : A Short Account of the Copts. P. 45, and The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1003.

وظهر بوضوح عناية من أسلم من أهل الذمة بالدراستات الإسلامية الدينية والادبية منذ أواخر عهد الأمراء الأخشيديين وطوال عصر الخلفاء الفاطميين بصفة خاصة . ونذكر من أصدق الأمثلة على ذلك يعقوب بن كلس اليهودي الأصل الذي أسلم في إمارة كافور الأخشيدي في منتصف القرن الرابع الهجري . (العاشر الميلادي) فيقول ابن سعيد الانطاكي (١) كان يعقوب بن كلس يحب المعلم وأهله ويقرب اليه أهل العلم والأدب . وبلغ ما كان يجنيه الوزير شهريا على أهل المعلم من المقربين اليه والوراقين والناسخين ومجلدين الدفاتر ألف دينار في كل شهر .

ولما تحول يعقوب بن كلس إلى الإسلام بادرياسة القرآن وتعلمه على علماء الفقه والنحو وسائر العلوم الإسلامية . (٢) ولما ارتفع شأنه في عهد الخليفتين الفاطميين المعز والمعز زاد عنايته بالدراستات الإسلامية الدينية والادبية . كما عني بدراسة الطب وقرب الأطباء اليه . وتذكر المصادر أنه كان يجمع الأطباء في داره كل يوم ، ليشرفوا على حالة الفلمان الصحية ، وعلاج من يحتاج العلاج منهم . (٣)

ويبدو أنه كان في داره مكان مخصص للمعلماء والأدباء والشعراء والفقههاء وكان يجتمع بهؤلاء مرة كل اسبوع ، ويمقد معهم المجالس والمواظرات العلمية . كما كان يخصص في داره مكان للنساخ ومنهم من أخص بنسخ القرآن ، أو بنسخ كتب الفقه والنحو ، أو نسخ كتب الطب أو كتب الأدب والحديث وغير ذلك من مجالات الفكر . وكان هؤلاء يجامضون الكتب ، أي يوازنون بين نسخ الكتاب الواحد ، ويشكلونها ، وينقونها . (٤)

(١) صلة تاريخ أوتبيخا ص ١٦٤

(٢) ابن زولاقي : كتاب اخبار سيويه ص ٧٥

(٣) المقرئ : الخطط ج ٣ ص ٨

(٤) نفس المصدر ص ٩٨

وامتدت غناية ابن كلس بمختلف العلم والاداب الى تأليف كتب في
الدراسات الاسلامية منها كتاب في القراءات وكتاب في الاديان وآخر في آداب رسول
الله ورايع في علم الابدان وصلاحها ومطامير في الفقه (١) وهذا الكتاب الاخير
فرغ ابن كلس منه في سنة ٣٧٠ هـ في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله . وقد
قرأه على جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا . وقال انه أخذ هذا الكتاب عن الخليفة
العزيز بالله عن آبائه الكرام . واشتهر هذا الكتاب باسم الرسالة الوزيرية . وقد اجتمع
على تصنيف هذا الكتاب اربعون فقيهاً (٢)

والى جانب ذلك كان ابن كلس يجلس كل يوم جمعة في الجامع ويقدم
مصنفاته المختلفة على الناس ويجلس اليه القضاة والفقهاء والقراء واصحاب الحديث
والنظة والشهود . ومنه ان يتنهن ما يقرأ ينشد بعض النظم في مدحه والاشادة
بأعماله (٣)

ويبدو ان ابن كلس كان ينشد الشعر فتشير بعض المصادر الى انه كان
له وللخليفة طيور حصة يعني كل منهما بترتيبها وكان يجرى بينها سباق . فحدث
ان سبق طائر ابن كلس طائر الخليفة . مما أغضب الخليفة واتاح الفرصة لبعض
خصوم ابن كلس للمطعن فيه لدى الخليفة . فأتشد ابن كلس قائلاً :

قل لامير المؤمنين اندي	له الملى والنصب الثاقب (٤)
طائر ك السابق لكنسه	جاء وفي خدمته الطاجيب

(١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٩

(٢) ابن الصبغى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٢

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩

(٤) ابن زولاى : اخبار سيويه ص ٧٥

واستفادت مكتبة القصر الفاطمي استفادة عظيمة من شقف ابن كلس والعلوم
والاداب ، وولعه بجميع الكتب المختلفة ، ونقلت معظم كتبه الى مكتبة القصر ،
بعد وفاته ، حيث استفاد منها الفقهاء والعلماء وكتاب الحديث والادب
والطب . (١)

ومن الذين تحولوا الى الاسلام ، وعنوا بالدراسات الدينية ابو علي
الحسن بن ابي محمد ابراهيم بن سهل التستري وكان يهوديا ثم اسلم في عهد
ال خليفة الفاطمي المستنصر بالله . وعنى بدراسة القرآن وحفظه . (٢) ومنهم
ايضا ابن ابي وكريما بن ابي غالب ، وكان قبطيا ، واسلم في عهد الخليفة الحاكم
بأمر الله ، وعنى بدراسة العلوم الاسلامية الدينية - فحفظ القرآن ونسخه بخطه
ودرس كتب الحديث والفقه ، وصنف كتباً في هذه المجالات . (٣) وهكذا ساهم
القبط واليهود الذين تحولوا الى الاسلام بدور فعال في الحياة الثقافية ،
والنشاط الفكري في مصر الاسلامية الى جانب نشاط القبط في العلوم والاداب في
دور المباداة ، ونشاط اليهود ايضاً في الدراسات العبرية .

والى جانب الدور الذي قام به أهل الذمة في مصر وخاصة من اسلم منهم
في الدراسات الاسلامية الدينية واللغوية ، كان هناك اهتمام بالعلوم الفلسفية
التي كانت تشمل دراسة الطب والفلك والالهييات وما الى ذلك . وهذه الدراسات
في الواقع من بقايا مدرسة الاسكندرية التي ضعف شأنها بعد الفتح العربي للمصر
جانب اقبال المصريين على الثقافة العربية وتعلمهم لغتها ، والبحث

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٢

(٢) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٢

(٣) ابن عميد الانطاكي ص ٢٣٨ - وقد عاد الى المسيحية في خلافة الظاهر
والتص منه المسلمون ان يعيد اليهم ما كتبه وما اقتناه من العلوم
الاسلامية .

في علومها الدينية • بينما اهتم رجال الدين المسيحي بدراسة الفلسفة وغيرهما من العلوم • وقد ساعد هم على ذلك اختلاف العقائد والمجادلة بين المذاهب المسيحية المختلفة اذا التجأ كل مذهب الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية في تأييد رأيه • نضيف الى هذه الميادين ايضا اهل الذمة • وكان علمهم فيها يتطلب قراءة الفلسفة اليونانية • (١) وسنذكر امثلة لاشهر الاطباء من اهل الذمة في مصر الاسلامية •

وشارك بعضها القبط واليهود في مجالس الادب والعلم في بلاد الاسكندرية والخلفاء المسلمين وفي مقدمتهم احمد بن طولون الذي كان مولعا بوعرفسة علوم المصريين وآثارهم وتاريخ مصر وجغرافيتها • فاستدعى الى دار الامارة احمد القبط الباقية • وكان مقيما في بلاد الصعيد — وكان مشهورا بالعلم وبدراسة المذاهب الفلسفية والعلم والنحل المختلفة عالما بأخبار البلاد والملوك والفلك والتجوم وغير ذلك من العلوم • وقد استفسر منه الامير ابن طولون عن كثير من اخبار مصر وجغرافيتها • (٢)

وكان احمد بن طولون يدعو هذا القبطي الى مجالس العلم والادب • فيشترك في المناظرات والجدل بين العلماء والمسلمين او بين القبط واليهود • وقد سأل ابن طولون عن مهمة دين النصرانية • (٣) وكان من بين الحاضرين طبيب

(١) احمد امين : ظهر الاسلام ص ١٧٣ — ١٧٤
(٢) المسعودي : موج الذهب ج ١ ص ٣٤٧ — ٣٥٣ — الاستبصار في عجائب الاصار ص ١٠٤ — ١٠٣

(٣) المسعودي : موج الذهب ج ١ ص ٣٥٣ — اجاب القبطي على سؤال ابن طولون قائلا " دليلي على صحتها وجودي اياها متناقضة متنافية تدفعها المقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولا جدل يصححها ولا برهان يعضدها من العقل والحسن عند التأمل لها والفحص عنها • ورأيت مع ذلك امما كثيرة وطوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن رأى قد انتقادوا اليها • وتدبنوا بها فعملت انهم لم يقبلوها ولم يتدبنوا بها • الا لدلائل شاهدة وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدبين

الأمير اليهودي حميد بن نوفيل - فاستأذن ابن طولون في مناظرة هذا القبطي الذي اخذ يحط من شأن اليهود. (١) ، وأقام هذا القبطي في ضيافة الأمير ابن طولون ما يقرب من سنة ثم طرد إلى بلاده مكرماً. (٢)

لعلنا في دراستنا لدور أهل الذمة في الحياة السياسية ، أن المستخدمين من القبط واليهود كان يخدم كل منهم اخوانه في الدين ويراعون مصالحهم - وقد علا شأن كل من القبط واليهود في عصر الخلفاء الفاطميين . وقامت المناظرات بينهم . إذ كان كل فريق منهما - أي القبط واليهود - يحق على الفريق الآخر ويحمده لمكانته لدى الخلفاء . وطلب بعض اليهود من الخليفة الممرك لدين الله أن يسمح لهم بمناظرة القبط في حضرته فكان ذلك. (٣)

ومن ثم كان كل من اليهود والقبط - يلم بعلم الدينيين اليهودي والمسيحي ويعرفون ما جاء في التوراة والانجيل وتصدى كل فريق منهما للمجولة الفريق الآخر والحق من شأنه وأبراز ما يراه نقائص في دينهم ، وكثيراً ما شتم بلاط الأمراء بالخلفاء المسلمين مثل هذه المناظرات والمجادلات الدينية .

بها " فلما سأله الأمير عن المضاد الذي فيها قال : وهل يدرك أو يعلم غايته منها قولهم بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووضعتهم الاقانييم والجوهره وهو الثالث وهل الاقانييم في انفسها قادرة على ان لا ؟ وفي اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وما جرى في ولادته وصلبه . . ووصف للأمير ما حدث في صلبه .

انظر : نفس المصدر السابق ص ٣٥٣-٣٥٤

(١) المسمودي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٥٤-٣٥٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٥-٣٥٦

(٣) ابن المقفع : سير الأباء البطركة م ٢ ج ٢ ص ٩٢-٩٣ وص ٣١٠-٣١١
Le Synaxaire Arabe Jacobite, T.2, PP.310-311.

وهكذا كان لاهل الذمة في مصر الاسلامية نشاطهم الفكري الذي تميزوا
بالاهتمام بالدراسات الدينية خاصة الى جانب بعض الدراسات الادبية التي تميزت
وكانت مراكز نشاطهم في دور عبادتهم المختلفة التي اشتهرت بالكتابات الفنية القيمة
وضمن الكتب والمخطوطات في مختلف المجالات . هذا الذي جانب مشاركة البعض
منهم في الثقافة العربية وقيامهم بدور له اهميته في الدراسات الاسلامية التي تميزت
والادبية . واشتهر من بينهم كثير من المفكرين والكتاب والاطباء .

٤- دور الصطبة والتابعين والقضاة

في التمرير وفي النهضة الفكرية

ظفرت مدينة الفسطاط بعدد كبير من الصطبة الذين وفد بعضهم مسرع
الجيش العربي الفاتح الى مصر ، ومن هؤلاء الصطبة من كان يفتى زمن النبي (صلم)
وكافت له به صحة ، ومن أبرز هؤلاء " عرو بن الحاص " قائد الجيش المصري
الاسلامي الذي فتح مصر واميرها بعد الفتح - وقد استقر بمدينة الفسطاط بمسجد
تأسيسها " (١) . ومنهم ايضا " ابو هريرة المتوفى سنة ٥٨ هـ بالمدينة المنورة
صاحب الرسول (صلم) - وقد زار مصر وولى في مسجد ها ووقف على قبلته " (٢)
وكان فقيها مجتهدا ، حافظا " (٣) . وكان " عبد الله بن العباس بن العطلب
ابن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، ابن عم الرسول " (٤) صاحب
فقه " (٥)

(٦)
وكان عبد الله بن عباس قد دخل مصر مرتين في اثناء خلافة عثمان بن عفان

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٩٥-٩٦ - ابن حجر : الاصابة
ج ٣ ص ٣ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٩٦ - ابن حزم : الاحكام
في اصول الاحكام ج ٥ ص ٩٢

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ص ٢٢٩ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر
واخبارها ص ٢٨٢ - الذهبي : سير اعلام النبلاء ص ٤١٧ - السيوطي :
حسن المطهرة ج ١ ص ١٠٨ - ابن حزم : الاحكام ج ٥
ص ٩٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٢٦ - الذهبي : سير اعلام
النبلاء ج ٢ ص ٤١٧

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٢ ص ٣٤٢ - ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ٩٦
- ابن الاثير : اسد الغابة ج ٢ ص ١٩٢ - السيوطي : حسن المطهرة
ج ١ ص ١٠٩

(٥) السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ١١ - ابن حزم : الاحكام ج ٥ ص ٥٣

(٦) ابو المظن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٥-١١٦ - السيوطي : حسن
المطهرة ج ١ ص ٩٠

(٢٤-٣٥ هـ) وكان واسع المعرفة متبحرا في الفقه وتفسير القرآن^(١) وقد كان مجلسه غاما باصطحاب الفقه - الذي كان يتناول هو مسائله^(٢) وكان عبد الله ابن عباس أعلم الفقهاء بسياسة أبي بكر وعمر بقضائهم ولم يكن أحد أفقه فسي رأى منه ولقد كان يجلس يوما يذكر فيه الفقه^(٣) وقد ألفت حوله المصريون للاستفادة من علمه^(٤).

كان أعظم الصطبة شأنا وأعظم أثرا في الحياة الفقهية بمدينة الفسطاط عتبة ابن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص الذي أتبع أهل مصر فتاويه^(٥).

أما عتبة بن عامر الجهني " أبو عمرو " فقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة الاموي معاوية بن أبي سفيان على صلاتها وخارجها ٤٤ هـ^(٦) وقد اتصل بالمصريين وكان يفتيهم^(٧) فقد كان عتبة " طالما بالفرائض والفقه^(٨).

وقد صار بمصر " مفتي البلد وكان فقيه مصر من غير مدافع^(٩) وكان عتبة يفتي في المسائل الفقهية التي كان يتعرض لها في مجلسه^(١٠).

-
- (١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ١١٥-١١٦ - السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ٩٠
 - (٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤٤٠
 - (٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١ ص ٣٦٨
 - (٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ٩٠
 - (٥) المقرئ : الخطوط ج٢ ص ٣٣٣
 - (٦) الكندي : الولاة ص ٣٦ و ٣٧ - ابن حجر : الاصابة ج٢ ص ٤٨٢ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ١٤٥
 - (٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٥٩
 - (٨) الكندي : الولاة ص ٣٧ - ابن حجر : الاصابة ج٢ ص ٤٨٢
 - (٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٩٤ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤
 - (١٠) المقرئ : الخطوط ج١ ص ٣٠١
 - (١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٨٧-٢٩٣

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يفتى في الصلابة * (١).

وتذكر الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم أمر عمرو بن العاص وعقبه ابن عامر الجهني ان يحكما بين خصمين وقال لهما : ان اصبحتا فلكما عشر حسنات وان اخطأتا فلكما حسنة واحدة * (٢) وفي صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم اذن النبي (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بالكتابة عنه في عامة احواله : قال ابن عباس : انه كان يسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسائل الحلال والحرام ودون ذلك في صحيفته الصادرة * (٣)

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص هو الفقيه الذي اتبع اهل مصر اكثر فتاويه يقول المقرئ * ان التابعين من اهل مصر كانوا يتبعون في الاكثر فتاوى عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما * وذلك لان كل طبقة من التابعين في البلاد انما تفقهوا مع من كان عندهم من الصلابة * فكانوا لا يعتمدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير ما كان في بلادهم من الصلابة رضى الله عنهم * (٤)

قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم (٥) المتوفى سنة ١٨٢ هـ : انا فقي مصر فقد كان هذا الصلبي (عبد الله بن عمرو بن العاص) استاذها الاول صاحب الاثر الاقوى بين تابعيها * وفتاويه تخرج أغلب فقهاءها * (٦)

(١) الذهبي : سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٥٣ - الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣

(٢) الامدي : الاحكام في اصول الاحكام ج ٤ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٧٣ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٦ - ابو المطمئن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧١ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ - الاتقان ج ١ ص ٧٠ - محمد يوسف موسى : تاريخ الفقه الاسلامي ج ١ ص ١٨٦

(٤) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٣٣

(٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن اسلم المتوفى سنة ١٨٢ هـ المفسر المدني صاحب كتاب النسخ والمنسوخ وكتاب التفسير (ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٠)

والاستاذ المباشر لابن وهب * ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٢٨

(٦) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٣٣

كان أمير المؤمنين "المخليفة" عربين الخطاب" يحرص على أن يعلم المصريين أصول الدين الاسلامي . لذلك فقد أرسل الى أهلها "عبد الرحمن بن مطجم المرادي الخارجي من قدماء التابعين والمتوفى سنة ٤٠ هـ وكان من قراء القرآن وأهل الفقه وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص - أمير مصر - يأمره أن يقرب دار ابن مطجم من المسجد . لكي يعلم الناس القرآن والفقه ففعل عمرو . . . (١)

ولاشك أن مصر "الفسطاط" كانت في أشد الحاجة الى التشريع العلمى لان استنباط الحكم من مصادره الاصلية وتطبيقه يكون اقوى أثرا في توجيه الحياة الفقهية وتنظيمها . لذلك اهتمت الدولة الاسلامية الناشئة بهذا الشأن - واتجهت الى تعيين القضاة والفتيين في الامصار الاسلامية - هذا الى جانب وجود افسراد غير معينين من قبل الدولة استغلوا بالفتوى بما كان لهم من قدرات علمية توفرت على دراسة النص القرآنى واستنباط الاحكام منه بالرجوع الى مصادرها الاصلية وكان ممن هؤلاء كثيرون من استقروا بالفسطاط وصار لهم شأواً بعيدا في ميدان الاجتهاد الفقهى . . . وكان الناس يستفتونهم فيفتون لا يتفتون من وراء ذلك غير ايسر الا امانة وما توصلت اليه قرائحهم من احكام .

ومن أبرز الفقهاء الذين تأوا بأنفسهم عن وظائف الدولة واستقروا بين الاهالى يفتونهم "ابو الخير مرتد بن عبد الله اليزنى الحميرى التابى المصرى المتوفى سنة ٩٠ هـ الذى كان مفتى اهل مصر في زمانه" . (٢) فقد تلمذ على ائمة الفقه ففى مصر والذين كانوا من أبرز فقهاء مثل عتبة بن عامر الجهنى وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يلزم عتبة ولا يفارقه . (٣) وقد بلغ من عظم شأنه فى مجال الفقه وتوافره

-
- (١) السمعاني : الانساب ص ٤٣٥ - ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦
 (٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٣ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٢ - المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ٢٥٤ - السيوطى : حسن المطهرة ج ١ ص ١١٨ - السيد احمد خليل : اللبث بن سعد ص ٣٧
 (٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٣ - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٢

على دراسة النحر القرآني * ان عبدالمعز بن مروان والى مصرفى تلك الفترة وأميرها
الاموى — كان يحضر مجلسه لسمع منه ، فقد كان رجل صدق — وكان عبدالمعز بن
مروان يجلسه للفتيا * . (١)

ومن هؤلاء الفقهاء ايضا * بكر بن سواد الجذامي المصري الفقيه ، الذى كان
مفتى اهل مصر ، قال حيان انه كان من ثقات مصر وأفضل قرائهم وقد توفي سنة
١٢٨ هـ . (٢)

وفى مجال القضاء كانت الدولة تعين القضاة وتخول لهم حق الافتاء فيما يعرض
لهم من مشاكل أو نزاعات فقد كانوا يمثلون الفقه الاسلامى فى مراحل الاولى ، وربما
قد طبقوه بهذه الصور فى مصر — ولا شك انه قد امتازت منهم جماعة بالاجتهاد
وبالمشاوكة العميقة فى تدبير شئون الحياة العملية وتنظيمها على أسس مدروسة ومن هؤلاء
القضاء * سليم بن عتر التجيبى — قاضى مصر وقاضها وناسكها * . (٣) وقد ولى قضاء
مصر من قبل معاوية بن ابي سفيان سنة أربعين وكان قبل القضاء قاضا فجمعا —
وصار ذلك له الى سنة ستين * . (٤)

وكان سليم بن عتر اول قاض بمصر سجل سجلا بقضائه * فقد ذكر ابن ابي ميسره
ان معاوية بن ابي سفيان كتب الى القاضى سليم بن عتر يأمره بالنظر فى الجراح
وان يرفع ذلك الى صاحب الديوان وكان سليم اول قاض نظر فى الجراح وحكم فيها —
قال ابو ميسره : فكان الرجل اذا اصاب فجرح أتى الى القاضى وأحضر بيته على الذى
جرحه فيكتب القاضى بذلك الجرح قصته على عامله الجراح ويرفعها الى صاحب الديوان
فاذا حضر المعطاء اقتص من اعطيات عميرة الجراح ملووجب للمجسس — روح ،

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٢ ص ٣٠٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١
ص ٨٢ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٢

(٣) الكندى : اللواتى كتاب القضاء ص ٣٠٣ — ٣٠٦ — السيوطى : حسن المحاضرة
ج ١ ص ١٦١

(٤) الكندى : المرجع السابق ص ٣٠٣ — ٣٠٦

وينجم عن ذلك في ثلاث سنين ، فكان الامر على ذلك * (١) .
 السابق ان هذا القاضي قد غنى بأحوال الشهود - وتدوين بيانات المجنى عليه لتكون
 هناك بينه عند الحكم للقصاص ويوضح هذا ما وصل اليه نظام القضاء من رقى في الفترة
 المبكرة من تاريخ مدينة القضاة ويبدو انه كان هناك من يقوم بمساعدة القاضي في
 تسجيل احكامه بسرعة الحكم على المجرورين . وقد فرضت لهؤلاء الساعدين رواتب
 مقيمة فيقول : زيد بن بشير مانعه : " ادركت رجلا في بيت المال اذا شجع
 الرجل أو جرح بمثبه القاضي الى ذلك الرجل فيقول : هذه موضة وهذه مفتعلة
 وهذه كذا وهذه . . . كذا . . . فيكتب القاضي بدية ذلك الجرح الى صاحب الخراج ،
 قال زيدا وكان على ذلك الرجل اوراق بطرية (٢)

وكان سليم بن عتر يسجل أقضيته عندما تعرض عليه مسألة يقضى فيها ويدون
 احوال الشهود في القضية . يروى عبد الرحمن بن حجية : انه اختم الى سليم
 ابن عتر في ميراث فقضى بين الورثة . ثم تناكر فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتابا
 بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . قال : فكان اول القضاء بمصر سجل سجلا بقضائه . (٣)

وكان قيس بن العاص الفهري اول قاض بها في الاسلام وقد كتب عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه بتوليته اول سنة ثلاث وعشرين * (٤) . وكان قد شهد فتح
 مصر مع يمينه كان شريفا سرا . واول من بنى بمصر دارا للضيافة * (٥)

وكان عبد الرحمن بن حجية الخولاني فقيها من أفقه الناس * (٦) . وكان
 قد ولي القضاء بمصر من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ ومات بمصر وهو قاض
 سنة ٨٣ هـ فوليهما اثنتي عشرة سنة * (٧)

-
- (١) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٠٩
 (٢) الكندي : المرجع السابق ص ٣٠٩
 (٣) الكندي : المرجع السابق ص ٣١
 (٤) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٠ : ٣٠١ - السيوطي : حسن المحاضرة
 ج ١ ص ١٢٥
 (٥) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥
 (٦) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣١
 (٧) الكندي : المرجع السابق ص ٣١٤ - ٣٢٠

وقد كان ابن حجية قاضي مصر وقاضها وأمين بيت المال فيها . (١) .

وقد كان ابن حجية تلميذا لابي ذر ه وأبي هريرة وثقة بن عامر وعبد الله بن عمرو وغيرهم . (٢) . وهم من أئمة الفقه والفتوى . ويبدو ان ابن حجية قد بلغ قدرا عظيما من الاجتهاد والتفقه . فقد اجازه ابن عباس امام اهل المدينة وخبره عمن نفسه فروي عبد الله بن المشيرة ان رجلا من اهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة ، فقال : من أى الاجتهاد انت . قال : من اهل مصر . قال : تصالنى وفيكم ابن حجية . (٣) . وقد كان ابن حجية يحكم فى كثير من الاقضية التى كان يتعرض لها بتكافؤ الشهود وبكثرة الرجال عند احد الطرفين او بشهادة المدول . قال ابن لهيعة : قضى ابن حجية فى الشهود اذا تكافؤوا ان يسهم بينهم فان كانا احد المدعين أكثر شهودا بمرجلين او اكثر كان الحق معه واذا كانت السلمة بيد أحدهما فقط يشاهد عدل كانت له وان جاء الآخر بأكثر من ذلك . . . (٤) .

ومذ لك كان ابن حجية يحكم بالمدل وقد أثر عنه انه قال : . . ان القاض اذا قضى بالهوى احتجب الله عز وجل منه واستقر . . . (٥) . ويبدو ان هذا قد تدوين القضايا كانت قد شاعت فى الفترة المبكرة فذكر الروايات انه لما سأل عبد الرحمن ابن حجية عن ولى جدة القضاء : قال لا ادرى غير انى رأيت له قضية عند آل قيس ابن زيد الخولانى تاريخها شهر رمضان سنة سبعين ولا أعلم انى رأيت اقدم منها . (٦) .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣٥ — الكندى : الولاة والقضاء ص ٣٠٧ — الذهبى : المبر فى خبر من غير ص ٩٧ — ابن كثير : البدايات ص ١٠٠ — النهاية ج ١ ص ٥١

(٢) الذهبى : تاريخ الاسام ج ٣ ص ٢٧١ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٦٠

(٣) الكندى : الولاة وكتاب القضاء ص ٣١٦

(٤) الكندى / المرجع السابق ص ٣١٨

(٥) الكندى : السابق ص ٣١٩

(٦) الكندى / السابق ص ٣١٥

وقد تولى على مصر كثير من القضاة الذين كان لهم شأن عظيم فى اصلاح
الدواوين مثل " توبة بن نمر الحضري الذى ولى قضاء مصر سنة ١١٥ هـ من قبل
والى مصر الوليد بن رفاعه والذى ظل قاضيا عليها الى حوالى سنة ١٢٠ هـ " (١) وكان
توبة اول قاض بمصر وضع يده على الاحباس زمن هشام بن عبد الملك وقد كانت الاحباس
فى ايدى اهلها وفى ايدى اوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات
الا الى الفقراء والمساكين فأرى ان أضع يدي عليها حفظا لها من التواء والتوارث
فلم يمت توبة حتى صارت الاحباس ديوانا عظيما " (٢) — لم يكن هناك عدل من خيرين
نعميم ولا أفقه منه — كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود .
ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم " (٣) وكان يخصص وقتا للحكم بين أهل
الذمة . قال يحيى بن عثمان بن صالح ان خير بن نعميم كان يقضى فى المسجد بين
المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المصاح فيقضى بين
النصارى " (٤)

وكان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان يجلس فيه فترسم ما يجرى
بين الخصوم من الكلام " (٥) وكان خير بن نعميم قد ولى على القضاء واقصى يد مصر
من قبل الامير حنظلة بن صفوان الكلبى سنة ١٢٠ هـ : سنة ١٢٨ هـ (٦) . . . هكذا
كان لقضاة مصر دور كبير فى تدبير شئون الحياة العملية والدينية وتنظيمها على أسس
مدروسة وقواعد محكمة " ولم يكن القاضى ليرضى بان يتدخل فى أحكامه اذ كانت
وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والجلال . كما كان لصاحبها
نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه " (٧)

(١) الكندى : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٤٦—٣٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٥١ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩

(٤) المرجع السابق ص ٣٥١

(٥) المرجع السابق ص ٣٥١

(٦) الكندى / الولاة ص ٣٤٨—٣٥٢

(٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٢

كما ان الاختصاص النوعي Ration Materide للقاضي كان غير محدود أكان في الامور المدنية أو الجنائية . (١) وكان القاضي يستمد احكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامي وهي : " القرآن - السنة - الاجماع - الاجتهاد أو القياس " . (٢)

كانت أعظم مطولة لخدمة التشريع الاسلامي هي التي قام بها " امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (المتوفى ١٠١ هـ) فقد أمر بجمع السنة وتدوينها ونشرها " . (٣) وكان الدافع الى ذلك ظهور الكذب في الحديث ، وتأتى أهمية السنة (الحديث) من انها مكملة للتشريع ببيانها للكتاب . (٤) وكان امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حريصا على حفظ السنة في الامهار الاسلامية " فأرسل الى مصر نافع بن أبي نعيم سنة ١١٢ هـ ليعلم أهلها السنن " . (٥) وهو فقيه أهل المدينة ومروى عبد الله بن عمرو بن الخطاب وأصله من أصبهان . (٦)

وقد بلغ نافع بمصر شأنًا عظيمًا فكان استاذًا لكثير من أعلام النهضة التشريعية بمدينة القسطنطينية فمن تلاميذه بمصر بكير ابن عبد الله بن الأشج ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر والليث بن سعد . (٧)

-
- (١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٩٣ - وما ذكرته من المراجع
 - (٢) سيدة كاشف / المرجع السابق ص ٩٣
 - (٣) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٣٣
 - (٤) محمد الخضري : تاريخ التشريع الاسلامي ص ١٤٠
 - (٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٩ - تاريخ الاسلام ج ٥ ص ١٠١ ، ١١
 - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤١٢ - ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ٢ ص ١٥٠ - السيوطي : حصن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٧
 - (٦) ابن الاثير : الفهرست ص ٤٨
 - (٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ص ١٠١ ، ١١ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩٤
 - ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤١٣

٥ - دور الموالي في النهضة العلمية

ارتفع شأن الموالي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وصارت لهم مكانة بارزة في علم التاريخ التشريعي لمدينة القسطنطينية وعلى رأس المائة الثانية من تاريخ الهجرة صار العلم في جميع الامصار الى كثير من الموالي وخاصة الفقه . وذلك بعد انقراض عهد الصلبة والتابعين . . . قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : لما مات العبادلة ، عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عيسى ابن العاص ، صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي . . . (١) ويطلب الامتياز احمد امين ظاهرة نبوغ الموالي في العلم فيقول : انه بتوالي الفتوحات الاسلامية ، توالي دخول أم كثيرة في العلة الاسلامية ومار هفاك غصيرين في الدولة الاسلامية - المنصر العرب والعصر الاعرجي - وكان أكثر حلة العلم في عصر الصلبة العرب - لان أكثر الصلبة عرب - وقد استكثر الصلبة من الروايات يستخذونهم في بيوتهم وفي اعالهم . فاذا كان الصلبي ناديا فمواليه اعراسه وتلاميذه في العلم ومتى كان عددهم حده استمداد منهم في محكم مخططاتهم لعاداتهم مثل نافع مولى عبد الله بن عمر ، الذي أخذ عنه أكثر علمه - ولما أخذ الصلبة يعملون في الامصار المفتوحة ، اشترك العرب والعجم أيضا في تلقى العلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم . كان بعد حملة العلم عربا وأتربهم من الموالي أو أبناء الموالي . . . (٢)

ويطلب ابن خلدون ظاهرة اعتغال الموالي بالعلم ونبوغهم بانفسهم في العرب بالرياسة والسياسة الى أوائل الدولة العباسية والتالي انصرافهم عن العلم ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصناعات وأهل الرياسة يستنكفون من الصناعات . . . (٣)

(١) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ج١ ص ٢٥ - الشيرازي : طبقات الفقهاء

ص ٢١

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٨٣ - ١٥٠

(٣) ابن خلدون : المقدمة - الفصل الخامس والثلاثون ص ٤٤ - ٤٥

ولحل ظاهرة نبوغ الموالى فى تلك الفترة مدينة لما أتاحه امير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز لهم من فرص لاستظهار مواهبهم وطوئهم • فكان ابن عمر بن عبد العزيز القاعدة الشاذة من خلفاء بنى امية الذين تمصبوا للمنصرى المسمى فكان يساوى بين رعاياه من العرب والموالى • ويحزى اليه الفضل فى رد مظالم بنى امية (قال قائل : الخلفاء ثلاثة ، ابو بكر الصديق يوم الودع — وعمر ابن عبد العزيز فى رده مظالم بنى امية • والمتوكل فى احياء السنة •) (١)

ومن أبرز الموالى العلماء الذين رفع امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مسن شأنهم بالقسطاط (يزيد ابن ابي حبيب الازدي — حبيب بن قيس — وقيل سويد مولى بنى عامر بن لوى — وكنيته ابو رجاء المصرى — وهو من أصل نهمى من دنقله • وقد ولد بمصر سنة ٥٣ هـ) (٢) • كان يزيد طليط طقالا • (٣) ويعد من الشخصيات العظيمة فى تاريخ مصر العلمى • • • فقد كان له أعظم الاثر فى أنه لون مدرسة مصر الدينية بلون جديد هو التشرىح فهو أول من أظهر العلم بمصر والمساائل فى الحلال والحرام ومساائل الفقه • (٤) وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن • (٥) هذا يعنى انه كان المؤسس الاول للحركة الفقهية التى امتازت بها مصر والتى مهدت الطريق لمن جاء بعده من الفقهاء • ويدل هذا ايضا على انه قد جهد فى ان يلفت الناس بوضئ الى دراسة منظومة للفقه الاساسى فى مختلف فروع وتباين اشكاله • ذلك لان التمهيد بالحلال والحرام يلخص هذا ويدل عليه • (٦) — اما الترغيب فى الملاحم والفتن فهى

(١) ابو المظمن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٧٥ — السيوطى : تاريخ الخلفاء

ص ٢٣٠ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٦٢

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٢٩ — تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٤ — المبر

فى خبر من غير ج١ ص ١٦٨ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج١ ص ٣١٨

— السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٤٥ — طبقات الحفاظ ص ٥٢ —

الزركلى / الاعلام ج٩ ص ٢٣٦

(٣) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥

(٤) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ١٢ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١

ص ١٢٩ — تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٤ — المبر ج١ ص ١٦٨ — القريشى :

الخط ج٤ ص ١٤٤ — الزركلى : الاعلام ج٩ ص ٢٣٦ — ابو المظمن /

النجوم ج١ ص ٣٠٨

القصص بما تحويه من روايات وقصص دينية وخلقية — فقد كانت رواية القصص تخلص
مكانا بارزا في مجال العلوم الدينية — وكان كثير من القضاة يجمعون بين القضاء
والقصص. (١)

وسيدوا ان يزيد بن ابي حبيب كان له أثر في احتواء هذا اللون " القصص "
بما أصبح عليه من مسائل الفقه لان القصص كانت قد جذبت اليها انظار العامة بما
خشى عليه من انصياهم اليها وخاصة انها تحوى الكثير من الاساطير فكانت تدخل
عليها الشوائب بمرور الوقت مما أدت الى مقت الكثير لهذا اللون لانه كان يحمى
عن غرقه الاول وهو " الوعظ والارشاد " . وقد بلغ من سمو منزلة يزيد العلمية
ان صار " مفتى أهل البلد " ، وكان احد الثلاثة الذين جعل الخليفة عمر بن
عبد العزيز اليهم الفتيا بمصر . (٢) وكانت تلك الفتيا لرجلان من الموالي
ورجل من العرب ، فأما العربي فهو جعفر بن ربيعة والموليان فيزيد بن ابي حبيب
وعبد الله ابن ابي جعفر فكان العرب انكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنب
اذا كانت الموالي تصوب بانفسها صعدا وانتم لاتسمون " . (٣)

(٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — القرظى : الخطط
ج٤ ص ١٤٣

(٦) السيد احمد خليل : الليث بن سعد ص ٥٨ — ٥٩

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وخباياها ص ٢٣١ — ٢٤٧ — الكمدى : الولاء
وكتاب القضاء ص ٣٠٣ — ٣١٤ — ٣٢١ — ٣٤٢ — ٣٤٨ — ٣٦٨ — ٣٩٤
القرظى : الخطط ج٤ ص ١٧

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — القرظى : الخطط ج٤ ص ١٤٣
ابو المطمن / النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٣٨ — السيوطى : حسن المطهرة
ج١ ص ٢٩٩

(٣) القرظى : الخطط ج٤ ص ١٤٣ — ابو المطمن : النجوم الزاهرة
ج١ ص ٢٣٨ .

وكانت الهبة اذا جاءت الخليفة ، كان اول من يبيع عبيد الله ثم يزيد بن ابي حبيب ثم الناس .. (١) وقد كان ليزيد شأن عظيم في مجال الافتاء فكسان يستفتيه أبرز شخصيات مصر " قال سعيد بن غيران زياد بين عبدالمزير بن مروان أرسل الى يزيد بن ابي حبيب قائلاً : اننى لا سألك عن شئ من العلم ، فأرسل اليه : بل انت فأتنى فان مجيئك الى زين لك ، ومجئى اليك شين عليك " (٢)

وكان ليزيد بن ابي حبيب الفضل في تنشأة جيل من العلماء الصرييين الذين صار لهم أثر كبير في النهضة التشريعية وفي نمو المدرسة الدينية بدينونة القضاة ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد — الذى كان يقول : يزيد عالماً وسيدنا " (٣)

أما المولى الآخر الذى كان له أثر هام في الحياة الفقهية في مدينة القضاة فهو (عبيد الله بن ابي جعفر المصري — أبو بكر الفقيه (٦٠-١٢٦هـ) قال ابن سعد عنه : هو ثقة ، فقيه زمانه " (٤) مثل تلميذه عمرو بن الحارث الانصارى فليل له أيهما تفضل يزيد بن ابي حبيب ، أو عبيد الله بن ابي جعفر ؟

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٨٥ — المقرئى : الخطط ج٤ ص ١٤٣

(٢) الذهبى : المرجع السابق ج٥ ص ١٨٥

(٣) الذهبى / السابق ج٥ ص ١٨٥ — ابو الطعن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٣٠٨ — السيوطى / حسن المحاضرة ج١ ص ٢٩٩

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٧ ص ٥١٤ — الذهبى : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٢٩٩ — ابن حجر : تهذيب التهذيب ج٧ ص ٥ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٩٩

قال عمرو : لو جعلنا في ميزان ما رجع هذا على هذا . . . (١) وكان عبيد الله من مشهورى شيوخ المصريين . اهل العلم والخبرة والذكاء واللفظة والتفتيش والرحلة والطلب . (٢) وكان عمرو بن الطارث الانصارى المتوفى سنة ١٤٨ هـ من أبرز تلاميذ يزيد بن ابي حبيب وعبيد الله بن ابي جعفر فقد تتلمذ عليها . وروى عنها الكثير . (٣) لقد كان محدثا شتهرا بقوة الحفظ وكان من مجتهدى فقهاء مصر . (٤) قال ابن وهب : لو بقى لنا عمرو بن الطارث ما احجنا الى مالك . (٥) وكان الليث بن سعد وابن وهب من أبرز تلاميذه كما يمد الاخير روايته . (٦)

كان لهذه الشخصيات العلمية اثر هام فى نمو الحياة العقلية فى تلك الفترة فقد مهد هؤلاء العلماء السبيل بمعظمهم التشريعى وفهمهم المستقل الذى تكوين بعض الشخصيات العلمية مثل عبد الله بن لهيعة — والليث بن سعد — اللذين عاصروا النهضة التشريعية فى الاسلام والتى اقتصرت بتقييد العلم وتدوينه ففى صطيف مرتبة بعد ان كان ما يزال فى طور الحفظ والرواية الشفهية . وتذكر بعض المصادر ان ابن لهيعة والليث بن سعد قد شاركا فى حركة تدوين العلوم الاسلامية .

-
- (١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٥ ص ١٨٥
 (٢) عمر بن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص ٢
 (٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٣ — ابن خجر : تهذيب التهذيب ج ٨ ص ١٥ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٠٠
 (٤) الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٥٧ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠
 (٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٣
 (٦) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٣ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠ — الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٧٥

قال الذهبي : في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الاسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير . فصنف ابن جريج (المتوفى سنة ١٥٥ هـ) التصانيف بمكة وصنف سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ — وحمام بن سلمة وغيرها بالبصرة . وصنف ابو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة . وصنف الاوزاعي بالشام وصنف معمر باليمن وصنف سفيان الثوري كتاب الجامع ثم من بعد يسير صنف هشيم وصنف الليث بن سعد . وبعد الله لهيعة ثم ابن المبارك والقاضي ابو يوسف يحقوب وابن وهب وكثير قهريب العلم وتدوينه وقبل هذا المصر كان سائر العلماء يتكلمون عن غفلةهم يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة . (١)

وكان ابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤ هـ) اول علماء الفسطاط مشاركة فسي حركة التدوين . (٢) فقد كان من الجامعين للعلم والرحالين فيه وكان يدون فسي الخريطة التي يمنقه ما يسمعه او يراه . (٣) وكان علم الديار المصرية وقاضيهـا ومحدثها . (٤) فقد ولي القضاء بمصر في مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل امير المؤمنين ابي جعفر وهو اول قاض ولي مصر من قبل الخليفة . (٥) وقد صرف عن القضاء في سنة أربع وستين ومائة . (٦) وكان ابن لهيعة اول قاض حضر في طلب هلال رمضان بالجيزة . ثم كانت القضاء على ذلك حتى كان ابن ابي الليث فطلبه في اصل المقطم . (٧)

(١) الذهبي : المبرق خیر من غیر ص ٢١٢-٢١٣ - ابوالمظن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٥١ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ - طاجي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٨

(٢) بوكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٥٤ - فؤاد سزكين : تاريخ التواتر العربي ج ١ ص ٢٦٩

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٢٨ - ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦٧ - تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٧٣ - المبر ج ١ ص ٢٦٤ - ابوالمظن :

النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٧ - السيوطي : حسن المظاهرة ج ١ ص ١٤٥
(٤) ابو المظن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٧ - السيوطي : حسن المظاهرة ج ١ ص ١٤٥

(٥) الكندي : الولاة وكتاب القضاء ص ٣٦٨

(٦) الكندي / السابق ص ٣٧٠

(٧) الكندي / السابق ص ٣٧٠

كان وأند النصيحة التشريعية بالقسطاط الليث بن سعد بين عهد الرحمن
النهي (٩٤ هـ / ١٢٥ هـ) العالم الذي اختار نفسه "الا ان اصحابه لم يدنوا
مذهبه". (١)

وكان الليث امام اهل مصر في الفقه والحديث معا". (٢) وكان —
سادات زمانه فقها وعلماء وحفظا وفضلا وكراما". (٣) وقد تنافى اليه علم التابعين.
فقد ادرك نيفا وخمسين تابعا". (٤)

وكان كثيرا ما يرحل الى البلاد الاسلامية للاستزادة من العلم وقد سمع
ببلاد الحجاز والمراق كثيرا من الاحاديث النبوية ونقلها الى مصر". (٥) قال
الشافعي "العلم يدور على ثلاثة مالا لوالليث وسفيان بن عيينة". (٦) فقد كان
لليث مكانة بارزة في العلوم العربية المختلفة فقد كان خير النواة متعددة الجوانب.
قال عنه يعقوب بن بكير : "رأيت مائة مثل الليث بن سعد وما رأيت اكمل
منه". كان فقيه البلد عرس اللسان يحسن القرآن والنحو والبشر والحديث وحسن
المذاكرة". (٧)

(١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨١ — الذهبي : تذكرة الحفاظ
ج١ ص ٢٣٨ — ابن حجر : الرحمة الفيشية ص ٣ — السيوطي : حسن
الحاضرة ج١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٣ ص ٢٨٠ — السمعاني : الانساب ص ٥٣٩

(٣) ابن حجر : الرحمة الفيشية ص ٦

(٤) ابن حجر : المرجع السابق ص ٩٣ — ابو نعیم : حلية الاولياء ج٧ ص ٣٢٤
— الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٥٧

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٢٣٨

(٦) ابن فرعون : الدياج المذهب ص ١٥

(٧) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج١ ص ٨٣٦ — ٨٣٧ — ابن حجر : الرحمة
الفيشية ص ٦

٦- أثر التحريب في ظهور الفكر الصوفي ودوره في الحياتين السياسية والاجتماعية

فصل

حركة الزهد في القرنين الاول والثاني للهجرة:

دخلت مصر ميدان التصوف في فترة مبكرة ، وقد قامت حركة التصوف في اول الامر على أيدي الزهاد والمباد واهل الورع والتقوى وكان اول هؤلاء الصلحاء والزهاد على حد قول السيوطي هو " سليم بن عشرين حبيب التيجي المصري - أبو سليم قاض مصر وقاصها وناسكها من الطبقة الاولى من التابعين شهد خطبة عمر بالجابية وكان يسمى بالناسك لكثرة فضله وشدة عبادته وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات. (١) وهو أحد قضاة مصر ولحق قضاء مصر ستاربعين من قبل معاوية بن ابن سفيان - وكان قبل القضاء قاصا فجمعا له ، وبعد اول من قص بمصر وقد أقام قاضيا عشرين سنة ، وتوفي بد مياط سنة خمس وسبعين " . (٢) وقد كان ينحو في حياته منحى الصوفية في الانقطاع للعبادة والانسواء بمحبة عن الناس . يقول الكتدي : " . . . عن الحسن بن ثوبان قال : ركب سليم بن عشرين البحر فلما ثقل فزل وأقسام سبعة ايام لا يدري اين هو ثم جاءهم فقالوا له : أين كنت ؟ فقال : اني ذهبت الى هذا الغار فأقامت هذه السبعة شكرا لله عز وجل " . (٣)

تطورت حياة الزهد والعبادة في مصر بعد ذلك واسهم كبار الزهاد والمتسكين المسلمين في اثرائها . وتعد السيدة نفيسة من ساهم من آل البيت في حركة الزهد في مصر . وهي ابنة الامير حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) . (٤) ودخلت مصر مع زوجها المؤمن اسحق بن جعفر

(١) السيوطي : حسن المضطرة " دار الصطبة فيمن دخل مصر من الصحابة " ج ١ ص ٢١٨

(٢) الكتدي : الولاة ص ٣٠٣ - السيوطي : حسن المضطرة " دار الصطبة فيمن دخل مصر من الصحابة ج ١ ص ٢١٨ " .

(٣) الكتدي : الولاة ص ٣٠٣

(٤) المقرئ : الخطط ج ٤ ص ٣١٣ - السيوطي : حسن المضطرة ج ١ ص ٢١٨ ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٥

الصديق في رمضان سنة ١٩٣ هـ فأقامت بها . (١) وكانت عبدة زاهدة كثيرة
 الخيرة وكانت ذات مال فكانت تحسن الى الزمنى والمرضى وعيهم الناس . (٢) وكان
 يفد على السيدة نفيسة في مصراثة الفقلاء ملاهى وكبار الملطاء فقد زارها الامام
 الشافعى وبصحبه عبد الله بن عبد الحكم واستقبلتهم من وراء حجاب . ولما توفى
 الامام الشافعى سنة ٢٠٤ هـ ادخلت جنازته اليها وصلت عليه في دارها وكانت
 موضع مشهدها الطلى وقالت رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء . (٣) وقد
 احبها أهل مصر ويحقدون في كرامتها فكانوا اذا نزل بهم أمر جاءوا اليها يسألونها
 الدعاء . وقد ادى ازدحام الناس عند بابها الى ان فكر زوجها نسي الارتحال
 معها الى الحجاز ولكنها قالت له : لا استطيع ذلك وانى رأيت رسول الله (طم)
 في المنام وقال لى لا ترخى من مصر ، فان الله تبارك وتعالى متوفيك بها . (٤)
 وقد أقامت السيدة نفيسة بمصر الى ان توفيت بها . ولما أحست بدنو اجلها كتبت
 الى زوجها اسحق المؤمن بالحجاز كتابا وخفوت قبرها بيدها في بيتها .
 وكانت تنزل فيه وتصلى كثيرا وتقرأ فيه مائة وتسعين ختمه وكانت اذا عجزت عن
 القيام لضعفها تصلى قاعدة وتسبح وتقرأ وتبكي كثيرا ولما طنت الساعة وكان
 ذلك لول جمعة من شهر رمضان قرأت سورة الانعام . ولما وصلت الى قوله تعالى :
 " لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون " (٥) ثنى عليهم

(١) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٣ — السيوطى : حسن المضطرة ج١
 ص ٢١٨

(٢) السيوطى : المرجع السابق ج١ ص ٢٠٨

(٣) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣٠٣ — السيوطى : حسن المضطرة ج١ ص ٢١٨
 ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٩

(٤) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٣ — ابن الزيات : الكواكب السيارة
 ص ٩

(٥) سورة الانعام — الآية ١٢٢

فرضها ابنة أخيها الى صدرها فشهدت شهادة الحق رحمة الله عليها . (١) ، وكانت وفاتها بمصر سنة ٢٠٨ هـ (٢) . ودفنت السيدة نفيسة بدارها بدار رب السباع بين القطائع والحسكر التي عرفت فيما بعد بكم الجارحى . (٣) وكان قبر السيدة نفيسة وما يزال - مزارا يتبرك به ، ولا هل مصر عنها اعتقاد عظيم . (٤)

ظهور الصوفية بمصر :

لم تلبث حركة الزهد بالفسطاط ان تبلورت الى حركة تصوف اصبح لها ثقل اجتماعي خاص بمصر . فقد جاء في أقوال متواتره في كتاب الولاء والقضاء للكندى انه في ولاية السرى بن الحكم (سنة ٢٠٠ هـ) وفي اثناء الصراع السياسى بين السرى بن الحكم والجوى صارت لطائفة الصوفية تأثير قوى في مجرى الاحداث السياسية في مصر وأصبح الصوفية يمثلون هيئة اجتماعية لها ثقلها وتأثيرها في مجرى الاحداث السياسية في تلك الفترة (. . .) فقد ظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمنون بالمصوف فيما زعموا ويمارضون السلطان في أمره فتراءى عليهم رجل منهم يقال له ابو عبد الرحمن الصوفى . (٥) وكان هناك نزاع بين ابيو عبد الرحمن الصوفى فوجد نفسه من ذلك وخرج الى الاندلسيين وألف بينهم وبين لخم ورجل اهل الاندلس ان يدركوا ابن هلال . وكانت لخم احد من ناحية الاسكندرية - فساروا جميعا الى عمرو بن هلال وهم زهاء عشرة الاف من لخم ومن الاندلسيين ومن غوى اليهم فحضره في قصره . (٦) وانتهت الاحداث بمقتل ابن هلال واهله في ذى القعدة سنة ثمانين . . . ولاية ابا عبد الرحمن

(١) السخاوى : تحفة الاجاب ص٩

(٢) المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٤ - السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨ - السخاوى : تحفة الاجاب ص ١٢ - ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩

(٣) البلوى : سيرة بن طولون ص ٩٨ - المقرئى : الخطط ج٤ ص ٣١٤ - السيوطى / حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٠٩ - سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ١٣٩

(٥) الكندى : الولاء وكتاب القضاء ص ١٦٦ - ١٦٣ . المقرئى الخطط ج١ ص ١٢٢ - مقر / الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج١ ص ١٢٠

(٦) الكندى : الولاء ص ١٦٦ - ١٦٣ ، المقرئى : الخطط ج١ ص ١٢٣

الصوفى — فبلغ من الفساد بالاسكندرية ما لا يسمح بمثله الى ان عزله الاندلسيين
 انفسهم عنها (١) وبعمر الزمن صار للصوفية اثر كبير في سير الاحداث السياسية
 وقد تعدى ذلك الى التدخل في اعمال بعض القضاة . . . ففقدى ولاية القاضى عيسى
 ابن المنكر لقضاء مصر من قبل عبد الله بن طاهر سنة ٢١٢هـ — كانت له طائفة
 قد اخطت به من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلما ولي القضاء كانت
 تأتبه وهو فى مجلس حكمه فتقول : أيها القاضى ذهب الاسلام فعل كيت وكيت . فيترك
 مجلس الحكم ومضى معهم فكلهم اخوانه مثل عبد الله ابن عبد الحكم وغيره فقال : لا بد
 من القيام لله عز وجل بحقوقه . (٢) هكذا تعدت آراء الصوفية فى تلك الفترة حياة
 الزهد والاعتكاف الى التدخل الفعلى فى شئون الجماعة تدخلا شديدا الوطأة للامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر الذى كان مبدأهم . . .

وقد أخذ هؤلاء الصوفية يتدخلون فى شئون المجتمع السياسية الى ان جعلوا
 القاضى ابن المنكر يكتب كتابا الى المأمون بانه لا يرضى بولاية ابا اسحاق بن
 الرشيد (المحتشم) مصر لانهم كانوا يخافونه ويخشون ان يشد على يد اهل
 المدوان ففعل ذلك ابن المنكر وبلغ الكتاب المأمون فاحضر ابا اسحاق فقال : ما
 الذى فعلت فى اهل مصر . فقال : ما فعلت فيهم شيئا . فقال : هذا كتاب قاضيهم
 يزعم انه لا يرضى بولايتك عليهم . فقال : ما أسأت الى واحد منهم ولا فعلت باي
 المنكر وا فعلن . (٣) وانتهى الامر بان عزله ابا اسحاق عنها سنة ٢١٤هـ . (٤)

ذو النون المصرى الاخميمى مؤرخ أسس الحياة الصوفية :

لم تلبث الحياة الصوفية ان تطورت فى مصر بمدينة النسطاط متبلورة ففى
 حركة تصوف اصبح لها نظامها وتعاليمها وتقاليدها الخاصة بها ومعالها الواضحة

(١) الكندى : الولاة ص ١٦٣ — ١٦٤

(٢) الكندى : السابق ص ٤٣٣ — ٤٤٠ — متر : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧

(٣) الكندى : السابق ص ٤٤٠

(٤) الكندى : السابق ص ٤٤١ — متر : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧

لماذا كل هذه الصفاة
 هى من صفات
 الصوفى
 عنه ؟
 (مترجم صفات)

على يد أحد الزهاد من مدينة اخميم " موطن اهل الحكمة والمعرفة " . (وهو —
 ذو النون المصري الاخميمي — ابو الفيز ثمان بن ابراهيم وقيل القيزيين ابراهيم
 المصري المعروف بذى النون — احد رجال الطريقة) (١) والذي يمد بحق واضح
 أسس التصوف بمصر " . (٢) . وكان ذو النون احد الموالى النابيين (٣٠٠) قال
 ابن يونس سمعت عليا بن عمر بن احمد بن مهدي الحافظ ببغداد يقول : اخبرت
 الحسين بن احمد بن المازرائي قال : قرأ على ابو عمر الكندي في كتابه " اعيان
 الموالى " فذكر فيه " ومنهم ذو النون بن ابراهيم الاخميمي مولى لقريش وكان
 أبوه ابراهيم نبيا " . (٣)

ويعتبر ذو النون المصري من اقرب الصوفية وله فضل كبير ففى
 وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الان . (٤) و " القطب معناه رأس العارفين
 وقد ظهر فى كلام المتصوفة ويزعمون انه لا يمكن ان يساويه احد فى مقامه فى المعرفة
 حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من اهل المرقان " وقد أشار الى ذلك ابن سينا
 فى كتاب الاشارات فى فضول التصوف " . (٥)

لم يكن التصوف قبل ذى النون علما بالمعنى المفهوم بل كان حركة زهدية
 يغلب عليها جانب العبادة . ولما جاء ذو النون اتخذ من هذه الوجهة وجهه

-
- (١) ابو نعيم : حلية الاولياء ج١ ص ٢٣١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان
 ج١ ص ٢٨٠ — القشيري : الرسالة ص ١١٢ — السلي : طبقات
 الصوفية ص ١٥ — السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨
- (٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٨
- (٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٨٠ — ابوالحسن : النجوم
 الزاهرة ج٢ ص ٣٢٠ — السلي : طبقات الصوفية ص ١٥
- (٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨٩
- (٥) ابن خلدون : المقدمة الفصل الحادى عشر (فى علم التصوف) ص ٤٢٣

أخرى علمية فتعرض لمسائل هذا العلم بالتقرير والتوضيح والتحديد وكان ذو النون يجيد التعبير والاعراب عن مكتون نفسه فكانت عباراته تنطق بالبلغة وحسن التعبير ومحمد ذو النون من الأوائل الذين وضعوا اللبنة الأولى في أصول التصوف الإسلامي يقول جلي (١) : "أنا رأس هذه الفرقة (طائفة الصوفية) فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه". وقد كان المشايخ قبله ولكنه كان أول من فسرها في الصوفية وتكلم في هذا الطريق. (١) ويقول نيكولسون : أن ذي النون المصري هو أول من وضع الاسم الأول للخصائص الشيوسوفية - Theosophia في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية. (٢) وقد كان ذو النون واحد وقته علميا وورثا وحالا وأديبا. (٣)

قال أبو نعيم : "أنا القلم النض والحكم العرضي الناطق بالحقائق الفائق للطرائق - له المهارات الوثيقة والامارات الدقيقة" (٤).

ولم ينفصل ذو النون عن الخلق العلمي المائد في عصره فكان له نظير في العلوم الدينية. فقد اشتغل في أول أمره بعلم الحديث ولا بد أنه تشقّف في صفه بثقافة دينية أهله للاشتغال بهذا العلم فهو محدود في جملة مسن روى الموطأ عن الإمام مالك. (٥)

-
- (١) عبد الرحمن جلي : نطق الانس ص ٢٦
 - (٢) نيكولسون - في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٢
 - (٣) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨
 - (٤) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠ - السيوطي / حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٨
 - (٥) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٨٠

قال السيوطي : انه حدث عن مالك والليث وابن لهيعة . (١)

ولكن السمعاني يتشكك في صدق أحاديثه فيقول : " انه اسند عنه
أحاديث غير ثابتة والحل فيها على ما دونه . . . وخفى عنه من البغداديين سميع
ابن عباس الخياط ، وابوالعباس بن مسروق الطوسي . . . قال ابو الحسن الدارقطني :
ذو النون المصري روى عنه مالك أحاديث في أسانيد لها نظير . (٢) وقال
في موضع آخر : اذا صح السند اليه فأحاديثه مستقيمة وهو ثقة . (٣)

انصرف ذو النون عن الاشتغال بعلوم الحديث . ويدوان سلوك اهـ
الحديث لم يرق الى ما تصبو اليه نفسه الزاهدة . فقد سئل عن سبب تركه الاشتغال
بالحديث ، فقال : " . . . للحديث رجل وشغلي بنفسي استغرق وقتي والحديث
من اركان الدين ولولا نقص دخل على اهل الحديث والفقهاء لكانوا افضل الناس نفسى
ازمانهم . . . الا تراهم بذلوا عليهم لاهل الدنيا يستجلبون بسببه دنياهم فحجبوا
واستكبروا عليهم . وافتتنوا لما رأوا حرص اهل العلم والمتفهمين عليها . فخانوا
الله ورسوله وصاروا كل من تبعهم في غفهم . جعلوا العلم فظ للدين . وملاحا
يكسبونها بسببه . بعد ان كان سراجا للدين يستضاء به . . . (٤)

ويقول ابو المطاسن : " ان ذي النون المصري كان اول من تكلم
في الاحوال ومقامات اهل الولاية . . . وانه انتقل الى القسطنطينية وكانت له بها
مجالس علم . . . (٥)

(١) السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) السمعاني : الانساب ص ٣٢٤

(٣) السمعاني : السابق ص ٣٢٤

(٤) الضمراوي : الطبقات الكبرى لواقع الانوار - ج ١ ص ٧٠ - ١٤٩ -
السمعاني : المرجع السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥

(٥) ابو المطاسن بن تفرى بردى - اللجوج الزاهرة ج ١ ص ٢٥٣ .

قامت فلسفة ذو النون الصوفية على دعامتين أساسيتين هما : المصرفة،
والمحبة وكانت تدور عليهما تماثيله وآراؤه الصوفية ، فهو يرى ان غاية
الطريق الصوفية الوصول الى مقام المصرفة الذي تتجلى فيه الحقائق فيدركها الصوفي
ادراكا ذوقيا لا أثر فيه للعقل ولا للهوة . وذلك لا يكون الا لخاصة اهل اللسان
الذين يرونه بأعين بصائرهم . . . (١) وذلك كان ذو النون اول من تكلم في المصرفة
بكلام نظري دقيق . . . (٢) . . . وهو في اقواله ومنطقه في فلسفته يتصك بالمأثور
من الكتاب والسنة . . . فنما قوله في المحبة (. . . عاينات المحب لله متابعة حبيبه صلى
الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه . . . (٣)

والمحبة ضد ذي النون هي محبة العبد لله . ومحبة الله لعبد . فهي
متبادلة بين العبد والرب عن محمد بن سعيد الخوارزمي قال : سمعت ذو
النون وسئل عن المحبة - قال : " ان تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغضه الله . . .
وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله . ولا تخاف في الله لومة لائم . مع المطف
للمؤمنين والغلظة على الكافرين وأتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الدين . . . (٤) . . .
مأثوراته عن المصرفة قوله (. . . لو ان الخلق عرفوا ذل اهل المصرفة من انفسهم
لحشوا التراب على رؤوسهم وفي وجوههم) . . . (٥) . . . وعن تعريف الصوفي قال
ذو النون : " انه اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكنت نطقته عنه الجوارح
يقطع الحقائق . . . (٦)

-
- (١) ابن عربي : الكوكب الدرر ورقة ١١٥
 - (٢) نيكلسون : في التصوف الاساطير ص ٢٤
 - (٣) الحافظ ابي نعيم : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٦٢
 - (٤) السابق ج ٩ ص ٣٦٢
 - (٥) الحافظ ابي نعيم : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٦١
 - (٦) الماسي : طبقات الصوفية ص ٢٩

ويتجه ذو النون الى ربط المصرفة بالشريعة . فيقول " علامسة
العار ثلاثة : لا يطفى نور مصرفته نور ورعه . ولا يمتد باطنا من العلم فيقضى
عليه ظاهرا من الحكم ولا تحط كثره نعم الله عز وجل على هتك اسرار محرم الله
تعالى " (١)

وكما ازداد العارف مصرفة بالله كان اكثر خضوعا . فيقول : " المصارف
كل يوم اخشع لانه كل ساعة اقرب " (٢)

ومن أبرز ما يميز تصوف القرنين الثالث والرابع اصطناع اصحابه لاسلوب الرمز
في التعبير عن حقائق التصوف وتعتبر هذه الرموز مبهمة على من ليس بصوفى . لان هذه
اللفظة تعبر عن اسرار وحقائق ذوقية وهبها الله لهم . ويوضح القشيري هذه الدوافع
فيقول (. . .) وهذه الطائفة " الصوفية " مستعملون الفاظا فيما بينهم تصدوا بهما
الكشف عن معانيهم لانفسهم والاجماع والستر على من باينهم في طرقهم لتكون معاني
الفاظهم مستبهمه على الاجنب غيره منهم على اسرارهم ان تشيع في غير أهلها " (٣)
ولعل اصطناع اسلوب الرمز من جانب الصوفية كان له اثر في النزاع بينهم وبين
الفقهاء الذين بدأت خصوصيتهم للصوفية منذ القرنين الثالث والرابع تشتد " لان
الفقهاء يميلون دائما الى ظاهر القرآن والسنة النبوية . اما الصوفية فلا يفرقون بين
واجب ومستور ولكل فرض من فرائض الدين اسرار . ولذلك عد الفقهاء واهل القضاة
اكثر آراء المتصوفة بدعا في الدين يجب الرد عليها ودحضها " (٤) . . . وقد
بدأت خصومة الفقهاء للصوفية منذ القرن الثالث والرابع تشتد وبدأ صراعهم

(١) القشيري : الرسالة ص ١٤٣

(٢) السلي : طبقات الصوفية ص ٢٦

(٣) القشيري : الرسالة ص ٣١

(٤) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ص ١٥٧ — محمد كامل حسين :

آداب مصر الاسلامية ج ١ ص ٦٥

مع الصوفية واضط من خلال مخطوطات ذوالنون المصري الذي كانت آراؤه موضع نقد الفقهاء فاتهموه بالزندقة " .. وأنكر عليه أهل مصر ذلك " أى أقواله الفلسفية فى التصوف " وقالوا : أحدث علما لم تتكلم فيه الصلابة وسموا به الى الخليفة المباسى المتوكل على الله ورموه عنده بالزندقة وأحضر من مصر على البريد فلما دخل سرمن رأى عاصمة العراق فى ذلك الوقت " وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكرما " .. (١)

وكان ذوالنون حجة فى الاقناع ما جملة يؤثر فى نفس المتوكل فيطلق سراحه . وقد بلغ من منزلة ذوالنون عند المتوكل " اننا اذا ذكر اهل الورع بين يديه يبكى ويقول اذا ذكر اهل الورع فحى هلا بذى النون " (٢) وكان ذوالنون قد اضهد وأقصر بمحنة خلق القرآن .. فقد هرب ثم رأى ان يرجع فرجع الى مصر ووقع فى يد (قاضى مصرفى ذلك الوقت " محمد بن ابي الليث " فأقر بالمحنة) .. (٣)

لم يقتصر نشاط ذى النون على نشأة ووضع أسس علم التصوف بل كانت له علوم ومعارف اخرى .. فقد ألحقه القفطى " بطبقة جليبرين حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقليد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة " .. (٤) ويذكر صاحب الفهرست " .. انه كان متصوفا وله أثر فى الصنعة . وكتب مصنفة ، فمن كتبه ، كتاب الركن الاكبر ، وكتاب الثقة فى الصنعة " .. (٥)

(١) ابن خلكان ج١ ص ٢٨١ - ابو المظن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٥٨ - السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٥٨

(٢) ابن خلكان : وفيات ج١ ص ٢٨٣ - الطوسى : اللمع ص ٤٩٨ - السامى : طبقات الصوفية ص ٢١٣ - الشمرانى : الطبقات الكبرى لواقع الانوار ج١ ص ٧٠

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٥٣ - سيدة كاشف : مصرفى فجر الاسلام ص ١٦١

(٤) القفطى : اخبار الطائفة بأخبار الحكماء ص ١٨٥

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٧ - ١٥٨

ويشير أحد المصادر إلى أن ذي النون كان يصرف اللغة السريانية وكان يقرأ مادون بها من نصوص وأخبار * (١) وأنه كان يقرأ مادون بالفرعونية على جد وأن الهياكل والآثار وكان يعتنق كثيرا بما صور منها ورسم على البرابي من النقوش والصور وأنه تدبر بعضها مرة فإذا مكتوب فيه " يقدر المقدرون والقضاء يضحك " وتبيــــــــــــن بعضها منها في ذلك القلم الأول فإذا معناه :

تدبر بالنجوم ولست تدري . . . ورب النجم يفعل ما يريد * (٢)

وقد كان ذو النون كثير الملازمة لبرابا بلده (٣) اخميم التي كانت تعتبر بيتا من بيوت الحكمة القديمة وفيها التصاوير المجيبة والمثالات الغريبة التي تزيــــــــــــد المؤمن ايمانا والكافر طغيانا ويقال انه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية * (٤) ومن المرجح أن ملازمة ذي النون للبرابي كانت نتيجة لتأثره بحياة الرهبان الذين كانوا يمارسون حياتهم في الدير وفي الأماكن البعيدة النائية المعزولة وربما كانت ملازمة ذي النون لتلك البرابي لينشد مزيدا من التأمل بعيدا عن الاعين وليمارس عقيدته في الخفاء في تلك الأماكن البعيدة العقفرة وصف الحافظ ابو نعيم أحوال الصوفية فيقول : (٥) الصوفية قد فارقوا المروءة والقفار وهربوا بدنهم إلى الجبال والقفار فهم الاتقياء الاخفاء * (٥) وربما يكون اشتغال ذو النون بالكيمياء هو أحد الأسباب لملازمته للبرابي (فقد كانت هذه المصطلح بهذا العلوم الكيمياء والسحر والاسرار والطلسمات في نظر المسلمين ومن هذه البرابي برابا اخميم) * (٦)

وقد كانت لذى النون مكانة عظيمة في قلوب المصريين " فقليل انه لما توفي سنة خمس وأربعين ومائتين بالجيزة لم يتمكنوا من نقل جثمانه عبر البحر المقام على النيل خشية أن ينقطع من كثرة تزام المشيعين فهربوا وحملوه في قارب تفاديا للزحام * (٧)

-
- (١) ابو نعيم : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٣٩
 - (٢) المسعودي : مرجع الذهب ج ١ ص ٢٢٣
 - (٣) البرابا - كلمة قبطية معناها المعبود - سيدة كلشف : مصر في عصر الاخشيديين هامص ص ٢٢٩ - وما ذكرته من مراجع
 - (٤) القنطري : اخبار الملوك بأخبار الحكماء ص ١٨٥
 - (٥) ابو نعيم : حلية الاولياء ج ١ ص ١٧ : ٢٤
 - (٦) القنطري : الخط ج ١ ص ٢٢٨ - السيوطي : حسن المطهرة ج ١ ص ٢٨

كانت لدى النون مكانة مرموقة في عالم التصوف وكان له اتباع ومريد يسـمـن بل تأثر به كثيرين من مشايخ الصوفية في المشرق مثل "ابى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) (طيفور بن عيسى بن سردشان من اهل بلدة بسطام وكان جـده سردشان مجوسيا أسلم)". (١) و ابو سعيد الحزاز " احمد بن عيسى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) من اهل بغداد وهو أول من تكلم عن علوم الفناء والبقاء ". (٢) وطاهر المقدسى الملقب بـجبر الشام ". (٣) وقد سمع ذى النون ايضا وصحه ابو عبد الله ابن الجلاء وهو من أكابر مشايخ الشام ". (٤) وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى سنة ٣٠٤ هـ وكان شيخ الجبال والهرى في وقته ". (٥) هكذا خلف ذى النون وراءه حركة صوفية قوية ساهمت مدينة القسطنطينية فيها بفضلها ومنصيب كبير.

.....

قويت الحركة الصوفية بمصر في القرن الثالث الهجرى وصار لها ثقلها الاجتماعي ومكانتها السياسية وتأثيرها في نفوس الناس ويذكر بعض المؤرخين ان نفس من هؤلاء الصوفية كان يتدخل في شئون الولاة بالنصيحة والموعظة " مثل ابو الحسن بن بنان ابن محمد بن حمدان الحمال الزاهد الذى كان من كبار شيوخ الصوفية بمصر في القرن الثالث الهجرى وكان جريئا في الحق لا يهاب الامراء والحكام وكان

(٧) ابن عربى : الكوكب الدرى في مناقب ذى النون المصرى ورقة ١١٥ أ
— ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٣٨٣ — ابو المطاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٥٨ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢٨ —
الشحرانى : الطبقات الكبرى ج١ ص ٢٠ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٩٠

- (١) السلى : طبقات الصوفية ص ٦٧
- (٢) السلى : السابق ص ٢٢٣ — السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٢
- (٣) السلى : السابق ص ٣١٢
- (٤) القشيري : الرسالة ص ٢
- (٥) القشيري : السابق ص ٢٢—٢٣

ذا منزلة عظيمة فى النفوس فكانوا يضيئون بعبادته المثل . ويقال انه قد ضاق بجبرأته احد القضاة فأتوا به الى احمد بن طولون الذى أمر ان يلقى به لسبع جائع لانه انكر على ابن طولون شيئا من المنكرات . ومن كراماته انه عندما ألقى به الى السبع كان يشمه ويحجم عنه فرفح من بين يديه وشاهد الناس عليه شيئا من الذهول فسأله عن ذلك فقال : كنت افكر هل سور السباع طاهر أم لا . (١) والواقع ان امثال هذه الكرامات كانت قد اختصت بصوفية القرنين الثانى والثالث وكان يتعلق به عوام الصوفية . (٢) وخلاصة القول انه قد زاد تعظيم الناس لابن بنان . لانه كان من جلة المشايخ والفاصلين بالحق والامرين بالمعروف وقد سئل ابن بنان عن اجل احوال الصوفية ؟ فقال : الثقة بالضميم والقيام بالاوامر ومراعاة السر والتخلص عن الكونين والتثبت بالحق . (٣) وقد كان لابن بنان مكانة عظيمة فى نفوس المصريين لكراماته . فلما توفي فى رمضان سنة ٣١٦ هـ خرج فى جنازته اكثر اهل مصر وكان شيئا عجيبا . (٤)

ولم تقتصر حركة الزهد والتصوف على الرجال ، فقد كان لبعض النساء نصيب كبير فى المساهمة فى حركة الزهد والتصوف فى مصر فقد جاءت الى مصر فاطمة بنت عبد الرحمن بن طالح الحارانية الصوفية . . من الصالحات المتعبدات قال الخطيب ولدت ببغداد وحملت الى مصر فطال عمرها حتى جاوزت الثمانين وأقامت سنة لاتمام الا وهى فى مصلاها بغير غطاء . . سمعت من ابيها وروى عنها ابن اخيها عبد الرحمن بن القاسم وماتت سنة اثنى عشرة وثلثمائة . (٥)

(١) السلى : طبقات الصوفية ص ٧٠ - السيوطى : حسن المضطرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٤٧

(٣) السلى : طبقات الصوفية ص ٧١ - السيوطى : حسن المضطرة ج ١ ص ٢١٩

(٤) السيوطى : حسن المضطرة ج ١ ص ٢١٩

(٥) السيوطى : السابق ج ١ ص ٢١٩

وقد كانت مصر موطناً لكثير من الصوفية الوافدين الذين أتوا اليها ونشروا فيها حركة صوفية غنية وكانت لهم حوادث مع ولادة مصر تدل على سمو منزلتهم وتبرز كراماتهم . . . ومن هؤلاء الصوفية (أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملسى النابلسى الذى كان عبداً صالحاً زاهداً قولاً بالحق وقد حكى ابن كافورا الاخشيدى بمثل اليه بمال فردة . وقال : " قال الله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض) وما بينهما وما تحت الثرى) . فأين ذكر كافور هنا . فقال أبو بكر " صدق الله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) . الملك والمالك كافور صوفى لا انا ثم قيل المال - توفى سنة ٣٦٣ هـ . . . (١)

ومن الصوفية بمصر أيضاً " أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى الصائغ الزاهد أحد المشايخ الكبار . ومن كراماته انه رأى صلى بالصحراء فى شدة الحر . وقد نشر طائر جناحيه يظله من الحر . . وقد انكر على تكين امير مصر اشياء فسيره الى القدس . لكنه عاد الى مصر وتوفى بها فى رجب سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة . . (٢)

وكان أبو بكر الدقاق أبو بكر نصر بن أحمد بن نصر الدقاق " من كبار رجال الصوفية بمدينة القضاة بمصر وقد تأثر بنشاط الحركة الصوفية بمصر بمدة موته . قلت رطبة للصوفية اليها " قال الثانى : لما مات أبو بكر الدقاق انقطعت حجة الفقهاء فى دخولهم مصر . . (٣)

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٩

(٢) السيوطى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٠

(٣) السلى : طبقات الصوفية ص ٣١٤ - السيوطى : المرجع السابق

ومن المتصوفة الذين وفدوا الى مدينة القسطنطينية وتوفوا بها " ابو علي الروزباري " ابو علي احمد بن محمد بن القاسم بن شهریار الروزباري الذي يتصل نسبه بكسرى انوشروان فقد كان ببغداد ثم هجرها الى القسطنطينية فأقام فيها وأصبح شيخاً من شيوخ التصوف بها الى ان توفي سنة ٣٢٢ هـ ودفن بجوار ذي الننون المصري .^(١) ويبدو ان ثقافته كانت واسعة . فقد كان يفتخر على اقرانه بسعة ثقافته ومعارفه ومباهي بشيوخه في الادب والعلم فكان يقول : شيخى فى التصوف الجنييد وفى الفقه ابو الحباس ابن سريج وفى الادب ثعلب .^(٢) ويشير احد المستشرقين الى ظهور بعد الفرق " الطرق " الصوفية على أيدي بعض هؤلاء المتصوفة مثل الطيفوريه التي تنسب الى ابن يزيد البسطامي والخارزمية نسبة الى ابن سمييد الخراز .^(٣)

هؤلاء هم بعض الصوفية بمدينة القسطنطينية ولا شك انهم قد مهدوا بآرائهم وافكارهم الى علم التصوف الفلسفي فيما بعد لانهم بالرغم من ارتقاء افكارهم الصوفية لم يتطرقوا الى النواحي الفلسفية المعقدة . يقول نيكولسن . . . وضع صوفية القرنين الثالث والرابع نظاماً كاملاً في التصوف من الناحيتين النظرية والعملية ولكنهم لم يكونوا فلاسفة ولم يحنوا الا قليلاً بالمشكلات الميتافيزيقية .^(٤)

استمرت الحركة الصوفية بعد ذلك تتأرجح بين النمو والازدهار تارة وتعتريها موجة الانحسار تارة اخرى الى ان وصلت الى قمة مجدها في مصر الايوبية حيث وفد الى مصر الكثير من المتصوفين . الذين تصدهم صلاح الدين يوسف بن ايوب بالمعناية والرعاية وانشأ لهم دوراً عرفت باسم الخانقاه الصلاحية للصوفية المنقطعيه للنمادة .^(٥)

-
- (١) الشمراني : الطبقات الكبرى المسماة ببلوغ الانوار ج١ ص ١٠٦ — السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ١٦٨
 - (٢) الشمراني : الطبقات الكبرى ج١ ص ١٠٦
 - (٣) نيكولسن : في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢
 - (٤) نيكولسن : السابق ص ١٥٤
 - (٥) القرظي : الخطط ج٤ ص ٢٧٤

٧- دور التعريب في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية

تأثرت مصر بأنواع الثقافات التي كانت موجودة بمواسم الدولة العربية الإسلامية سواء كانت مكة والمدينة في عهد الخلفاء الراشدين أو البصرة والكوفة في عهد الخلافة العباسية وخاصة فيما يتعلق بالدراسات العربية . ومنذ البداية كان معلوما القرآن والسنة النبوية هم أساتذة العربية الأولى بالفسطاط يقول د . شوقي ضيف (أنه كان طبيعيا أن تنشط دراسات النحوي في مصر في فترة مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته مما دفع إلى نشوء طبقة من المؤدبين كانوا يعلمون الشباب في الفسطاط والاسكندرية مبادئ العربية حتى يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم وأسهم في ذلك العلماء من أئمة القراءات الذين كانت تجذبهم مصر إليها .^(١) وكان أول هؤلاء القراء (عبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدني مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي الذي كان أحد الحفاظ والقراء . أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس . وكان يكتب المصاحف ويقرأ القرآن .^(٢) وقد أخذ عن أبي الأسود علم العربية فوضعه بالمدينة .^(٣) وقد خرج إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن أدركه أجله ومات سنة ١١٢ هـ في أيام هشام بن عبد الملك .^(٤) ولكن تكاد تجمع المصادر على (أن كل القراءات في مصر رواية عن نافع بن أبي نعيم . فقيه أهل المدينة السدي بحته الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليطلع أهلها قراءة القرآن والسنة .^(٥) .

-
- (١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٧
 - (٢) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ١١٧ - الذهبی : تاریخ الاسلام ج ١ ص ١٩٥ - السيوطی : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣
 - (٣) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ١١٧ - السيوطی : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣ - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٠٩ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١ ص ١٥٣
 - (٤) السيوطی : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٥ - بغية الوعاة ص ٣٠٣ - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٠٩
 - (٥) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٤٣ - السيوطی : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٦

(١) وكان ورش المقرئ من أجل تلميذه " فقد انتهت اليه راحة الاقراء بالديار المصرية " .

والى بجانب ما ساهم به أئمة القراءات فى تعميق آثار اللغة العربية —
بالفسطاط نبخت طائفة من فقهاء ومحدثى مدينة الفسطاط فى اللغة والنحو .
فقد كان الليث بن سعد عربى اللسان — فصيح البيان — يحسن القرآن والنحو . (٢)
" وكان احمد بن صالح — أحد الحفاظ وكان اماما فى القراءات والنحو " . (٣)
وكان احمد بن يحيى الوزير بن سليمان التجيبى (١٧١هـ / ٢٥٠هـ) شيخ مبرز
من شيوخ الفسطاط — حفظا نحويًا " . (٤) وكان أعلم أهل زمانه بالشعر والادب
والغريب وأيام الناس وكان له مجلس عامر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقد
حضره الشافعى ، أيام حضوره الى الفسطاط ، ولزمه وأخذ الكثير
منه " . (٥)

وقد كان للشيوخ الوافىء بن على " الفسطاط " أثر كبير فى تعميق
آثار اللغة العربية ، بما كان لهم من ملكات لسانية قوية — ومن أبرز
هؤلاء " الامام محمد بن ادريس الشافعى " — الذى كان حجة فى اللغة
والنحو " . (٦)

(١) السيوطى : حسن المظاهرة ج١ ص ٢٧٧ — ياقوت الحموى : معجم الادباء

ج١ ص ١١٨

(٢) السيوطى : حسن المظاهرة ج١ ص ١١٨

(٣) القفطى : انباء الرواه ج١ ص ٥٢ — السيوطى : حسن المظاهرة ج١ ص ١١٨

(٤) القفطى السابق ج١ ص ٥٢ — السيوطى : بغية الوفاء ص ١٧٤

(٥) السيوطى : بغية الوفاء ص ١٧٤

(٦) السمكى : طبقات الشافعية ج١ ص ٣٧٤ — ياقوت الحموى : معجم

الادباء ج١ ص ٢٢٩ ، ابن فرحون : الدياج المذهب ص ١٢٦

وكان يحضر د روس الشافعى بالمسجد الجامع بالقسطاط طالبوا القرآن
وطالبوا الحديث والفقه والعربية . (١) ومن ائمة اللغة الذين وفوا على القسطاط
 ايضا " عبد الملك بن هشام الذى كان اماما فى اللغوة والنحو والعربية " . (٢) وقد
 كان له مجلس ادبى كبير فى جامع عمرو بن العاصى بالقسطاط وصار من ائمة اللغة
 والنحو بمصر . (٣) وكان للمصريين بمجالس ابن هشام وسيرته فوط غرام وكثير
 رواية . (٤) وقد التقى ابن هشام بالشافعى فى المسجد الجامع بالقسطاط
 وقال فيه (لقد طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنه قط . وما سمعته
 تكلم بكلمة الا احببها المحتر لا يجد كلمة فى العربية احسن منها " . (٥) وكان
 الشافعى يجلس للمعلم . وقد التف حوله المصريون الذين عرفوا قدره . فأتخذوه
 استاذا لهم ، مثل الربيع بن سليمان وسبح الخول الذى كان عالم مصر باللغة
 وكان الشافعى يقدره لفضله وعلمه يستدعيه الى مجلسه العلمى فيتناقشان ويتناظران . (٦)
 وكان الراغبون فى أخذ اللغة يتكالبون على مجلس الشافعى بالقسطاط " قال الزعفرانى
 المتوفى سنة ٢٦٠ هـ — احد تلاميذ الامام الشافعى لرجل من رؤسائهم " انكم
 لا تتعاطون العلم فلما تختلفون معنا (اى تجلسون) — فقالوا : نسمع لفظة
 الشافعى . (٧)

والنحو بمعناه الاصطلاحى كهلم له اصوله وقواعده الخاصة . لم يكن قد تقرر
 بعد فى تلك الفترة (الى نهاية القرن الثانى الهجرى) وانما كانت مسائله تبحث
 فى المجالس العلمية الدينية ، وربما كانت تعرض للدارسين اثناء تدريسهم

-
- (١) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٣٠٣
 - (٢) القفطى : انباء الرواء ج ٢ ص ٢١١
 - (٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ — بغية الوفاة ص ٣١٥ — اليافعى :
 مرآة الجنان ج ٢ ص ٣٨
 - (٤) السيوطى : السابق ج ١ ص ٢٢٨
 - (٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديساج
 المذهب ص ١٣٣
 - (٦) السيوطى : بغية الدعاة ص ٢٥٢ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام
 ص ٢٨٧
 - (٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديساج
 المذهب ص ١٣٤

بالقسطاط المعلوم الدينية كالحديث والفقه فيضطرون للوقوف عند ها والمناقشة فيها دون ان يكون لهم كتاب فيها او منهج يلتزمون به " لانه لم يكن للدراسات اللغوية والنحوية في تلك الفترة أثر في مصر " (١)

النحو واللغة في طور الحفظ والرواية :

لم تلبث الدراسات اللغوية والنحوية بمصر ان تطورت في القرن الثالث الهجري على يد أسرة مصرية كان لها اكبر الاثر في وضع اساس علم النحو في مصر. وهي أسرة " بنى ولاد " التي اخذ النحو يأخذ طابعا مستقلا على يد ابنائها وكان رأس هذه الأسرة الوليد بن محمد التميمي المصروف بولاد الصادرى المتوفى سنة ٢٦٣ هـ فعلى يد به تكونت المدرسة التي تعد النواة الاولى لدراسة النحو في مصر فتشير كثير من المصادر الى انه كان اول من ادخل علوم العربية الى القسطاط ولم تكن كسب النحو واللغة تعرف بها قبله " (٢) وكان ولاد بصرى الاصل نشأ بمصر ورحل الى العراق وسمع بها العلماء " (٣) وكانت العراق في ذلك الوقت هي موطن الخلافة في مصر العباسي ولهذا فقد كانت ملتقى الدارسين وكانت تشد اليها رحل العلماء الراغبين في الاستزادة بعلم النحو . وكانت الرحلة وسيلة هامة للاتصال بالعلماء " وكان لاصحاب اللغة مشاركة في الرحلة مثل اصحاب الحديث " (٤) وفي رحلته ذهب لولد الصادرى الى المدينة للاخذ عن علماءها ثم عرج على العراق تذكر الرواية التاريخية (ان ولادا كان يأخذ النحويين رجل من اهل مدينة النبى

- (١) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٦٨
- (٢) القفطى : انباء الرواء ج ٢ ص ٣٥٤ - السيوطى : بغية الوفاء ص ٤٠٥ - الزيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٢٢ - شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٨
- (٣) السيوطى : بغية الوفاء ص ٤٠٥ - الزيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٢٢
- (٤) الرافعى : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤

صلى الله عليه وسلم ولم يكن المدني من الحذاق بالعربية . فسمع ولاد بالخيل
 بن احمد فرحل اليه . فلقبه بالبصرة . وسمع منه ولازمه ثم انصرف الى مصر . (١) ويبدو
 ان ولادا قد اصاب في رحلته وحمل علما غريبا . فعند انصرافه الى مصر جعل طريقه
 على المدينة . فلقى معلما فناظره . فلما رأى المدني تدقيق ولاد للمعاني وتحليله
 في النحو قال : لقد ثبت بعد هذا الخردل (اى انما كثر دقة منه) (٢) وقد كان
 الذين يرحلون الى العراق يحملون معهم عند عودتهم كتب النحو واللغة حيث
 كانوا يقومون بنقلها وخطها وقراءتها وروايتها على النابهين من طلاب العلم .
 فكان ولادا هو اول من ادخل كتب النحو واللغة الى القسطنطينية بعد ان حذقها ورواها
 باسانيدها عن علماء البصرة . (٣) وكانت رحلة ولاد بداية عهد جديد في الرحلة
 الى العراق امام الملوك المصريين اذ ترسموا خطاه واقتفوا اثره . ورحلوا الى مدن
 العراق يستزيدون من العلم والتقوا هناك بشيوخ النحو وعلمائه واخذوا عنهم ثم
 عادوا وهم يحملون ما درسوه وينقلون ما سمعوا ويرجون ما حفظوه وبذلك اتصلت الدراسات
 النحوية في مصر في زمن مبكر بالدراسات النحوية بالبصرة والكوفة بالعراق (٤)
 وكان " ابو عبد الله محمد بن حسان المتوفى سنة ٢٧٣ هـ - قد تأثر بصورة واضحة
 بالعراقيين - قال ابن يونس في تاريخ مصر : ان ابو عبد الله كان نحويا مجسدا .
 وروى عن ابي ذرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام (٥) وكان قديم المهد فسمى
 طريقة اصحاب الخليل كولاد وغيره . وتصدر لافادة هذا الشأن فأخذ عنه ابو الحسين
 بن الوليد ولاد . (٦)

-
- (١) السيوطي : بنية الوطاء ص ٤٠٥ - الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٣
 (٢) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٣٥٤ - السيوطي : بنية الوطاء ص ٤٠٥
 - الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٢
 (٣) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٣٥٤ - السيوطي : بنية الوطاء ص ٤٠٥
 - الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٢
 (٤) شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٣٢٨
 (٥) السيوطي : بنية الوطاء ص ٣٨٧
 (٦) القفطي : انباء الرواة ج ٢ ص ٢٦٤ - السيوطي : بنية الوطاء ص ٣٨٧ -
 الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٣

النحو ومكانة النحاة بالقسطاط في عصر المؤلفات العلمية :

كانت مصر في القرن الثالث الهجري تنفس بالمد يد من اللغويين والنحاة وكان معظم هؤلاء من الواقدين اليها . وكان من أبرز هؤلاء النحاة (ابو علي احمد بن جعفر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٩ هـ - احد النحاة البصريين - وهو من اصحاب المؤلفات الادبية النحوية وقد سار كاسلافه في بداية الامر في الاخذ عن المراقبيين ، فقدم البصرة من بلدته دينور . واخذ عن الطازني وحمل عنه كتاب سيويه . (١) ثم دخل بغداد وقراه على العبد ايضا ثم وفد الى مصر قوطنا . فاستقر بهما يعلم النحو " . (٢) وكان ابو علي الدينوري من اصحاب المؤلفات العلمية فقد ألف كتابا في النحو سماه " المذهب " جلب في صدره اختلاف البصريين والكوفييين - وعزا كل مسألة الى صاحبها . ونقل مذهب البصريين وعول في ذلك على كتاب الاخفش (سعيد بن مسعدة) وله كتاب مختصر في ضائر القرآن استخرجه من كتاب الممانى للفراء . (٣) وقد تتلمذ على يديه عدد من النحاة في مصر والاندلس . ومن تلاميذه المصريين محمد بن ولاد . وعبد الله بن عبد العزيز استاذ يعقوب بن يوسف النجيري . (٤) ومن اخذ عنه من الاندلسيين (محمد بن موسى بن هاشم الافشين القرطبي وقد أخذ عنه كتاب سيويه رواية " . (٥)

- (١) سيويه هو واضح علم النحوي في اطاره العلمي - وعمل كتابه فيه . ولم يسبق الى مثله احد قبله . جمع فيه كل المعلومات اللغوية والنحوية في عصره (ابن النديم / الفهرست ص ٨٢) .
- (٢) القفطي : انباء الرواة ج ١ ص ٣٣ - السيوطي : بغية الوعاة ص ١٣٠
- (٣) القفطي : السابق ج ١ ص ٣٣ - ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ٢ ص ٢٤٠ - طحطاوي : كشف الظنون ج ١ ص ١٠٨
- (٤) ابن القرض : تاريخ العلماء والرواة للملم بالاندلس ج ١ ص ٢٣٣ - السيوطي : بغية الوعاة ص ١٣٠
- (٥) السيوطي : بغية الوعاة ص ٣ - الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٦

وكان يعاصر ابو على الدينورى (ابو الحسين — محمد بن الوليد التميمى —
 (٢٤٨—٢٩٨ هـ) احد النابهيين من اسرة بنى ولاد * (١) ويعد محمد بن —
 الوليد من المصريين * يقول صاحب الاعلام * انه نحوى من أهل مصر مولدا ووفاء * (٢)
 وقد اخذ محمد بن الوليد العربية بمصر عن محمود بن حسان وابو على الدينورى
 وغيرها * (٣) ثم رحل الى العراق واخذ عن البرد وشعلب وله من الكتب كتاب المنق
 ولم يصنع فيه شيئا * وينسب اليه خطأ كتاب المقصور والممدود * (٤) وهو لابن
 ابى الحباس بن ولاد * وتذكر بعض المصادر ان محمدا هو أول من أدخل كتاب سيويه
 الى مصر بعد ان انتسخه من البرد * فعندما رحل الى العراق كلم البرد نفسه فسى
 نسخه على شىء ساء له فأجابه * فأكمل نسخة وابى ان يعطيه شيئا حتى يقسراه
 عليه ففضب البرد * وسعى الى بعض خدم السلطان ليماقيه على ذلك * فاستجأ
 ابن ولاد الى صاحب الخراج بهفداد * وكان يؤدب ولده * فأجابه * ثم السح
 على البرد حتى أقرأه الكتاب * (٥)

ومن النحلة * اصطب المؤلفات الادبية * الذين وفدوا الى القسطنطينية ايضا
 (الاخفش على بن سليمان) المتوفى ٣١٥ هـ بهفداد * الذى جاء الى القسطنطينية
 سنة ٢٨٧ هـ وتصدر للتدريس بها وقد أخذ عنه المصريون اللغة * فقد مكث

-
- (١) القفطى : انباء الرواة ج ٢ ص ٢٤٤ — السيوطى : بنية الوطاء ص ١١٢ —
 الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٧
 (٢) الزركلى : الاعلام ج ٢ ص ٩٩٩
 (٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٩ ص ٩ — الزبيدى : طبقات النحويين
 ص ٢٣٤ — ٢٣٦ — السيوطى : بنية الوطاء ص ١١٢
 (٤) ياقوت الحموى : السابق ج ١٩ ص ١٠٥ — السيوطى : بنية الوطاء ص ١١٢
 (٥) ياقوت الحموى : السابق ج ١٩ ص ١٠٥ — الزبيدى : طبقات
 النحويين ص ٢٣٦

بها فترة طويلة — حيث خرج منها سنة ٣٠٠ هـ وقد قيل انه لم يفاد رهسا
 الا سنة ٣٠٦ هـ (١) وكان الاخفش تلميذا للمبرد • وروى عنه كتابه الكامل • (٢)
 أحد اركان الادب الاربعة وله من الكتب — كتاب الانواء وكتاب التثنية والجمع
 وكتاب الجراء • (٣)

ومن أشهر النحاة الذين قدموا الى القسطنطينية وعدوا منها " ابو بكر محمد
 بن عبد الله بن محمد بن مسلم — مولى حمير المعروف بالمطش المتوفى سنة ٣٠٣ هـ
 قال ابن يونس في تاريخ مصر : انه كان نحويا يعلم اولاد الملوك النحو • (٤) وكان
 معلما وقد أم بالجوامع الحثيق بالقسطنطينية • (٥)

ومن اصحاب المؤلفات النحوية الذين جاءوا الى مصر ايضا (محمد بن
 محمد ابن الازهرى بن طلحة المعروف بالازهرى اللغوى — الاديب (٢٨٢) —
 ٣٧٠ هـ) وهو صاحب كتاب التهذيب فى اللغة وتفسير مختصر المبنى والتقريب
 فى التفسير • (٦) وكان الازهرى عالما بالنحو • اما فى الادب • جيهـ
 القياس • صحيح القرينة • (٧)

(١) القفطى : انباء الرواة ج٢ ص ٢٢٧ — السيوطى : بغية الوعاة
 ص ١٣

(٢) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٣

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٩

(٤) ابن السكيت : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٠٦ — بغية الوعاة
 ص ٦٠

(٥) السيوطى : بغية الوعاة ص ٦٠

(٦) السيوطى : السابق ص ٨

(٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج١ ص ٢٤٨ — السيوطى : بغية
 الوعاة ص ٨

وقد كان استاذنا لكثير من المصريين فقد كان مقيط بالديار المصرية . (١) ومن اجل تلاميذه " على بن محمد الهروي المصري -- وهو اول من أدخل كتاب الصحاح للجوهري الى مصر ووجد فيه خلافاً لهذبه وأصلحه " . (٢)

ولاشك ان وجود هؤلاء النحاة قد اسهم في ازدهار حركة النحو واللغة بالقسطاط وكان لهم الفضل في شيوع المؤلفات اللغوية والنحوية بها .

الدراسة النحوية بمصر بين التثليد والتجديد :

تطورت الدراسات اللغوية والنحوية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فقد نضجت العلوم على اختلاف مواضعها وظهرت الكتب الواقفية فسي اكثرها " . (٣) وكان هذا القرن حداً يفصل بين عهدين وطريقتين " . (٤) وفسي هذا القرن تخلص علم اللغة من طريقة الفقهاء وما شجهم حتى من الناحية الشكلية . وقد شمر ائمة اللغة في القرن الرابع الهجري بالطبعة الى منهج يشيرون عليه . والى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة " . (٥) ويعتبر القرن الرابع فتحاً جديداً في كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية وهما : النحو وعمل المعاجم " . (٦) وتشير كثير من القرائن الى شيوع اللغة العربية في مصر في القرن الرابع الهجري " . (٧) وقد ظهر بوضوح نفور الناس من اللحن السيئ حد ان اعتبر عيباً كبيراً ومن ذلك " ان الفضل بن عباس دخل على كافور فقال له : ادام الله ايام مولانا " بكسر الهميم " فانكر كافور والحاضرون في مجلسه ذلك فقسام رجل من الحاضرين من اوساط الناس ، ولعله النجيري وانشد محتذراً عن لحن

(١) السيوطي : بغية الوطاء ص ٨

(٢) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ١ ص ٢٤٨

(٣) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٠

(٤) متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٤١٧

(٥) متر : السابق ج ١ ص ٤١٧

(٦) متر : السابق ج ١ ص ٤١٦

(٧)

اللاحن ، على أن يحفو كاقصور:

لا غرو ان لحن الداعى لعيدنا .. أو غص من هيبته بالريق أو بهر
 فمثل سيدنا حلت مها بتمسه .. بين البليخ وبين القول بالحصر
 فان يكن خفض الايام عن د هـ ش .. من شدة الخوف لا من قلة البصر . (١)

وفى تلك الفترة * اخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها
 وتقف على قدميها وحدها . وتنافس نظيراتها فى سائر انحاء العالم الاسلامى * وظهر
 لأول مرة مؤلفون مصريون متفوقون انضمت جهودهم الى جهود الوافدين من البلاد
 الاخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة اثارت لديها انتباه العالم الاسلامى كله . (٢)

وكان اللغويون والنحاة المصريون كثيرين ويتفاوتون من حيث الشهرة وغزارة
 الانتاج الملقى وكان فى مقدمة هؤلاء (كراع النحل — أبو الحسن على بن الحسن
 الهنائى الدوسى الازدى من اهل مصر وتوفى بها سنة ٣١٠ هـ . (٣) . وكان كوفى
 المذهب وقد أخذ عن من البصريين وغلط المذهبيين وكان الى قول البصريين
 أميل . (٤) . وكانت كتبه فى مصر مرغوب فيها . (٥) . فقد كان كراع النحل مسن
 اصحاب المصنفات وله مؤلفات عديدة مثل " المنجد فى اللغة " . (٦) قال القفطى:
 " ورأيت جزءا من كتابه " المنجد " من خطه وقد كتب فى آخره " انه اكمل تصنيفا
 وورق فى سنة تسع وثلاثمائة " . (٧) وله كتاب مجرد الغريب على مثال الميسر
 وعلى غير ترتيبه — وقد ألف فى غريب كلام العرب ولفاتها على عدد حروف

(١) أبو المطاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ٢ — ميدة كاشف : مصر فى عصر
 الاخشيد بين ص ٣٢٢

(٢) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٦٢

(٣) القفطى : انباء الرواه ج١ ص ٢٤٠

(٤) القفطى : انباء الرواه ج١ ص ٢٤٠ — السيوطى : بغية الوفاء ص ٣٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٣١ — السيوطى : السابق ص ٣٢٣

(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠

(٧) القفطى : انباء الرواه ج١ ص ٢٤٠ — حاجى خليفة : كشف الظنون

الهجاء الثانية والمشرين * (١) * وقد بث كراع النحل في ثنايا كتبه آراء ناضجة في كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله * (٢)

كان أعظم علماء اللغة والنحو في مدينة القسطنطينية في القرن الرابع الهجري أبو المباسين بن ولاد وأبو جعفر النحاس * وكان ابن ولاد — أبو المباسين — أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري نحوي مصري وفاضلها وقد أقام بها يفيد ويصنف إلى أن مات سنة ٣٢٢ هـ * (٣) وكان شيخ الديار المصرية مع أبو جعفر النحاس * (٤) وهو من أسرة بنى ولاد التي استأثر أهلها بعلم اللغة والنحو وقد تتلمذ على علماء القسطنطينية في أول مراحل حياته * فصنع من أبيه بصري — ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن الزجاج — أبو اسحق إبراهيم بن العري ولزمه وسمع منه مع أبي جعفر النحاس وكان الزجاج يفضل على ابن النحاس وشيخه عليه عند من يقدم ببغداد من المصريين — فكان يقول : * عندكم تلميذ من صفته كذا كذا * فيقال له : أبو جعفر النحاس — فيقول بل أبو المباسين بن ولاد * (٥)

وقد اشتدت المنافسة بين ابن ولاد هذا ومحاصره أبو جعفر النحاس فقد كانا دائما على نفور — وقد حدث أن جمع بعض ملوك مصر بينهما في مظاهرة احتدم فيها النقاش واشتد الضجار * (٦) وكان لابن ولاد مجالسة المليحة التي يرتادها طلاب العربية * وكان عبد الله بن يحيى بن سعيد الشاعر المصري

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٣ — القفطي : انباء الرواة ج ١ ص ٢٤ — طحطاى خليفة : السابق ج ٢ ص ١٨٦

(٢) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغات العربية في مصر ص ٦٣

(٣) القفطي : انباء الرواة ج ١ ص ٩٢ — السيوطى : بغية الوعاة ص ١٦٩ — سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيد بين ص ٢٤١

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨

(٥) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٦٩ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٣٨

(٦) القفطي : انباء الرواة ج ١ ص ٩٩ — ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٤

احد من لازموا مجلسه وأخذوا عنه * (١) وكان ابن ولاد على جانب كبير من العلم بالصربية بصيرا بالنحو خبيرا بأسرار اللفظة ونا بمفرداتها * (٢) وكان لابن ولاد كثير من المؤلفات العلمية فى النحو واللغة ومن مؤلفاته * كتاب الانتصار لسيويه على البرد * (٣) وهو من احسن الكتب * (٤) وله ايضا * كتاب المقصور والمدود * وهو مرتب على حروف المعجم ويحالج مشكلات الكلمات المقصورة والمدودة ويذكر طريقة هجائها ويحصر مفرداتها وكان لابن ولاد آراء تقدمية فى كيفية تقعيد القواعد وفى أصول النحو تعد من أنضج ما قيل فى هذا الموضوع * (٥) وقد تضمن هذا الكتاب لنقد المتن (الذى جاء الى مصر فى نهاية النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) — فقد قرئ على المتن فى مجلسه كتاب المقصور والمدود — فصحه ورد فيه على ابن ولاد اغلاطا * واستشهد عند بعضها * وذلك سنة ٣٤٧ هـ * (٦)

ونبع من النحويين بالفسطاط ففى بداية العصر الاخشيدى ايضا " ابو جعفر النحوى — احمد بن محمد بن اسماعيل المرادى المصرى النحوى المتوفى

(١) السيوطى : بغية الوفاء ص ١٧٢ .

(٢) السيوطى : الزهر جا ص ٩١ .

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٠٥ نحو تيمور — وقد بدأ الكتاب بمصا نعه : (٠٠٠) هذا كتاب نذكر فيه المسائل التى زعم ابو العباس محمد بن يزيد ان سيويه غلط فيها — ونبينها وترد شبه التى لحقت بها) .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ٢٨٨ .

(٥) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة المصرية فى مصر ص ٦٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص ٨٢ — القفطى : انباء الرواء جا

ص ١٠٤ — السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ٢٢٨ — الزبيدى :

طبقات النحويين ص ٢٣٩ — سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٤١

سنة ٣٣٨ هـ — الذي ارتحل الى العراق واخذ عن الزجاج والاخشبالاصغر والمبرد ونقطويه * . وبعد رجوع ابو جعفر النحس من العراق تصدر للتدريس بالجامع بالقضاة وكان يحضر حلقة ابن الحداد الفقيه الشافعي وكان لابن الحداد ليلة في كل جمعة يتكلم فيها عنه في مسائل الفقه على طريقة النحو * وكان لا يدع حضور مجلسه في تلك الليلة * . (١) وكان قلمنا حسن من لعمريه وكان لا ينكر ان يسأل اهلي النظر ويناقشهم عما اشكل عليه في تصانيفه وحجبه الى الناس الاخذ عنه وانتفع به خلق * . (٢) وكان ابو جعفر واسع العلم كثير التأليف * . (٣) قال ابن يونس في تاريخه : كان ابو جعفر النحس عالما بالنحو طرزا وكتب الحديث عن الحسن بن ظهير وطبقته * . ولما آتى الى مصر سمع بها من ابي عبد الرحمن النسائي وغيره (٤) * . وتصانيفه تزيد على الخمسين مصنفا * . (٥) ومن ابرز مصنفاته " كتاب معاني القرآن وكتاب أعراب القرآن — وهما كتابان جليلان اغنيا عما صنف قبلهما في معناهما * . (٦) ولا بد من جعفر النحس ايضا كتابا جليلا هو " التفاحة في النحو " (٧) ويقول د ١٠ احد مختار عمر * انه ذو اهمية كبيرة وقد وضع طلبية لطيفة الناشئة وكتب في اسلوب مبهر وطريقة سهلة مبسطة * والكتاب يلخص النحو كله في بضعة ورقات ويقدم للسداس المبتدئ عبارة القواعد النحوية العلمية ضحيا جانبيا كل ما لا يفيد في تفويهم

(١) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٤

(٢) السيوطي : بغية الوعاة ص ١٥٧

(٣) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — ياقوت الحموي : معجم الادباء

ج٤ ص ٢٢٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٢ — السيوطي : بغية الوعاة ص ١٥٧

(٥) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤

(٦) القفطي : انباء الرواه ج١ ص ١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١

ص ٨٢ — السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٨٨ — انظر

(٧) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤ — القفطي : انباء الرواه

ج١ ص ١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٢ — طحي خليفة

كشف الظنون ج١ ص ٤٠٦

النطق وتصحيح البيان وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التي تتعلسى بها كتب السابقين وبعد هذا الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية فى دراسة النحو العربى . (١)

وهكذا كان لابی جعفر النطس دور كبير فى التجديد فى مجال الدراسات اللغوية والنحوية وكانت مؤلفاته تشير الى عدم اقتصاره على التأليف والتنقيب والاقتداء بالدراسة الهندادية وانما تجاوز ذلك الى تمثيل هذه الثقافة وضمها ثم اخراجها فى صورة مبتكرة .

كانت مدينة القسطنطينية التى عبرت عليها الثقافة العربية ، ففى دراسات النحو واللفظ من الشرق الى الغرب عن طريق النحاة العربيين اشبال ابو العباس رابن ولاد ومناصره ابو جعفر النطس — فقد كانت تلك المدينة ملتقى الدارسين من بلاد المغرب والاندىلس للاخذ عن علماء الفحوب بها . وكان لهؤلاء الدارسين فضل كبير فى رواج المؤلفات النحوية المصوبة فى بلاد المغرب والاندىلس فقد نقلوها معهم الى بلادهم وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى كانت بلاد المغرب والاندىلس تعتمد اعتمادا كليا فى دراسات العربية الاسلامية على مصر . ولم تنفج تلك الدراسات هناك الا على يد المبعوثين الذين زاروا مصر ورسوا فيها . ثم طردوا الى اوطانهم يدرون تلك المؤلفات . (٢) ومن اشهرهم هؤلاء الدارسين فضل الله بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن نجيج الكونى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ من اهل قوطبة ورحل الى المشرق ولقى اباىن ولاد وابن النطس ومصر وسمع منهما . (٣) ومنهم ايضا قاض قضاة الاندىلس منذرين سعيد بن عبد الله البلوطى الذى رحل حاطب سنة ثمان وثلاثائة وروى بمصر كتاب المين عن ابى العباس رابن ولاد بعد ان بخل بل عليه ابو جعفر النطس . (٤)

(١) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٦٤

(٢) احمد مختار عمر : السابق ص ٦٤

(٣) ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندىلس ج ١ ص ٣٩٦

(٤) القفطى : انباء الرواه ج ١ ص ١٠٢ — ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٨٣ — ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندىلس ج ٢ ص ١٤٢ — الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٠٤

ومن أشهر التلاميذ الآخذين من علماء الفسطاط " عبد الكبير بن محمد بن (١) سعيد الجزري القريء - الذي رحل إلى المشرق وسمع بمصر من أبي جعفر الفطس ومن نسخة الاندلس الذين أخذوا عن المصريين أيضا " محمد بن اسحاق بن منذر بن ابراهيم بن أبي عكرمة الداخل إلى الاندلس قاضي الجماعة بقرطبة - رحل سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . فسمع بمصر من أبي جعفر الفطس النحوي وانصرف إلى الاندلس ومات سنة ٣٦٢ هـ . " (٢)

-
- (١) ابن الفرضي : تاريخ الملطاء والرواء للعلم بالاندلس ج١ ص ٢٤٩
(٢) ابن الفرضي : السابق ج٢ ص ٨٠ - الزبيدي : طبقات النحويين ص ٣٣٦

٨- ديوان الرسائل ودوره فى

تدعيم التمريب فى مصر الاسلامية

كان الشعر يشغل مكانة هامة بين علوم اللسان المصرى السائدة بمد ينفسة القسطاط ٠٠ الا ان التقدير والاحلال كان للكلام المنشور الى جانب تقدير الشعر ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مطلقاً للملكة الشعرية ٠ (١)

وكان الانشاء أو الكلام المنشور فى صدر الاسلام مقصوراً على مكاتبة الخلفاء وأمرائهم وقوادهم أو مع سواهم فى طلب حرب أو صلح ٠٠ فلما صار الاسلام دولة تفرعت الكتابة الى أقسام اقتضاها تعدد مصالح الدولة وتفرع احتياجااتها ٠ كان اهمها بالنظر الى الانشاء والبالغة كتابة الرسائل ، وصاحبها يمس كاتب السر ، وهو يد الخليفة ويستودع أسرار ٠٠ (٢) وكانت طريقة كتابة الرسائل مجسالا للتموين على اظهار صور البالغة وأساليبها ٠ (٣) التى تمنى على حد قول العلامة ابن خلدون (مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه — أو بمعنى آخر تركيب الالفاظ المفردة للتمبير بها عن المعانى المقصوده ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال ليلغ المتكلم حينئذ الفاية من أفادة مقصوده للسامع ٠) (٤)

كان للكتابة والكتاب شأن عظيم فى الدولة الاسلامية منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ٠ فقد كان على بن أبى طالب ومحمد بن غاف من كتاب وحى النبى (صلعم) كما كان أبى بن كعب وزيد بن ثابت وطلحة بن سميد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبون بين يديه فى حوائج ٠٠ وكان المغيرة بن شعبة والحسين بن نمر يكتبان طبعين الناس ٠ كما كان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ما كان يكتبه من وصى الرسول عليه الصلاة والسلام ٠ وكان حنظلة بن الربيع يمس

(١) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٤٢٢

(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ ص ١٢٢

(٣) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٤٢٦

(٤) ابن خلدون : المقدمة - الفصل السابع والثلاثون ص ٥٥٤ - ٥٦٠

صفي خليفة كل كاتب من كتاب النبي اذا غاب عن عظه . فطلب عليه اسم الكاتب وكان رسول الله (صلم) يضع عنده خاتمه . ولما تولى الخلافة ابو بكر الصديق رضى الله عنه كان يكتب له عثمان ابن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم وحظلة بن الربيع . وكان يكتب لمصر بن الخطاب زيد بن ثابت . وعبد الله بن الارقم . (١)

ومعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية بعد الفتوحات الاسلامية اتيح الى نظام يضبط امورها وكان عمراول من ندون الدواوين من العرب في الاسلام . (٢) وربما أخذ هذا النظام من الفرس الذين كانوا قد سبقوا الدولة الاسلامية بزمان وبلغوا من الحضارة شأنًا عظيمًا . فتذكر الروايات انه بعد ان وفد ابو هريرة الى أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب فادما من البحرين بطال كبير . احتار الخليفة في عسده فأقترح عليه احد الاشخاص . فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الاطعاس يدنون ديواننا لهم . فقال : دونوا الدواوين . (٣) ومرار الزمن تعددت الدواوين في الدولة الاسلامية فكان منها ديوان الخراج والجند والخاتم (انشاء معاوية بن ابي سفيان ثم كبرت وزاد انتشارها في الدولة العباسية مثل ديوان الاحداث والبريد والزمام وديوان الانشاء او الرسائل الذي كان اهل تلك الدواوين من الناحية الادبية وكانت مهمة متولية اذاعة المراسيم والبيانات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة (٤) وقد استوجبت حالة مصر بعد ان تم فتحها على يد عمرو بن العاص واستقرار العرب بها ضرورة وجود مثل هذا الديوان . فقد كانت مصر مقسمة اداريا الى مصر العليا والصعيد ومصر السفلى أو اسفل الارض . وهذان

(١) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٩ و ١٠

(٢) الجهمشيارى : السابق ص ١١

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١ — الديوان في الاصل كلمة فارسية الجواليقى : المصر ص ١٥٤) — اما معناه " فهو سجل او دفتر او مجتمع الصحف يكتب فيها ساء ارجال الجيش واهل المطاء " وهو موضع لخط ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيش والعطال .
الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٩١

(٤) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٢٣

القسمان الرئيسيان كانا قسمين أقساما أو كورا • وكان بها ثمانون كورة وهــــــ
 مقسمة الى قرى تبعا لتقسيم الرومان ونظمهم الادارية • • وكان يحكم الكورة طـ حسب
 الكورة الذى يعمل تحت اشرافه موظفون • وكانت الامركزية معدومة فى الولايات اى ان
 جميع موظفى الولاية ورؤساء الكور تحت سلطة الوالى الذى كان تحت سلطة الخليفة
 مباشرة • ولقد احتاج الامر الى ان يكون للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى
 تحرير رسائله الى مختلف اقسام صر وكورها والى الخليفة نفسه • ولذا نرى فى آخر
 الرسائل والكتب اننى كان يرسلها الولاة اسما الكتبه الذين كانوا يحرونها مما
 يدل بوضوح على انه كان يصرف فى ذلك العهد ديوان رسائل «أوديوان انشاء» (١)
 ويبدو انه كان هناك مراسلا بين القسطنطين ودار الخلافة سواء فى المدينة أو دمشق
 أو بغداد • ولكن يبدو ان ذلك كان محيطا فى اول الامر وكانت تلك الرسائل
 قليلة معدودة لضيق شأن ديوان الانشاء بالقسطنطين فى بداية عهد السلالة •
 قال القلقشندي : (• • •) لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية فى هذه المدة
 صرف غاية قاصرة عن التشبيه بديوان الخلافة • اذ كانت الخلافة يومئذ
 فى غاية العز ورفعة السلطان • ونياية مصر • بل سائر النيابات مضمحلة فـ
 جانبها • والولايات الصادرة عن النواب وشاغرة متضائلة بالنسبة الى ما يصدر من
 ابواب الخلافة • فلذلك لم يقع ما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف
 الهم لتدوينه • (٢) وربما ترجع ضالة هذا الديوان وعدم قيمته فى اول الامر
 الى ان القائمين بأمر الدواوين فى تلك الفترة كانوا من الاقباط الذين يعرفون
 لغة اهل البلاد • وظل هذا الامر قائما حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك
 وكانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالديوان ففسخت بالعربية وصرف
 الكاتب القبطى " اشناس " وجعل عليها ابن يبرح القوارى من اهل حمص

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨-٣١ وما ذكرته من المصادر القديمة •

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٢٨ - سيد تكاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩

سنة ٨٢ هـ . (١) وكان المصريون المسيحيون قد انتشروا في وظائف البلاد وكان منهم بعض رؤساء الاقاليم حتى عهد عبد العزيز بن مروان " مثل بطريرك الوالى على الصعيد " وحكم مريوط الذى كان يدعى نوافسى — كما كان فى ديوان الحكومة المركزية فى القسطنطينية او طوان كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى وهما " اثناسيوس واسحاق اللذين كانا فى عهد عبد العزيز بن مروان " (٢) وقد اقتضت الحاجة العامة فى البلاد قبل تعريب الدواوين ضرورة وجود مثل هذا النظام حتى يتسنى للحاكمين والمحكومين مرحلة انتقالية لتدبير امور الدولة التى كانت لفتها الرسمية " اليونانية " والعامة القبطية " وتشير اوراق البردى حتى عهد تعريب الدواوين (٨٦ هـ — ٩٦ هـ) فى عهد الوليد بن عبد الملك وولاية عبد الله ابن عبد الملك الى وجود تلك اللغات الثلاثة " اليونانية — القبطية — العربية " والجزء الاول من مجموعة اوراق البردى العربية يشير الى التدريس بتلك اللغات فنجد احيانا نص الوثيقة باليونانية وشرح باللغة العربية ومجموعة اخرى بالعربية والقبطية . (٣) وكانت الكتابات العربية فى معظم هذه الطراز فى تلك الفترة ، لا تعتمد سطرًا او سطرين تتضمن " بسم الله الرحمن الرحيم " ، لا الله الا الله وحده ومحمد رسول الله ثم اسم الوالى او بعض الايات القرآنية . (٤)

كانت أول الرسائل (رسالة عمرو بن الحارث الى أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب بعضها يتصل بالفتح وطلب المدد وبعضها يتصل بوصف البلد وما فيها من مدن . فكان منها رسالته اليه فى وصف مصر بعد فتحها " . (٥) ووصف

(١) الكندى : الولاة ص ٨٨ هـ — ٥٩ هـ — القيرى : الخطط ج ١ ص ٩٨ — ابو المطسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٩٩ — وما ذكرته من المصادر القديمة

(٣) جروهمان : المرجع السابق ج ١ ص ١١ — ١٢ طراز ٣٢

(٤) جروهمان : المرجع السابق ج ١ ص ١١ — ٢٢

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦ — ابو المطسن : النجوم الزاهرة

ج ١ ص ٣٢ — الصيوطى : حصن القاهرة ج ١ ص ٨٨

الاسكندرية في رسالة اخرى . (١) — كما كتب اليه يصف البحر . (٢)

وكان لولاية مصر الاقوياء كتاب ينوبون عنهم في تحرير الرسائل والكتب لرسائلها الى الولايات المختلفة وقد تهاوا هؤلاء الكتاب أرفع المناصب وصار لهم شأن عظيم فبقي ولاية مصر . فقد كان مجاهد بن جبر مولى بنى نوفل كاتباً في مصر أيام عمرو بن العاص . وقد استخلفه عمرو على الخراج حينما خرج الى المدينة فسأله عمرو بن الخطاب من استخلفت ؟ فقال : عمرو استخلفت مجاهداً . فقال عمر : نعم كاتب وان القلم ليرفع صاحبه . (٣) وكان وردان الرومي مولى عمرو بن العاص كاتباً له وكان يهصر اليونانية وهو الذي كتب عهد الامان الذي أعطاه عمرو للمصريين . (٤)

وفي عهد والي الاموي عبد العزيز بن مروان ٦٥٦هـ — ٦٨٦هـ جمعت له الصلاة والخراج وبلغت مصر في عهده شأوا عظيماً . وقد جمعت له المغرب . (٥) فكثرت مراسلاته واحتاج الى كتاب ينوبون عنه في تحرير رسائله فكان له كتاب عد يدون أشهرهم (بناس بن خنابا وكان كاتباً ماهراً من أهل الرعا . (٦) ومن كتساب عبد العزيز بن مروان ايضاً " ابن رمانه الذي بلغ مكانة عالية عند عبد العزيز بن مروان وجمع ثروة طائلة وقد بنى له عبد العزيز داراً وغرس لهم نخيلهم الذي كان لهم بناحية حلسوان . (٧)

(١) ابن سعيد : المغرب ج١ ص ٣٧ — القرظي : الخطط ج٤ ص ٢٧
(٢) الصعودي : موج الذهب ج١ ص ٢١ — ابن سعيد : المغرب ج١ ص ٣٧

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٩
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٣ — الطبري : تاريخ الامم والملوك ج٤ ص ٢٢٩ — القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٣ — ابو الحسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ — سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٧ — ١٨

(٥) الكندي : الولاة ص ٤٨ — ٥٢
(٦) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٤
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٣

وفى عهد قرة بن شريك الذى ولى مصر (٩٠-٩٦ هـ) كان لديه عسدد من الكتاب " لان الوالى كان يتعامل مع عماله فى الكور والاقاليم عن طريق الكتابة والمراسلات وكان الكتاب هم الذين يتولون هذه الاعمال . فجدده يرسل كتابا الى عامله فى كورة أشقوه (من اعمال السيوط يوصيه بدفع الجزية الى جسطال كورتسه والى موازيت القرى " الحمد " . وفى رسالة أخرى يوصيه فيها بالعدل بين الناس والا يفعل شيئا يكرهونه . وفى رسالة ثالثة يأمره بالقبض على المجرمين " . (١) وكان للخصيب بن عبد الحميد كتاب يكتبون عنه (وكان الخصيب امير مصر على الخراج من قبل امير المؤمنين هارون الرشيد وتنسب اليه منية الخصيب بالوجه القبلى " (٢) وكان جابر بن داود جد البلادرى يكتب له " . (٣)

ولم يكن أمر الكتابة قاصرا على الولاة فقد كان العلماء والوجهات يتخذون كتابا يتولون الكتابة عنهم ومنهم من صحب هؤلاء العلماء وصارت له مكانة علمية مرموقة . ومن أبرز هؤلاء " عبد الله بن صالح (المتوفى سنة ٢٢٢ هـ) الذى كان يكتب لليث بن سعد وجيه مصر وطالما " . (٤) وكان عبد الله بن صالح أقرب رجل الى الليث وكان يدخل معه فى ليله ونهاره وفى سفره وخضره ويخلو معه فى أوقات لا يخلو معه غيره " . (٥) وقد استمرت صلة عبد الله بن صالح بالليث بن سعد ما يقرب من عشرين عاما " . (٦)

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٧٠

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٠٥

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٥٦

(٤) الجهمشيارى : المرجع السابق ص ٥٤٥ - السيوطى : طبقات الحفاظ

ج ١ ص ٨٨ - الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٤٦

(٥) ابن سرور المقدسى : الكمال فى اسماء الرجال ج ٢ ص ٢٥٦

(٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٥٨

وكان للقاضي البكري (هاشم بن ابي بكر البكري) الذى ولى قضاء مصر من قبل محمد الامين سنة اربع وتسعين ومائة . (١) اكثر من كاتب مشـل احمد بن هـشـع الهـذـانـى من الكوفة ، ومحمد بن عـبـرة النـخـعى كوفى ايضا * وكان عمرو بن خالد يلزمه ويترسل اليه ، وكان ايضا يكتب له . (٢) ويبدو انه كان للقاضي البكري بعض الكتاب الاقباط الذين كانت لهم مكانة فى نفسه . فيذكر الكندى عن حديث ليحيى بن عـمـان (. . انه لم يكن احدا . أحب الى البكري من ادريس الخولانى ومقارة الكاتب وظالبا ما كان يحضر مجالسه . (٣))

وما ان شارت الدولة الاموية على نهايتها حتى كانت الكتابة الديوانية قد صار لها اصول وقواعد تقننت ووضعت اصولها على يد احد ممن نهضوا من طائفة كتاب الرسائل بها وهو آخر هؤلاء الكتاب (عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب - كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين . وقد كان عبد الحميد هذا فى بداية حياته محلم صببة يتنقل فى البلدان وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزمو وهو الذى سهل البلاغة فى الرسل . (٤))

وقد أوضح فى رسالة موجهة الى الكتاب بيان بما يكون عليه هؤلاء الكتاب من أخلاق وفضائل . بيان بما كانوا يقومون به وما يلتزمون بأدائه من الاعمال منها قوله : (. . . فجعلكم محضرا الكتاب فى اشرف الجهات ، أهل الادب والعزات والريانة ونصحهم بقوله : أرووا الاشعار وأعرفوا عريشها وممانئها وأيام الحرب والمعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه نفسكم . . .) (٥) - كما نصحهم بالمنافسة فى صنوف العلم والادب وبالتفقه فى الدين وان يبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض . (٦) ويبدو ان

(١) الكندى : الولاة والقضاء ص ٤١١-٤١٢

(٢) الكندى : الولاة ص ٤١٥-٤١٦

(٣) المرجع السابق ص ٤١٦

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٦ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٢٦

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٨ - الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٧٤

(٦) الجهمشيارى : السابق ص ٧٤-٧٥

ديوان الرسائل بمصر قد صار له شأن منذ أواخر عهد الولاة الامويين بمصر
وبداية عهد الولاة العباسيين بها وصار يد مع في ديوان الانشاء او يحرف بديوان
الانشاء وكان متولى هذا الديوان لا يقل شأنه عن القاضي — قال الكندي (٠٠) لما
قدمت الصورة ردوا خير بن نعيم من القضاء فأتاه عبد الملك بن مروان يخاطم ابنه
عم له فقدم على مقره فقال : قم مع ابن عمك فقال : كأنك وجدت علينا ان صيرناك
كاتباً بمعد القضاء . . . وقام ولم يخاطم وكان عبد الملك بن مروان النصيري قد ولى
خيرا ديوان الرسائل بعد ان كان قاضيا . . . ويشهر المقرئ الى وجود هذا
الديوان وان كان لم يحدد لوجوده تاريخا معيناً — فيقول (٠٠) انه لما كانت
مصر امانة كان بها ديوان البريد ، ويقال لمتوليه صاحب البريد كما كان لبعض
امراء مصر كتاب بنشئون عنهم الكتب والرسائل (٠٠) (٢)

كما يشير القلقشندي ايضا الى وجود ديوان الرسائل ويوضح مدى ارتباطه
بديوان الانشاء — فيقول (٠٠) وكان هذا الديوان " ديوان الانشاء في الزمن المتقدم
يعبر عنه بديوان الرسائل " تسمية له باشهر الانواع التي تصدر عنه لان الرسائل
اكثر الانواع كتابة للانشاء وأعمها (٠٠) (٣)

وصار لهذا الديوان (الانشاء) شأن كبير بمصر ، ونخب بعض الكتاب
المصريين الذين صار لهم شأن عظيم في ميدان الكتابة الانشائية (فقد كان
غيلان بن مهران بن مسلم الدمشقي كاتباً من أصل مصري وكانت له شهرة واسمعة
وزاعت رسائله . . . وقد عدّه الكندي من مفاخر مصر وفضائلها . . . وأطلقوا عليه
لقب رئيس البلاغة . . . (٤)) واليه تنسب الفيلافة الذين زعموا ان الايمان

(١) الكندي : الولاة ص ٣٥٦

(٢) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٩

(٤) عمر بن محمد الكندي : فضائل مصر ص ٤٢

هو المصرفة الثابتة بالله وقد تولى غيلان سنة ١٥٠ هـ (١) وكان رجال الادب والكتاب يقتبسون من رسائله ويستعينون بها في كتبهم وأحد يشتم (٢) وقد حرص الادباء على الاستعانة برسائله في تنقيح اصولهم في الكتابة والترسل ويشير الجهمشيارى الى ما يؤيد ذلك فيقول (٣) وقد عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدي مفضيا عن ذلك فيقول (٤) وقد عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدي مفضيا عن المنصور ومهنتا بالخلافة فتكلم بكلام قد أعده اعجب الناس به واستحسنوه قبله ذلك فقال لشبيب بن شبه انى والله ما ألفت الى هؤلاء ولكن سل أبنا عبيد الله عما تكلمت فسأله شبيب فقال له : ما أحسن ما تكلم ولكنه لم يتعد بكلامه ان اخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما فأخبر شبيب عبيد الله بذلك فقال له ابوه فوالله ما أخطأ حرفا ولا تجاوزت ما قال (٥) (٦)

ديوان الرسائل في العصر الطولونى :

كان حل ديوان الرسائل (الانشاء) في مصر بادي ذى بد معين الاضطراب والجمود حتى ظفر ابن طولون بولاية مصر فأنشأ فيها لنفسه ديوان رسائل وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة ادبية تماثل ما نشأ في بغداد حول دواوين الرسائل (١) فقد كانت الرسائل الديوانية هي مقياس المعرف اللغوى العام (٢) ولهذا كان حظ النشر الفنى أكبر من حظ الشعر (٣) (٤)

(١) عرب بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٤٢

(٢) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٤١

(٣) الجهمشيارى : المرجع السابق ص ٤٤١

(٤) عروق ضيف : الفن ومذاهبه في النشر العربى ص ٦٠-٦١

(٥) متر : الحفارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٦١

(٦) احمد امين : ظهر الاسلام ص ١٢٣

وكان لقيام ديوان الانشاء بمصر في هذا الوقت أكبر الاثر في حياة النشر الفني بها لا لتطابق الكتاب المهر به . وكان وجود هذا الديوان دافعا قويا في تنافس كتاب النشر الفني للاتطابق به مما كان له اعظم الاثر في نهضة النشر الفني في تلك الفترة . . . ويبدو ان التفكير في انشاء هذا الديوان كان طبيعيا لاستكمال عناصر النهضة بمصر في عصر الطولونيين . وخاصة بعد استقلال ابن طولون بمصر حتى تكون لامارته المستقلة مراسلاتها ولختها الدبلوماسية الخاصة بها . ويشير القلقشندي الى ذلك فيقول (ان احمد بن طولون هو اول من أخذ في ترتيب الملوك واقامة شعار السلطنة بالديار المصرية . ولما شمع سلطانه وأرتفع شأنه أخذ في ترتيب ديوان الانشاء لما يحتاج اليه في المكاتب والولايات) . (١)

وقد اشتهر عدد كبير من كتاب الدواوين في عهد الدولة الطولونية مثل " ابن عبد كان " . (٢) . واحمد بن محمد الواسطي . (٣) . ويعقوب بن اسحاق (٤) . واحمد بن ايمن . (٥) . وغيرهم وقد كان أشهر هؤلاء الكتاب وأعظمهم مكانة هو (ابن عبد كان — ابو جعفر محمد بن مودود وكان احمد بن طولون قد استكتبه فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقعده . (٦) . وقد كان بليغا مترسلا فصيحاً وله ديوان رسائل كبير) . (٧) . وقد بلغ من علو منزلته الادبية ان اهل مدينة السلام (بغداد) كانوا يحسدون اهل مصر . عليه ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثله . . . (٨) . ويعد هذا الامر ذوقا لالة ادبية خطيرة فيبعد ان كانت المراق تستأثر بالادباء والكتاب المهره ، أصبح

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٢٩ — النحوي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٣

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٢٨

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢ — ابن سعيد : المغرب ص ٨٣

(٤) الجهمشيارى : السابق — ابن الداية / المكافاة ص ٢٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٩ — وكان ابن ايمن يكتب للمعالي بن خالد البرمكي

(٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٢٩

(٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٣

(٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ١٧

للولايات المستقلة ومنها مصر الطولونية شأن آخر في اجتذاب هؤلاء الادباء مثل ابن عبدكان هذا الذي لم تقتصر شهرته الادبية في كتابة الرسائل على مصر فقط بل تمدتها الى بلاد الشام — قال ياقوت الحموي (١٠٠) ان صاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل من تقرأ عنكم ؟ فقال الرجل رسائل ابن عبدكان — قال ومن ؟ قال رسائل الصابن (١) .

وقد بلغ من شهرة ابن عبدكان الادبية ان صارت رسائله تقاليد يسير عليها الكتاب من بعده . ويتابعوه فيها (٢) . وبعد تقلد ابن عبدكان ليد يوان الانشاء صار له أثر بعيد في عالم الادب — فكان يقوم باشتان من يرفب في الالتحاق بد يوان الانشاء الذي كان قد بلغ منزلة رفيعة جعلت الكثير من الكتاب العراقيين يتلمسون السبل للالتحاق به . فبهوى ياقوت حديثا عن ابن زولاق المؤرخ المصري فحواه : " ان ابا يعقوب اسحق بن نصير البغدادي قدم من المراق على ابن عبدكان . والتصم التصرف — فقال ابن عبدكان فيم تتصرف ؟ فقال في المكاتبات والاجوة والترسل وكان بين يد ي ابن عبدكان كتب قد وردت فقال له خذ هذه واجب عليها فأخذها ومضى الى ناحية الدار . فأجاب عنها فلما رآها وتأملها الحقه وأجرى عليه اربعين دينارا في كل شهر فلم يزل معه حتى توفي ابن عبدكان (٣) .

ومن اشهر رسائل ابن عبدكان لرسائله التي كتبها احمد بن طولون الى ابنه العباس اثناء تمرده وخروجه على طاعة ابيه (٤) . بدأها بقوله : (من احمد بن طولون مولى امير المؤمنين الى الظالم لنفسه الما صي لربه . الملم بذنبه

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج١ ص ٢٥٨

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٧ — القلقشندي : صبح الاعشى

ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٤

(٣) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ٢ ص ٢٢٢

(٤) الكندي : الولاء ص ٢٢٠ — ٢٢٤

الفسد لكسبه المادى لطوره الجاهل لقدره الناكس على هبه الموكوس فى فتنتسه المنجوس من حظ دنياه وآخرته . . . (١) يقول الدكتور محمد كامل حسين (ان فى هذا الخطاب تتجلى صورة الكتابة المربية السليمة التى تأثرت بها كان فى مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الاجنبية التى نقلت الى المربية) . (٢)

وان كان ابن عبدكاً نقد وصل الى مكانة ادبية رفيعة فى عهد الدولة الطولونية فكان ذلك واجماً الى اهتمام الطولونيون الزائى بكتابهم ، وقد لمسب بعض هؤلاء الكتاب دوراً خطيراً فى النزاع والصراع الذى قام بين العباس بن احمد بن طولون ووالده حين تمرد العباس وشق عصا الطاعة عن ابيه . وكان كل من احمد بن محمد الواسطى وابن جدار قد لمب دوراً بارزاً فى هذا الصراع — فقد كان الواسطى مختصاً باحمد بن طولون — فقد كان رفيقاً له قبل تقليده مصرود خلعه سنة ٢٥٤هـ عند تقلده الحكم فيها) . (٣) كما كان ابن جدار مختصاً بالعباس بن احمد بن طولون ووزيراً له) . (٤) ويبدأ تمرد العباس وخروجه على والده حينما عزم احمد بن طولون على فتح الشام . فخرج فى جيشه سنة اربع وستين ومائتين واستخلف ابنه العباس على مصر وضم اليه احمد ابن محمد الواسطى مدبراً ووزيراً) . (٥) وكان ابن جدار وطائفة معه من حرضوا العباس بان يعتمد عن ابيه ويخرج عن مصر . فلما علم الواسطى بذلك كتب الى احمد بن طولون يخبره بذلك وبلغ العباس ذلك فمزم على ما أشار عليه اصطحبه وترك العباس الواسطى بمصر مقيداً . . . (٦) ويبدو ان احمد بن طولون كان مقدراً لاخلص الواسطى له وخاصة فى ظروف خروج ولده العباس عليه . فجمعه كاتبه الخاص ووزيره وكثيراً

-
- (١) ابن سميع : المغرب ص ٢٥٠ — القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٥٠ —
الهلوى : صيرة ابن طولون ص ٢٥٦ — ٢٦٠
(٢) محمد كامل حسين : فى الادب المصرى الاسلامى ص ٩١
(٣) الهلوى : صيرة ابن طولون ص ٢٣ — ٤٢ — ابن سميع : المغرب ج ١ ص ٨٣
(٤) الكندى : الولاء والقضاء ص ٢١٩
(٥) الكندى : السابق ص ٢١٩
(٦) الكندى : السابق ص ٢٢٠ — ٢٢١

ما كان يرسله نائباً عنه الى بغداد . (١) — ولم يبلغ الواسطي تلك المعانة بمطسه
أو قدراته الادبية لانه كان ضعيفاً في اللغة ، ليس على دزاية كافية بالثقافة الادبية
الواسعة ، اذا ما قورن بابن عبد كان (وقد كان كليل احمد بن طولون يزورون على
الواسطي ويحكوا عنه ان الفاظه عامية وانه يغلط في كتبه ويكثر فاللحن فيها) . (٢) ،
وقد أورد البلوى بعضاً من رسائله . (٣)

أما ابن جدار فقد كان أرفع من الواسطي شأنًا ، فقد كان من الكتاب
المتأزين (قال الصولي عنه : لم يكن يحضر مثله في وقته حسن البلاغة وكانت له
مكتبات كثيرة حسنة) . (٤) فكان قد كتب رسالة الى احمد بن طولون على لسان
ولده العباس حينما خرج على طاعة ابيه . يقال انها أثارت خفق احمد بن طولون
كثيراً على ابن جدار . . . وهي رسالة طويلة تبدأ بـ (. . الى امير المؤمنين ابي
العباس احمد طولون مولى امير المؤمنين من عبد الله مولى الله المتمسك بطاعة
الله المنحرف عن زيغ ظلم المعصية الى وضوح سر البصيرة القابل من الله موعظته
والعامل بما امر به . ان يقول جل ثناؤه " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين " . . . سلام على الامير وعلى من استرجع وادكر وفكر وازدجر) (٥)
ثم تفيض باقى الرسالة في سرد ما يصفيه كاتبها منها وتوضح كتابته ما ينطوى عليه
أسلوبه في الكتابة — فقد برهنت على طول نفسه وقد رته على الاسترسال والتوسع
في مناقى القول مرة بالترادف ومرة باختراع المعاني . . مع التفات الى القرآن
أو اقتباس منه . . . (٦)

(١) الجبهىارى : الوزراء والكتاب ص ٥٤ — البلوى : سيرة ابن طولون
ص ٣٩ — ٤٢ — ابن سميد : المغرب ص ٢٥١

(٢) البلوى : سيرة احمد بن طولون ٢٤٦ — ٢٤٧

(٣) البلوى : السابق ص ٢٦٥

(٤) باقوت الحصى : ومعجم الادباء ج ٧ ص ١٨٢

(٥) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٢٥٦

(٦) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٨

قد كان لبعض المصريين مكانة أدبية رفيعة خولتهم شرف تلقى هذا الديوان في عهد الدولة الطولونية مثل أسرة بنى المهاجر التي شاركت في ديوان الانشاء بأكثر من فرد مثل: " الحسن بن محمد بن ابن المهاجر وأخوته بنو المهاجر على وأبو القاسم وأبو عيسى " (١) وهم ممن ينتمون الى عبد الحميد الكاتب وكانوا من عقبة الذين استوطنوا مصر بعد موقعة هراة (٢)

وقد كان لاحد بن طولون أثر كبير في تشجيع أمثال هؤلاء المصريين على الكتابة والالتحاق بديوان الانشاء رغم مستواهم الادبي المتواضع اذا ما قورنوا بأسلافهم ممن تقلدوا هذا الديوان. وكانت غلبة ابن طولون من ذلك توحي ما يحمد عقبا منهم. وتذكر الروايات انه لما استكتب جعفر بن عبد الفخار المصري حينما أنفذ احمد بن محمد الواسطي الى بغداد - اضطرب ولم ينهض بها أسند اليه. فقال ابن خاقان لاحد بن طولون صديقه: الامير ايداه الله يحتاج الى كاتب أوفى وزنا من هذا الكاتب. فقال ابن طولون: أنا أحمله وأقنع به لانه مصري. فقال له ابن خاقان: والامير ايداه الله يرى ان الكاتب المصري أكتب من العراقي. وأنهض بها يتولاه. فقال له: أعلم ان أصلح الاشياء لمن ملك بلدا ان يكون كاتبه منه. فانه يجمع بذلك اشياء تحدد طقيتها منها: ان عيال الكاتب وشملته وكل ما يملكه معه في بلده ومنها ان جميع ما يكسبه فيه. وان كان ممن يرغب في تجارة كانت تجارته فيه أوفى شراء عقار أو بناء كان منه وهم مستقرون في خدمته. والكاتب الغريب ليس كذلك لانه يعتقد المستغلات في البلد النائي عن وعنه ويستعطن الرباع - ومن يشير عليه ان يعمر بلده الذي يحمل فيه وهو كذلك في كل حال متطلع الى بلده فهذا الذي زهدني في كتاب العراقي بما فيهم من الصلابة وثقتهم في الكتابة " (٣)

(١) D. Zaky Hassan: Les Tulunides, PP. 286 - 287.

الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٤٥٥

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٨٢

(٣) البلوي: اسيرة احمد بن طولون ص ١٥٦ - ابن سعيد: الضرب جا

يتضح من النص السابق ان احمد بن طولون كان قد زهد في كسب
المواق خشية قتلهم - ويبدو انه كان لا يأمن جانبهم - فقد كشف خروج المباس
عن طاعة ابيه عن تعمد ابن جدار وانضمامه للمباس فقتله ابن طولون وفيه الواسطى
الى المراقى وقتل خمارويه الحسن بن مهاجر . . . (١)

كان ابن طولون يأمن بالكتاب المصريين ، فقد كانوا عند حسن ظنه وكان
يشملهم برعايته (فقد كان احمد بن طولون يعجب بالحصين بن مهاجر ويسأل
عنه) . (٢) وقد تنعم بن مهاجر بكثير من الخلال الحيدة التي ظلمها صارت ترفع
من قدره - وتذكر الروايات (انه قد جرى ذكر الحسين بن مهاجر في مجلد
ابن عبد كان فقال عنه . عندما طعن عليه الطغصون : " الصدق اجل ما يؤثر عنه ،
فيه فضل وانه لعل أفضل طريقة . . . وابن مهاجر وفور النفس مستصغر لنصيحة من
ينصحه بعيد الخور ، لا يؤثر على تدبير مال صاحبه وعلى ما زين حاله عنه ، شيئا
من أعراض الدنيا . " (٣) ولا شك ان اتاحة الفرصة للكتاب المصريين كان له أثر
كبير في النهوض بالعلم الفنى بصرفان كان هؤلاء الكتاب لم يلبثوا مكانة الكتاب
المراقين لادبته الا ان وجودهم بدوان الانشاء كان حفزا لهم في اتقان الاساليب
الادبية العربية ليبلغوا مكانة هؤلاء الكتاب المراقين .

ديوان الرسائل في عهد الدولة الاخشيدية :

وفي عهد الدولة الاخشيدية نشطت الكتابة الديوانية نشاطا لا يقل عما كان
في عهد الدولة الطولونية - فقد كانت رسائل القرن الرابع الهجرى مصفة عامة " وهو
القرن الذى كانت تعاصره الدولة الاخشيدية بمصر هي أدق آية من ازدهار

(١) الجهشبارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢-٨٣

(٢) ابن سميح : المغرب ج ١ ص ١٠

(٣) الهلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٤٦

الفن الاسلامي ومادتها هي أنفوس طالعته يد الفنان وهي اللغة (١) . ومصر
كان أحد ائمة اللغة والنحو وهو " ابو جعفر النحاس " . قد وضع كتابا يقدم فيه ألوانا
من الدراسة الواسعة وما يحتاج اليه المشتغلون بها من أدوات وأرشادات وهو كتاب
(صناعة الكتاب) . (٢) وقد فقد هذا الكتاب - وأورد القلقشندي نقفا من هذا
المؤلف المفقود يتبين منها ان غاية ما يصبو اليه النحاس في مؤلفه هو سلامة اللغة
والالفاظ حتى تأتي الرسائل كاملة الرواء بينة الاعراب واضحة الاداء . . . (٣) كما
يعرف الكتاب انواع هذه الرسائل بحسب المكتوب اليهم بها وموضوعاتها كما بين مما
يجمل في افتتاح رسائل الامراء وما يلزم ذلك من دواعي وما يجب في الكتابة الى القضاة
والنظرية . وما يحسن الى الابناء والفتيان والنساء . كما بين الفاظ الافتتاح والفاظ
الختام . (٤)

كان هناك عدد من الكتاب في ديوان الاخشيديين ويبدو هذا واضحا حينما
طلب الاخشيدي من كتابه ردا على رسالة ملك الروم . فكتب له عدد من كتابه اجوبة
" رسائل " فاختار منها كتاب النجوى . (٥) ومن كتاب الاخشيديين محمد بن
عبد الرحمن الروزباري وكان يعاون الفضل بن جعفر بن الفرات (ابن خنزابيه)
كما كان علي بن صالح من كتاب كافور والكتاب الهندادي سهل بن محمد وابو الحسن
ابن جابر وكان يكتب لمبيد الله بن طغج الاخشيدي . (٦)

(١) متر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص ٤٢٩

(٢) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٤ ص ٢٢٤

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج٨ ص ١٢٨ - ١٤٥

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٤٤

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٧ - القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ١ -

سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٣٢٥

(٦) ابن سعيد : المغرب ج١ ص ١٨٨ - ١٨٩

وقد وفد الى القسطنطينية احد الكتاب المشهورين ملتحقا بديوان الانشاء وهو
 " على بن محمد بن نصر بن محمد بن سام " الكاتب الذي كان حسن البديهة شاعرا
 طامحا ، أديبا لا يسلم مسمن لسانه أحد ، وهو من أهل بيت الكتابة وله ديوان
 رسائل وتقليد الديوان بمصر . (١)

وكان لبعض هؤلاء الكتاب شأن عظيم في تبوأ أعلى المناصب في مصر ففى
 تلك الفترة " فقد كان على بن محمد المشهور بابن كلا " بوشابة وزير وسفير للاخشيد
 فقد بلغ منزلة رفيعة عنده وكان كاتبه في دمشق قبل ان يتولى مصر فلما استقر
 بمصر ارتفع شأنه في دولته . (٢)

كان اهم وأعظم هؤلاء الكتاب شأننا في عهد الدولة الاخشيدية (ابراهيم
 بن عبد الله بن محمد النجيري الكاتب وكان لما يعلم العربية . فقد أخذ
 النحو عن الزجاج في العراق وتخرج عليه من المصريين أبو الحسن المصلي وجناده
 اللغوي) . وأعظم رسائله الكتاب الذي أرسله الاخشيد الى المانوس عظيم الروم
 وكان قد ورد الى الاخشيد كتاب المانوس عظيم النصرانية يفخرو فيه . ويزعم ان له
 المنقطعية في خطابة اذا جرت عادته الا يخاطب الا خليفة " فقرأ هذا الكتاب
 على الاخشيد فطلب الى كتابه اعداد رد عليه . وكتب جماعة منهم . ووقع اختيار
 الامير على الرد الذي اعداه النجيري . فأرسله الى حاكم بيزنطة . وقد أعجب
 النجيري نفسه بالكتاب فنسخ منه نسخا وانفذها الى البصرة وأعمالها بفتخري
 بها . (٣) . وهي رسالة طويلة تظهر فيها ثقافة النجيري التاريخية . (٤)

-
- (١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ١ ص ١٢٩
 (٢) ابن اسيد : المغرب ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٥ - ١٩٠
 (٣) أبو المظن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ - السيوطي : بغية الوفاة
 ص ١٨١ - سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيد بين ص ٣٢٥
 (٤) ابن سديد : المغرب ص ١٦٢ - ١٧٢ - سيدة كاشف : مصر في عصر
 الاخشيد بين ص ٣٢٥

== مصادر الرسالة ==

اولا - المصادر الاصلية

ثانيا - المراجع العربية الحديثة

ثالثا - المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية

رابعا - المراجع الافرنجية •

أولا : المصادر الاصلية

١- ابن الاثير (ابو الحسن على بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ)

أ- اسد الغابة في معرفة الصحابة - ٥ اجزاء - القاهرة ١٩٣٨م

ب- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - القاهرة -

١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م

ج - الكامل في التاريخ ١٢ جزء - بولاق ١٢٩هـ

٢- الارزقسي (المتوفى ٢٠٤هـ / ٨١٩م) او (٢١٩هـ / ٨٣٤م) أو

(٣٢٣هـ / ٨٣٨م)

- اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - جزآن - المطبعة

المجديّة بمكة ج١ ص ١٣٥٢هـ - ج٢ سنة ١٣٥٣هـ

٣- الاصطخرى (ابراهيم بن محمد المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع

الهجري - النصف الثاني من القرن الماشرا للميلاد)

- كتاب مسالك الممالك - ليدن ١٩١٢م

٤- الاصفهاني (ابو الفج - المتوفى سنة ٣٥٦هـ)

- الاغنى - القاهرة (دار الكتب المصرية)

٥- ابن ابي اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي

المتوفى سنة ٦٦٨هـ)

- عيون الانباء في طبقات الاطباء - جزآن - القاهرة ١٣٠٠هـ

٦- الانصاري (صفى الدين احمد بن عبد الله الخزرجي المتوفى بحد ٢٠٣هـ)

- خلاصة تذهيب الكمال في اسماء الرجال - القاهرة ١٢٢٢هـ

- ٧- ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد الخنفي المتوفى ٩٣٠ هـ)
— كتاب تاريخ مصر المعروف باسم " بدائع الزهور في وقائع الدهور "
١٢ جزءا — القاهرة — بولاق ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م
- ٨- البخاري (محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦ هـ)
أ- الجامع الصحيح — مطابع دار الشعب ١٩ جزءا — القاهرة
١٣٧٨ هـ
ب- فتح الباري بشرح صحيح البخاري — الطبعة الاولى —
القاهرة ١٣٢٥ هـ
- ٩- الهلوي : (ابو محمد عبدالله بن محمد المديني الهلوي — المتوفى نفس
القرن العاشر الميلادي)
— سيرة احمد بن طولون — تحقيق محمد كرد علي — دمشق /
المكتبة العربية ١٣٥ هـ / ١٩٤٠ م
- ١٠- البلاذري (ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي
المتوفى ٢٧٩ هـ)
— فتح البلدان — القاهرة ١٣١٨ هـ — ١٩٥٦ م
- ١١- ابن تيمية (ابو العباس احمد بن عبد الحليم)
— مقدمة في اصول التفسير — دمشق / مطبعة الترقى ١٩٣٦ م
- ١٢- الثعالبي (ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري المتوفى
٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م)
أ- يتيمة الدهر — ٤ اجزاء — القاهرة ١٩٤٧ م
ب- لطائف المعارف — ليدن ١٨٦٧ م

١٣- الجطح (أبو عثمان عرين بحرين محبوب المتوفى ٢٥٥ هـ)
- البيان والتبيين ج ١ - القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .

١٤- الجرجاني : التمرينات - القاهرة ١٢٨٣ هـ

١٥- ابن الجزري : (شمس الدين محمد بن محمد المتوفى ٨٣٣ هـ)
أ - النشرفى القراءات المشرو - دمشق ١٣٤٥ هـ
ب - فية النهاية فى طبقات القراء - نشر برجستراسر - القاهرة
١٩٣٣ م .

١٦- ابن جلجل : (أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي)
- طبقات الاطباء والحكماء
القاهرة - طبع المعهد العلمى الفرنسى - تحقيق الاستاذ /
فؤاد سيد ١٩٥٥ م .

١٧- ابن جماعة : (بدر الدين بن ابراهيم ابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ)
- تذكرة السامع والمتكلم فى أدب المالم والمعلم
الهند - ١٣٥٣ هـ .

١٨- الجهشيارى : (أبو عبدالله محمد بن محمد وس الجهشيارى الكوفى المتوفى
٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)
- الوزراء والكتاب
الطبعة الاولى - القاهرة ١٩٣٨ م .

١٩- الجوالقى : (أبو منصور موهوب بن احمد بن محمد الخضر)
- المعرب مع الكلام الاعجى على حروف المصم
القاهرة ١٩٣٨ م .

الكاتب

٢٠- ابن الجوزى (ابو الفرج عبد الرحمن بن طى البغدادى - المتوفى ٥٩٧هـ)

— نقد العلم والعلماء او تلخيص باليس

ادارة الطباعة النصرية بالقاهرة

٢١- ابن ابى حاتم الرازى (المتوفى ٣٢٧هـ)

— الجرح والتعديل (حيدرآباد ١٩٥٢م)

٢٢- طحى خليفة (المتوفى ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م)

— كشف الظنون عن اسامى الكتب والقون

٣ اجزاء - استنبول - ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

٢٣- ابن حبان (محمد بن حبان البستي المتوفى ٣٥٤هـ)

— مشاهير علماء الامصار - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة

والنشر ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م

٢٤- ابن حجر المصقلانى (احمد بن على المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

أ - الرحمة الفيثية بالترجمة الليثية فى مناقب سيدنا وولانا

الامام بن محمد - القاهرة - المطبعة الاميرية - ١٣٠١هـ

بولاقي

ب - توالى التأسيس بمعالى ابن ادريس

القاهرة - بولاقي ١٣٠١هـ

ج - الاصابة فى تمييز الصلابة - ١٨ جزء / القاهرة -

مطبعة السعادة ١٣٢٣هـ

د - تهذيب التهذيب - الهند ١٣٢٥هـ - طبعة بيروت

١٣٢٥هـ

هـ - الدر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة - حيدرآباد

١٣٤٩هـ

٢٥- الحصرى القيروانى (ابو الحسن على بن عبد الفنى الفهرى المتوفى ٤٨٨هـ /

١٠٩٥م)

زهرا لاداب وثمر الالباب - القاهرة ١٩٥٣م .

٢٦- ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى المتوفى فى النصف الثانى

من القرن الرابع الهجرى - النصف الثانى من القرن المائى

الميلادى) .

- كتاب صورقالارىس - القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م .

٢٧- ابن خرداذبه (ابو القاسم عبدالله بن عبد الملك المتوفى ٣٠٠هـ)

- المسالك والممالك - ليدن ١٨٨٩م .

٢٨- الخطيب البغدادى (ابو بكر احمد بن عبدالله بن ابي الخير بن على بن حسن)

- تاريخ بغداد - القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

٢٩- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد المشيرى - المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ -

١٤٠٦م) .

أ - المقدمة - القاهرة - المكتبة التجارية

ب - المبرود يوان المبتدأ والخير ج ١ القاهرة ١٢٨٤هـ .

٣٠- ابن خلكان : (ابو المباس احمد بن محمد بن ابراهيم - المتوفى ٦٨١هـ /

١٢٨١م) .

- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - القاهرة

تقيق محمد محى الدين عبد الحميد - الطبعة الاولى - مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٨م - طبعة عيسى البابى الحلبي .

٣١- الخوازي (ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف)

— كتاب مفاتيح العلوم — القاهرة ١٣٤٤هـ — لندن ١٨٩٥م .

٣٢- الداني (ابو عمرو عثمان بن سميد المتوفى سنة ٤٤٤هـ)

— التيسير في القراءات السبع .

تحقيق اتو برنزل — استانبول ١٩٣٠م .

٣٣- ابن الداية (ابو جعفر احمد بن يوسف المتوفى ٣٤٠هـ / ٩٤١م)

— المكافأة وحسن العقبي — صححه وضبطه الاستاذ احمد امين بك

وعلى الجارم بك — الطبعة الاولى — القاهرة — المطبعة

الاميرية — ببولاق سنة ١٩٤١م .

٣٤- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلاني المتوفى سنة ٨٠٩هـ)

— كتاب الانتصار بواسطة عقد الامهار — بيروت — المكتب

التجاري قسم ١ ج ٤ — بولاق — المطبعة الكبرى ١٣١٠هـ —

١٨٩٣م .

٣٥- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

(١٣٤٨م)

أ — تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام

١٥ جزء — القاهرة — مطبعة السمادة ٣٦٨هـ

ب — تذكرة الحفاظ — طبع حيدرآباد / الهند ١٣٢٣هـ

ج — سير اعلام النبلاء / القاهرة ١٩٥٧ / ١٩٦٢م .

د — ميزان الاحدال في نقد الرجال — القاهرة ١٣٢٥هـ

هـ — المير في خبر من غير — الكويت — دائرة المطبوعات

والنشر ج ١ ص ١٩٦٠م .

٣٦ — الرازي (ابن ابن حاتم الرازي المتوفى ٣٢٧ هـ)

أ — اديب الشافعي ومناقبه / تحقيق الشيخ عبدالغنى عبدالخالق

القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م

ب — كتاب الجرح والتعديل — مطبع المعارف المشرقية — حيدر

آباد — بالهند ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م

٣٧ — الراغب الاصبهاني (ابو القاسم حسين بن محمد)

— مخطوطات الادباء ومطبوعات الشعراء والبلغاء

القاهرة ١٣٢٦ هـ

٣٨ — ابن رستق (احمد بن عمر المتوفى ٣٣٢ هـ)

— الاغلق النسيمة — لندن ١٨٩١ م

٣٩ — ابن رشيق (المتوفى ٤٦٢ هـ)

— الحمد في صناعة الشعر ونقد — القاهرة ١٩٢٥ م

٤٠ — الزيدى (ابو بكر بن الحسن)

— طبقات النحويين واللغويين — القاهرة ١٩٥٤ م

٤١ — الزركشى (الامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى)

— البرهان في علوم القرآن — الطبعة الاولى — تحقيق ابو الفضل

ابراهيم — دار اجاء الكتب العربية — " مجى الطبى وشركاه " —

القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م

أى طبعه؟ ولم يرد في فهرس

٤٢ — الزركلى (خير الدين)

— الاعلام — القاهرة ١٣٧٣ — ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٤ — ١٩٥٩ م

- ٤٣ — ابن زولاقي (ابو محمد الحسن بن ابراهيم المتوفى ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)
— اخبار مسيوحه مصرى — نشر الاساتذة محمد ابراهيم محمد
وحسين الديب — الطبعة الاولى — القاهرة ١٣٥٢ هـ —
١٩٣٣ م) .
- ٤٤ — ابن الزيات (ابو عبدالله محمد ناصر الدين محمد لابن عبدالله بن عمر — المتوفى
٨١٤ هـ / ١٤١١ م) .
— الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبيرى
والصغرى — القاهرة — الطبعة الاميرية بمصر —
١٣٢٥ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٤٥ — ساويرس بن القفج (المتوفى فى اواخر القرن الرابع الهجرى)
— سير الالباء البطارقة ٤ مجلدات — هبوع ١٩١٢ م /
باريس ١٩١٥ م .
- ٤٦ — السبكى (تاج الدين ابو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكى — المتوفى
٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
— طبقات الشافعية الكبرى — ١٦ جزء — القاهرة — الطبعة
الحسنية ١٣٢٤ هـ .
- ٤٧ — السخاوى (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى
المتوفى ٩٠٢ هـ)
— الاعلان بالتوبىخ لمن ذم التاريخ — القدى مطبعة
الترقى ١٣٤٩ هـ .
- ٤٨ — ابن سعد كاتب الواقدي (ابو عبدالله محمد بن سعد — المتوفى ٢٤٠ هـ /
٨٤٥ م) .
— الطبقات الكبرى — ١٣ جزء — بيروت ١٣٢٦ هـ / ١٩٥٧ م
وطبعة ليدن ٨ اجزاء ١٩٠٥ / ١٩٢١ م .

٩- ابن سعيد (على بن موسى المقرئ المتوفى ٦٨٥هـ / ١٢٢٥م)

— المغرب في حلى المغرب — الفرار الرابع — ليدن ١٨٩٩م
نشر تلكوست — اكمل تأليف المغرب في حلى المغرب الجزء الاول
من القسم الخاص بنصروني بنشره والتعليق عليه الدكتور
محمد حسن — د . مودة كاشف — د . شوقي ضيف .
القاهرة / مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م .

١٠- سعيد بن البطريق (المصروف باسم اوتيفظ المتوفى ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)

— التاريخ المجموع على التحقيق والتصدق جزآن في مجلد .
بيروت ١٩٠٥ — مطبعة الالباء اليسوعيين .

١١- السمرقندي (ابو الليث نصر بن محمد المتوفى ٣٢٥هـ)

— بستان العارفين — الاستانة ١٢٩٦هـ .

١٢- السلق (ابو عبدالرحمن السلق المتوفى ٢٤٢هـ)

— طبقات الصوفية — الطبعة الاولى / دار الكتاب العربي —

مكتبة الخانجي بصر ١٩٥٣م ^{١٣٧٢هـ} / دار الكتاب العربي

١٣- السمعاني (ابو سعيد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني

المروزي — المتوفى ٥٦٢هـ — ١١٦٦م) .

— انساب العرب — ليدن ١٩١٢م .

١٤- السهيلي :

— الروض الانف والمشرح الروي في تفسير ما اشتمل عليه .

حديث السيرة النبوية لابن هشام — القاهرة

بدون تاريخ .

طبعة الجاهلية محمد ١٢٤٢هـ
١٩٤٤هـ

٥٥- السبوطي (الحافظ جلال الدين عبدالرحمن - المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)

١- تاريخ الخلفاء - تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد

القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

٢- الاتقان في علوم القرآن - القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م.

٣- تحذير الخواص من أكاذيب القصص - القاهرة

٤- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

(المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ - جزآن)

٥- طبقات الحفاظ - تحقيق علي محمد عمر - القاهرة -

الطبعة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.

٧- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - القاهرة ١٩٦٦ م.

الطبعة الثانية.

٥٦- الشافعي (ابو الحسن علي بن محمد المتوفى ٣٨٨ هـ)

- الكيارات - بغداد ١٩٥١ م.

٥٧- الشافعي (ابو عبدالله محمد بن ادریس الشافعي المتوفى ٢٠٤ هـ بمصر)

١- الام - لاجزاء ١ و ٢ القاهرة ١٩٦٩ م.

ب- الرسالة / تحقيق الشيخ احمد شاهر - القاهرة ١٣٥٨ هـ /

١٩٤٠ م.

ج- احكام القرآن (جمع البيهقي المتوفى ٤٥٨ هـ) تحقيق

عزت المطار - القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م.

٥٨- ابن شاکر الکتبی : (المتوفى ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)

- فوات الوفيات

جزآن - القاهرة ١٢٩٩ هـ

٥٩ - الشمراني (عبد الوهاب)

— كتاب الطبقات الكبرى المصنوع "بلواقح الانوار في طبقات
الاخبار" او طبقات الشمراني
المطبعة الشرفية / القاهرة ١٢٩٦هـ

٦٠ - الشيرازي (ابو اسحق ابراهيم بن طي (المتوفى ٤٧٦هـ)

— طبقات الفقهاء — بغداد — المكتبة العربية ١٣٥٦هـ

٦١ - صاعد بن احمد الاندلسي (المتوفى ٦٤٢هـ)

— طبقات الامم — مطبعة السعادة بدمشق

٦٢ - طاش كبرى زاده (احمد بن مصطفى)

— مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم
٣ اجزاء — مراجعة وتحقيق كامل بكرى — عبد الوهاب ابو
النور — القاهرة — دار الكتب الحديثة — مطبعة
الاستقلال الكبرى

٦٤ - الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير المتوفى ٣١٠هـ)

— تاريخ الام والملوك ١١ جزء — القاهرة ١٩٣٩م
ب — جامع البيان عن تأويل آي القرآن — القاهرة —
١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م

٦٥ - ابو الطيب : (عبد الوهاب بن علي)

— مراتب النحويين واللفويين — القاهرة ١٩٥٥م

٦٦ - الطوسي (السراج)

— اللوح بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور
القاهرة ١٩٦٠م

٦٧ — ابن عبد البر القرطبي (أبو عمر يوسف الشافعي ٤٦٣ هـ)

أ — جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله جا
— المطبعة السلفية — المدينة — الطبعة الثانية
١٣٨٨ — ١٩٦٨ م • والطبعة الاولى / القاهرة
ادارة الطباعة المنيرية •

ب — الاستيعاب في معرفة الاصحاب / تحقيق محمد
البيطارى — مطبعة النهضة المصرية — القاهرة
ج — مختصر جامع بيان العلم وفضله • القاهرة — ادارة
الطباعة المنيرية •

٦٨ — ابن عبد ربه الاندلسي (المتوفى ٣٢٢ هـ)

— المقد الفريد — بتحقيق احمد امين وآخريين — القاهرة
١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م • لجنة التأليف والترجمة والنشر

٦٩ — عبد الله بن عبد الحكم (ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٠٤ هـ)
— سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك ابن انس
برواية ابنه (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى
٢٦٨ هـ) •

٧٠ — ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى ٢٥٧ هـ)

— فتوح مصر واخبارها — طبعة توري — ليدن ١٩٢٠ م •
مكتبة المثنى ببغداد •

— فتوح مصر والمغرب — لجنة البهاان المصريين بالقاهرة
١٩٦١ م •

— فتوح مصر واخبارها — المعهد العالي للفرنسي — القاهرة
١٩١٤ م •

٧٦- ابن المهرى (ابو الفرج بن هرون الططى المعروف بابن الصيرى المتوفى

٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .

— تاريخ مختصر الدول — الطبعة الاولى — المطبعة الكاثوليكية

بيروت — لبنان ١٨٩٠م .

٧٧- عرب بن سعد (القرطبي — المتوفى ٣٦٦هـ — ٩٧٦م)

— صلة تاريخ الطبرى — الجزء الثانى عشر من كتاب " الطبرى

— تاريخ الام والملوك — الطبعة الاولى / المطبعة

الحسينية بمصر .

٧٨- ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين

بن عساكر الشافعى المتوفى ٥٧١هـ / ١٩٧٥م) .

— التاريخ الكبير ج ١ و ٢ و ٥ — مطبعة روضة الشام — دمشق

١٣٢٩هـ .

٧٩- ابن العماد الخبلى (ابو الفلاح عبد الحى بن احمد بن محمد الصالحى

المتوفى ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) .

— شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ٨ اجزاء — القاهرة —

١٣٥٠ — ١٣٥١هـ .

٨٠- المصرى : شهاب الدين احمد بن فضل الله المتوفى ٧٤٢هـ .

— مسائل الابصار فى مسائل الامصار ج ١ و ٢ القاهرة —

دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ — ١٩٢٤م .

٨١- القاضى عياض (المتوفى ٥٤٤هـ)

— ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك /

تحقيق د . احمد بكير محمود — بيروت .

٧٧— الفزالي (الامام ابو حامد محمد بن محمد الفزالي المتوفى ٥٠٥ هـ)
— احيا علوم الدين ج ١ و ٢ و ٣ مطبعة لجنة نشر الثقافة
الاسلامية — القاهرة ١٣٥٦ هـ .

٧٨— الفارابي (الفيلسوف ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي)
— احصاء العلوم — تحقيق د . عثمان امين — القاهرة
— الانجني المصرية — الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .

٧٩— الفخر الرازي (المتوفى ٦٠٦ هـ)
— مناقب الامام الشافعي — القاهرة ١٢٧٩ هـ .

٨٠— ابو القدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماء المتوفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ —
١٣٢٢ م) .
— المختصر في اخبار البشر ج ١ و ٢ — القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٨١— ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم ابن علي بن محمد بن فرحون الهمصري
العدني المالكي المتوفى ٧٩٩ هـ) .
— كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب — الطبعة
الاولى مصر ١٣٥١ هـ (المطابع المشرفة بالقاهرة مصر)

٨٢— ابن الفرضي (الحافظ ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي —
المعروف بابن الفرضي المتوفى ٤٠٣ هـ) .
— تاريخ العلماء والرواه للمعلم بالاندلس — جز ١
— مكتبة الخانجي — تحقيق عزت الحسيني المطاوع
١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م .

٨٤ — القابسي (علي بن محمد بن خلف القيرواني المتوفى ٤٠٣ هـ)

— الرسالة المفصلة لآحوال المسلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين

ذيل لكتاب د . أحمد فؤاد الأهواني (التعليم في رأسه .

القابسي — القاهرة ١٩٤٥ م)

٨٥ — ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم المتوفى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م أو ٢٢٦ هـ /

٨٨٩ م)

١ — ادب الكاتب — القاهرة ١٣٤٦ م .

٢ — عيون الأخبار — القاهرة ١٩٢٥ م .

٣ — المصارف : طبعة دار الكتب المصرية — القاهرة

١٩٦٠ م .

٨٦ — قدامة بن جعفر (المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو ٣٣٢ هـ /

٩٤٨ — ٩٤٩ م) .

— نقد النضر — القاهرة ١٩٥٩ م .

— نقد النثر — القاهرة ١٩٣٣ م .

٨٧ — القرآن الكريم .

٨٨ — القفطي (جمال الدين علي بن محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب

المتوفى ٦٤٦ هـ)

أ — مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات المنقطات من كتاب

أخبار العلماء بأخبار الحكماء / بفداد مكتبي المثنى —

مصر — مؤسسة الخانجي .

ب — انباء الرواة على انباء النطة — جزآن — القاهرة —

١٩٥٠ م — ١٩٥٥ م .

(٧) نشر دار الكتب الأولى ١٩٤٤ والثاني ١٩٤٦
والثالث ١٩٤٨ والرابع ١٩٤٩
والخامس نشره مؤسسة الخانجي ١٩٦٤

٨٩ — القلقشندي (ابو المباس أحمد المتوفى ٨٢١ هـ)

— صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ج ٢ — القاهرة ١٩١٣ — ١٩٢٥ م.

٩٠ — ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر المتوفى ٧٥١ هـ) ولد ٦٩١ هـ

أ — اعلام الموقمين عن رب العالمين — القاهرة ١٣٢٥ هـ — والطبعة

الثانية — مطبعة السمادة بمصر ١٩٥٥ م.

ب — احوال السالكين — القاهرة ١٩٥٦ م.
 تحقيق محمد حاتم مصطفى - السيد محمد
 ١٢٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

٩١ — ابن كثير (علاء الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي المتوفى ٥٢٤ هـ)

— البداية والنهاية فى التاريخ — طبعة السمادة بمصر — الطبعة

الاولى ١٩٣٢ م.

٩٢ — الكندي (ابو عمر محمد بن يوسف الكندي — المتوفى ٣٥٠ هـ)

— الولاة وكتاب القضاء — الابهاء اليسوعيين — بيروت ١٩٠٨ م.

— ولاية مصر — دار صادر — بيروت ١٣٢٩ هـ / ١٩٥٩ م.

٩٣ — الماوردي (ابو الحسن على بن محمد بن جبيب البصري المتوفى ٤٥٠ هـ)

— الاحكام السلطانية والولايات الدينية — القاهرة ١٣٩٣ هـ —

١٩٢٣ م.

٩٤ — ابو المطاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاثباكي المتوفى ٨٢٤ هـ)

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — الاجزاء ١ : ٤ —

القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ م.

٩٥ — الصمودى (ابو الحسن على بن الحسن بن على المتوفى ٣٤٦ هـ)

أ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ و ٢ — القاهرة ١٣٢٢ هـ —

١٩٥٨ م.

ب — التنبيه والاشراف : القاهرة ١٩٣٨ م.

٩٦- المقدسى (المعروف بالبشارى ابو عبدالله محمد بن احمد - المتوفى -
٣٧٥هـ أو ٣٨٨هـ)
- احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (الطبعة الثانية -
ليدن ١٩٠٩م)

٩٧- القيرزى (تقي الدين احمد بن على بن عبدالقادر بن محمد المتوفى ٨٤٥هـ)
أ - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب - تحقيق
د - عبدالمجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١م
ب - المعاظ والاعبار رقى ذكر الخطط والاثار - طبعة
بولاق - جزآن ١٢٢٠هـ - طبعة مؤسسة الطبى
بالقاهرة - جزآن

ج - انعاظ الخفا باخبار الائمة الفاطميين الخفيا
جا - القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م - نسخة اخرى
تحقيق - د - جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨م

٩٨- ابن النديم (محمد بن اسحق - المتوفى ٣٨٣هـ)
- الفهرست - القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى

٩٩- الحافظ ابو نعم (احمد بن عبدالله الاصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ)
- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء - الطبعة الاولى -
القاهرة ١٣٥١هـ - ١٣٥٧هـ / ١٩٣٢ / ١٩٣٨م

١٠٠- النوى : (محى الدين بن شمسرف المتوفى ٦٧٦هـ)
أ - تهذيب الاسماء واللغات - القسم الاول - ادارة الطباعة
المنيرية - بالقاهرة

بـ التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (مختصر
من كتاب الارشاد لابن الصلاح المتوفى ٦٤٣ هـ - على
هامش الجزء الاول لشرح الكرمانى على البخارى) - القاهرة
بدون تاريخ .

١٠١ - التويرى : (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المتوفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ -
١٣٣٢ م) .
- نهاية الارب فى فنون الحرب - الاجزاء ١ الى ٤
القاهرة ١٩٦٣ م .

١٠٢ - ابن هشام (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣ او ٢١٨ هـ)
- تهذيب سيرة ابن هشام - تحقيق عبد السلام هارون -
دار محمد بمصر ١٣٧٤ هـ - السيرة النبوية - القاهرة
١٩٣٦ م .

١٠٣ - اليافعى (عبد الله بن اسعد بن على بن سليمان المتوفى ٧٦٨ هـ)
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان - الطبعة الاولى - حيدرآباد
الهند - ١٣٣٧ هـ .

١٠٤ - ياقوت الحموى (شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى - المتوفى
٦٢٦ هـ) .

(١)
أ - معجم البلدان ٨ اجزاء - القاهرة ١٩٣٦ م .
ب - معجم الادباء (ارشاد الارب الى معرفة الاديب)
٢٠ جزء ١ - القاهرة ١٢٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

١٠٥ - ابن وهب (عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى - المتوفى ١٩٧ هـ)
- الجامع فى الحديث ج ١ تحقيق دافيد ويل - مطبعة المعهد انسلمى
الفرنسى بالقاهرة ١٩٣٩ م .

(١) ضريح دارى هادى و سوسونى
١٤٧٤ هـ
١٩٥٥ م

ثانيا - المراجع العربية الحديثة

١- ابراهيم احمد المدوى (الدكتور)
ابن عبد الحكم - رائد المؤرخين العرب - الانجلو المصرية
١٩٦٣م

٢- احمد امين بك:
١- فجر الاسلام ج١ - القاهرة ١٩٤١م
٢- ضحى الاسلام ج٢ - الطبعة الاولى - لجنة التأليف
والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٥٣ - ١٩٣٥م

٣- احمد تيمور باشا:
نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الاربع (الحنفى
والمالكي والحنبلى وانتشارها عند جمهور المسلمين) القاهرة
دار الكتاب العربى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م

٤- احمد شلبسى : (الدكتور)
تاريخ التربية الاسلاميه - بيروت ١٩٥٤م

٥- احمد عيسى : (الدكتور)
تاريخ البيطارسانات في الاسلام - دمشق ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩م

٦- احمد فريد الرفاعى (الدكتور)
- عصر المأمون - جز ١ - الطبعة الاولى - مطبعة دار الكتب
المصرية ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م

٧- احمد فكمبرى:
- مساجد القاهرة ومدارسها ج١ - دار المعارف بمصر ١٩٦١م

- ٨- أحمد مختار عمر (الدكتور)
— تاريخ اللغة العربية بمصر — الهيئة المصرية العامة للتأليف
والنشر — القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.
- ٩- أمين الخولي
— المجددون في الإسلام ١٩٦٥ م.
- ١٠- جرجي زيدان
١- تاريخ آداب اللغة العربية — الأجزاء من ١ : ٣
القاهرة ١٩٣٧ م.
٢- تاريخ التمدن الإسلامي — ج ٣ — القاهرة — دار الهلال
١٩٥٨ م.
- ١١- جواد علي (الدكتور)
تاريخ العرب قبل الإسلام — الأجزاء من ١ إلى ٨
المجمع العلمي العراقي — ١٣٧ هـ — ١٩٥٦ م.
- ١٢- حسن الباشا (الدكتور)
— الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار — القاهرة ١٩٦٥ م.
- ١٣- حسن الباشا (الدكتور) وآخرين
— القاهرة — تاريخها وفنونها — آثارها (القاهرة — مطبعة
الأهرام التجارية ١٩٧٠ م).
- ١٤- حسن إبراهيم حسن : (الدكتور)
١- تاريخ الإسلام السياسي — الأجزاء من ١ : ٣ القاهرة ١٩٣٥ م.
٢- تاريخ عمرو بن العاص — القاهرة ١٩٢٢ م.

- ٣- تاريخ الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٥٨ م.
- ٤- الفاطميون في مصر (وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص
- المطبعة الاميرية بمصر - القاهرة ١٩٢٢ م)
- ١٥- حسن ابراهيم حسن (الدكتور) وعلى ابراهيم حسن
المطبعة
- النظم الاسلامية - القاهرة ١٩٢٩ م.
- ١٦- حسن ابراهيم محمود (الدكتور)
- حضارة مصر الاسلامية في العصر الطولوني
القاهرة ١٩٦٣ م.
- ١٧- حسن عبدالوهاب
- تاريخ المساجد الاثرية - طبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦ م.
- ١٨- حسين مؤنس (الدكتور)
- فجر الاندلس (دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي
الى قيام الدولة الطولونية - القاهرة - الشركة العربية
للطباعة والنشر ١٩٥٩ م)
- ١٩- الخربوطلي (الدكتور على حسني)
١- مصر العربية الاسلامية - القاهرة - مطبعة الانجلو ١٩٦٣
٢- الحضارة العربية الاسلامية - القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٢٠- دائرة المعارف الاسلامية
١- مادة / علم التاريخ (مطبعة الاهداد بالقاهرة ١٣٥٧ هـ /
١٩٣٨ م)
٢- مادة / ابن عبد الحكم / طبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر - القاهرة ١٩٣٣ م.

٢١- دراسات عن ابن عبد الحكم

- اعداد مجموعة من الاساتذة - القاهرة - المكتبة العربية -

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

٢٢- زكى مبارك (الدكتور)

- النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى - جز ١ - القاهرة ١٩٥٧م

٢٣- زكى محمد حسن (الدكتور)

١- الفن الاسلامى فى مصر جا - القاهرة ١٩٣٥م

٢- مصر والحضارة الاسلامية - القاهرة - ١٩٤٢م

٣- الرحالة المسلمون فى المصور الوسطى - القاهرة ١٩٣٧م

٤- كوز الفاطميين - القاهرة - ١٩٣٧م

٥- فنون الاسلام - القاهرة - ١٩٤٨م

الشيخ

٢٤- ابو زهرة - الدكتور محمد

١- الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه - القاهرة ١٩٣٣م

٢- تاريخ المذاهب الاسلامية جا - دار الفكر العربى

بالقاهرة

٢٥- سعاد باهر (الدكتور)

- مساجد مصر وأولياؤها الصالحين جا المجلس الاعلى

للشئون الاسلامية بالقاهرة

٢٦- السيد عبد العزيز سالم (الدكتور)

١- تاريخ الاسكندرية وحظرتها فى العصر الاسلامى - الطبعة

الثانية - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩م

٢- التاريخ والمؤرخون العرب - القاهرة ١٩٦٧م

٢٧- سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة)

١- مصرفى عصر الولاة - القاهرة

٢- مصرفى فجر الاسلام - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٧٠م

٣- مصرفى عصر الاخشيديين - الطبعة الثانية - القاهرة
١٩٧٠م

٤- احمد بن طولون (القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر
- القاهرة ١٩٦٥م)

٥- عبد العزيز بن مروان - القاهرة ١٩٦٧م

٦- الوليد بن عبد الملك - القاهرة - المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢م

٧- مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه - الطبعة
الثانية - القاهرة ١٩٧٦م

٢٨- شوقى ضيف (الدكتور)

١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - القاهرة ١٩٤٣م

٢- الفن ومذاهبه فى النثر العربى - بيروت - ١٩٥٦م

٣- المدارس النحوية - القاهرة ١٩٦٨م

٢٩- الفيا (الدكتور جمال الدين)

- تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر

الفاطمى ج١ دار المعارف بمصر ١٩٦٧م

٣٠- طه حسين (الدكتور)

- مع المتنبى - القاهرة ١٩٣٣م

٣١- عبد الرحمن بدوى (الدكتور)

- التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية - دراسات لكبار

المستشرقين - الف بينها وترجمها د - عبد الرحمن بدوى - (الطبعة
الثانية - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦م)

- ٣٢- عبد الرحمن زكي (الدكتور)
١- الفسطاط وضاحتها (القطاع والعسكر) القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦م.
٢- تراث القاهرة الملمى والفنى فى المصر الاسلامى - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩م).
- ٣٣- عبد العزيز الدورى (الدكتور)
- بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب - بيروت ١٩٦٠م.
- ٣٤- عبد اللطيف حمزه (الدكتور)
- الحركة الفكرية فى مصر - القاهرة ١٩٤٧م.
- ٣٥- عبد الله خورشيد البهى (الدكتور)
١- القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة - القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
٢- القرآن وعلموه فى مصر من ٢٠هـ : ٣٥٨هـ (القاهرة - دار المعارف).
- ٣٦- على باشا مبارك
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة - جزآن - القاهرة ١٣٠٦هـ.
- ٣٧- فيليب حتى (الدكتور)
- تاريخ العرب مطول جزآن (بيروت ١٩٥٨م).
- ٣٨- محمد الصادق عرجون
- التصوف فى الاسلام - منابعه - أطواره - القاهرة ١٩٦٧م.

٣٩ — محمد عبد الله عنان

١ — مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية — طبع دار الكتب
المصرية ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م.

٢ — مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى — القاهرة
— لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الاولى ١٣٨٨ هـ /
١٩٦٩ م.

٤٠ — محمود احمد

— جامع عمرو بن العاص — القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٣ م.

٤١ — مراد كامل (الدكتور)

— حضارة مصرفى المصر القبلى — القاهرة

٤٢ — مصطفى منير أدهم

— رحلة الامام الشافعى الى مصر — القاهرة ١٩٣٠ م.

٤٣ — ولفسون اسرائيل (الدكتور)

— تاريخ اللغات السامية — الطبعة الاولى — القاهرة —

مطبعة الاعتماد ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م.

ثالثا : المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية :

- ١- ارنولد (توماس)
- الدعوة الى الاسلام - ترجمة د . حسن ابراهيم حسن
ود . عبد الحميد عابدين واسماعيل النهر اوى (القاهرة
١٩٥٧ م) .
- ٢- صير بتشر (أ . ل)
- تاريخ الامة القبطية وكتبتها ٣ اجزاء - ترجمة اسكندر
تادرس - القاهرة ١٩٠٠ م .
- ٣- بتلر (الفرد . ج)
- فتح العرب لمصر - تعريب محمد فريد أبو حديد - مطبعة
دار الكتب المصرية بالقاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٠ هـ / ١٩٣٣ م .
- ٤- بيوكلمان (كارل)
١- تاريخ الشعوب الاسلامية - تعريب د . نبيه فارس وضير
بعلبكي - بيروت ١٩٤٨ - ١٩٤٩ م .
٢- تاريخ الادب العربى الاجزاء من ١ : ٤ تعريب
د . عبد الحليم النجار - القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٥- بل (هـ . آيدرس)
- حضارة مصر اليونانية الرومانية وعلم الهردى (من الاسكندر
الاكبر حتى الفتح العربى) دراسة فى انتشار الحضارة
واضمحلالها - تعريب د . محمد عواد حنين - د . عبد اللطيف
احمد على . (القاهرة ١٩٥٤ م) .

٦- جروهان (ادولف)

— اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية — الاجزاء من ١ الى ٥
مترجمة د • حسن ابراهيم حسن — القاهرة ١٩٣٤ م •

٧- دى كاسترى :

— الاسلام خواطر وسوانح — ترجمة احمد فتحى زغلول — القاهرة
— ١٣١٥ هـ / ١٨٩٨ م •

٨- روزنتال (فرائز)

— علم التاريخ عند المسلمين — ترجمة صالح احمد الملى —
مراجعة توفيق حسين — بغداد مكتبة المثنى — ١٩٦٣ م •

٩- على بهجت وألبير جبرائيل

— كتاب حضرات القسطنطينية على بهجت ومحمود عكوش —
الطبعة الاولى — القاهرة — دار الكتب — ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٨ م •

١٠- فلهوزن : (يوليوس)

— احزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام (الخواج
والشيمه) — ترجمة د • عبدالرحمن بدوى — القاهرة / مكتبة
النهضة المصرية ١٩٥٨ م •

١١- ويل (ولهم)

— موجز تاريخ القبط — ترجمة د • مؤد كامل — القاهرة

١٢- وهيب كامل (الدكتور)

- ١- استرابون فى مصر (القاهرة ١٩٥٣ م)
- ٢- ديودور الصقلى فى مصر (القاهرة ١٩٤٧ م)
- ٣- هيروdot فى مصر (القاهرة ١٩٤٦ م)

١٣ — مزر (آدم)

— الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى — جزآن
(ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده — القاهرة ١٣٧٧هـ —
١٩٥٧م) •

١٤ — نيكولسون (رينولد)

١ — فى التصوف الاسلامى وتاريخه (ترجمتها وألف بينهما —
وحنوها د • ابو الملا عفيفى (القاهرة ١٩٤٧هـ — ١٩٥٦م)
٢ — الصوفية فى الاسلام — ترجمة نورالدين شريه (القاهرة
١٩٥١م) •

١٥ — هرنشيو :

علم التاريخ (الرسالة السابعة) ترجمه وعلق حواشيه وأضاف
اليه فضلا فى التاريخ عند العرب — د • عبد الحميد المبادى
— القاهرة ١٩٣٧م •

١٦ — هوروفتش (يوسف)

— المفازى الاول ومؤلفوها — ترجمه الدكتور حسين نصار —
القاهرة ١٩٤٩م

رابعاً : المراجع الأفرنجية :

- 1) Butler-Alfred, J.:
The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 Vols.,
Oxford, 1884.
- 2) Bevan : History of Egypt under the Ptolemic Dynasty.
- 3) Geswell (K.A.C.) :
Early Muslim Architecture (Umayyads, Abbasids
and Tulunids), Vol.1, 2., Oxford 1932-1940.
- 4) Encyclopaedia of Islam. (Vol.III, Leiden, London, 1936).
- 5) D. Georgy Sobhy Bey :
Lectures in the History of Medicine., Cairo -
Fuad I University Press, 1949.
- 6) Lane-Pool (Stanley) :
A History of Egypt in the Middle Ages, London,
1924.
- 7) Milne, (J. Grafton) :
A History of Egypt under Roman Rule, London, 1924.
- 8) Munier: (Henri) :
L'Egypte Byzantine. (Precis de l'hist. d'Egypte,
T. Vol. II, 1932.
- 9) Quatremère: (Et.) :
Recherches Critique et Historiques sur la langue
et littérature de l'Egypt; Paris, 1808.
- 10) Farag Rofail Farag :
Sociological and moral studies in the field of
Coptic monasticism, Leiden, 1964.
- 11) Gastón Wiet :
Catalogue général du musée Arabe du Caire.
Stèles funéraires, Vol.1: IV; Le Caire, 1932.

12) D. Zaky Mohamed Hassan :

Les Tulunides. Etude de l'Egypte Musulmane
à la fin du ix^e siècle, Paris, 1933.

13) Woolner (H.C.) :

Languages in history and Politics.
